حنان الحاج

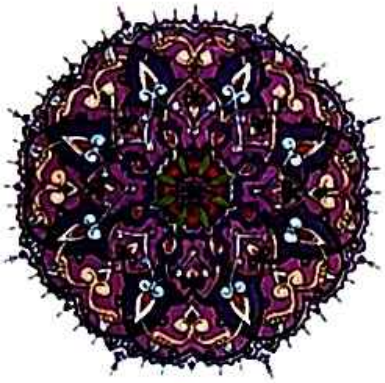

تأمّلات في سورة المائدة

تقديم
جودت سعيد

دار الآفاق والأنفس
للدراسات والنشر والتوزيع

تأمُّلات
في سورة المائدة

حنان الحمام

تأملات في سورة المائدة

تقديم
جودت سعيد

كافة حقوق التأليف محفوظة

تأملات في سورة المائدة
تأليف: حنان لحام
الطبعة: الأولى ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م
العدد: ٢٠٠٠
توزيع: دار الآفاق والأنفس / دمشق

دمشق - شارع مسلم البارودي
ص.ب 4727 - هاتف 2215123

الإهداء

إلى الإخوة والأخوات في درب الإيمان . .

الذين عبروا عن سعادتهم بما أكتب، وطالبوني بالمزيد . .

ولولا ذلك لأمسكت قلمي حياء من قلة بضاعتي، وقصور باعي في عالم الفكر .

اللهم إني أقر بفضلك ونعمتك علي . . ولكنني أعلم علم اليقين أن بضاعتي هذه مزجاة . . ولكنها مطلوبة في عالم ضحل فقير . . لأنها خطوة على الطريق . . وأسألك اللهم أن تأتي الخطوات الأكبر والأقوى على أيدي إخواني وأخواتي قريباً . . وما ذلك على الله بعزيز . . إن قدمنا الجهد والاجتهاد . . بقلوب موصولة محبة لله . . واثقة بعلمه وحكمته ورحمته . .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾

حنان لحام

١٤١٣ هـ ـ ١٩٩٣ م

مقدمة

بقلم الاستاذ: جودت سعيد

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف: ١٥ـ١٦].

نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ومن الذين يتجاوز عن سيئآتهم.

يقوم الإنسان ـ أحياناً ـ بعمل ولا يعرف أهمية ما يعمل.. ويقول قولاً لا يلقي له بالاً ولا يدرك أبعاده.. هل يمكن أن أدرك أبعاد: أن أكتب مقدمة للأخت المؤمنة حنان لحام.. في مطلع القرن الخامس عشر الهجري.. أن أكتب مقدمة لتفسير سور من القرآن تكتبه أخت مؤمنة معانية مكافحة.. أخت مجتهدة.. أخت تبذل جهداً.. أخت تعرف نعمة الله عليها وتتجرأ وتتجاوز حاجز الرعب.. حاجز المسكنة.. هل للمرأة المسلمة حق أن تفسر القرآن.. ؟! هل يجب على المرأة المسلمة أن تفهم كتاب الله.. ؟! أليس من علامة عودة الإسلام غريباً كما بدأ غريباً.. أن تقوم أخت مؤمنة بتفسير القرآن وتكون من السابقات الأوليات في هذا العصر.. ؟.

كان من تقاليد المسلمين في عهدنا: لما يختم الطفل القرآن أن تقام له وليمة وتذبح له ذبيحة احتفالاً واحتفاء.. ماذا ينبغي أن نعمل للأخت حنان.. وقد طمعنا أن تخرج تفسيراً للقرآن في هذا العصر.. ؟ أنا لا أعلم ما يوجد في العالم الإسلامي.. ولكن أظن أنها الوحيدة ـ وإن لم يكن يسرنا وحدتها ـ في هذا العمل.. فنرجو أن تكون فتحت الباب للأخت المسلمة لتقوم بالأعمال التي تدعو إلى الإكبار والخشوع وتطرق مجالات في العلم والحلم.. كنت على علم

بنشاطها في الدرس والاجتهاد حين كانت تقوم بتفسير كتاب الله لأخواتها.. بدأت من سور معينة وكانت تجتهد في المراجع قدر استطاعتها.. ولكم سررت حين كانت تقرأ كتب التاريخ ولا تقف عند كتب التفاسير.. فكم كان سروري كبيراً حين قرأتْ كتاب ابن كثير: البداية والنهاية.. وقامت بالتعليق عليه.. واطّلعت على السيرة النبوية بتوسع.. ولم تقف عند هذا التوسع في التراث الإسلامي.. بل صارت لها رؤية متعمقة في أحداث المسيرة البشرية.. فقد جمعت إلى قراءتها للتراث، قراءاتها المعاصرة فقرأت معالم تاريخ الإنسانية لويلز، وكتاب دراسة في التاريخ (لتوينبي) وقرأت كتاب (قصة الحضارة) لديورانت.. ليست قراءة عابرة.. وإنما قراءة مركزة، متأملة مع تلخيص ما تقرأ.. وكم سعدت بقراءة ملخصاتها وتعليقاتها على ذلك.. كم من طاقات كبيرة لأخواتنا.. وكم سيأتي من خيرات من الجهود المتواصلة مهما كانت متواضعة، فإنها في النهاية ستكون ثقيلة الوزن في الميزان الحضاري في الدنيا، وفي الميزان الأخروي في الآخرة.. إنها قدوة حسنة للمؤمنين والمؤمنات.. إنها لم تطالب بحقوق المرأة، ولكنها بدأت تؤدي واجباتها.. أدركت أن عليها واجبات غير النظر في زينة الحياة الدنيا.. هناك زينات أخرى في الفكر والعمل.. هناك درجات.. هناك معاناة.. ضربت المثل في الكفاح ضد الجهل.. ضد الترهل.. المثل في الدأب والمعاناة الذي لا يطيقه إلا الذين هممهم عالية ونظراتهم بعيدة.. انفرادهم في الطلب دليل على صدق الطلب.

في منطقتنا في الجولان.. لما يبدأ الربيع في القدوم، والشتاء في الانصرام، يبدأ الشقيق المفرد الوحيد الذي لا أخت له بالظهور.. يكون هذا في شهر شباط (فبراير).. أما في آذار ونيسان فيكاد لون الشقيق يصبغ وجه الأرض...

مرحباً بالأخت الكريمة التي جاءت في أعقاب شتاء العالم الإسلامي منفردة كالشقيق.. ونحن ننتظر أخواتها.. كان محمد إقبال يقول:

في الشرق والمغرب في رياض ... من الشقيق شاقني المسير
فما مررت بينها بروض ... شقت به جيوبها الزهور

إن المرأة حين تتوجه بطاقاتها الابداعية لتتعمق في فهم سنن الكون، لها من الصبر والدأب ما هيأها للإشراف على نشأة الأطفال.. وما أدراك ما يحتاج إليه الأطفال من الرعاية المرهفة المملة المرهقة المستمرة.. هذه الطاقة الفطرية للقيام بهذا العمل الإبداعي.. إن هذه الطاقة حين تتوجه إلى إبداع الفكر.. إلى ابداع سلطان الإنسان في الوجود.. لا أشك أنها ستأتي بشيء جديد، مبتكر.. إنها المرشحة للمساهمة في إبراز ما علم الله في الإنسان من تجاوز عهد الفساد، وسفك الدماء.

أيتها الأخت الكريمة: اعلمي أنك الخلق الأحدث «يزيد في الخلق ما يشاء» إنك تمتازين بميزات عن المخلوق الأقدم.. لهذا كنت الأمنية.. كنت المفضلة.. كنت المختارة للإشراف على نشأة الإنسان ورعايتها في عالم الأجنة وفي عالم الطفولة لما لك من مميزات الإشراف على النشأة الأولى..

إن الذين سيقومون بعملية تصنيف للتفاسير في المستقبل سيجدون تفسير الأخت يقع بين التفسير بالمأثور، والتفسير بآيات الآفاق والأنفس. وسيدرك الناس في المستقبل ما بين الكلام ـ أو النص ـ وبين الواقع الذي يتحدث عنه النص.. وسيندهشون حين يكشفون هذه العلاقة المتينة.. والعلاقة الزوجية.. إن العلاقة صارت ظاهرة كونية لاستمرار البقاء واستمرار النمو والزيادة.. بدون التزاوج سينقرض أرقى الأنواع وهو النوع الإنساني.. وبدون التزاوج بين النص والواقع سينقرض الفهم.. إن السمع والبصر ينبغي أن يتزاوجا: النص المسموع والواقع المبصر.. حين تنقطع العلاقة بينهما لا يغني أحدهما عن الآخر. بدون التعامل مع الواقع لا تتولد الخبرات الجديدة والفهم الجديد.. وبدون النص الذي يحفظ الخبرة المبصرة تندثر الخبرات.. وظن الناس ـ وخاصة المسلمين في عهدهم الحاضر ـ أن النص يغني عن الخبرة، والنظر والسير في الأرض.. هذا هو الذي فرغ النص من المعنى، وجعل المعنى شريداً ضائعاً غير قابل للإمساك به والذين يفقدون الصلة بين النصوص والوقائع، هم الذين ورد ذكر مثالهم في التنزيل ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾ [الجمعة: ٥]. وهذا ما قال عنه الرسول ﷺ لصاحبه زياد بن لبيد من أن

العلم (الخبرات = آيات الآفاق والأنفس) حين يذهب لا يعود الإنسان ينتفع بالكتاب.. أوليست هذه اليهود والنصارى بأيديهم التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ؟! وآيات الآفاق والأنفس تدل على أن المسلمين سبقوا وتجاوزوا اليهود والنصارى في عدم انتفاعهم بالقرآن.. إن القرآن يلح على السير في الأرض والشهادة على الناس ولكن هذا الإلحاح مفرغ من المعنى.. من المضمون.. وما من أمر أبعد من تصور المسلمين من أن السير في الأرض والشهادة على الناس تؤدي إلى زيادة وعيهم وفهمهم للحياة.

والأخت حنان اللحام وإن لم يتيسر لها أن تشهد الناس بالسير في الأرض.. فإنها حاولت أن تقرأ مشاهدة الذين ساروا في الأرض. والذي يرى الناس وما جرى لهم في التاريخ يضطر أن يعيد فهمه لتاريخه. وحين يلتقي بوعي الناس في الزمان والمكان يضطر مرغماً بدون اختيار أن يجري التصحيح على وعيه بشعور منه أو بدون شعور.

ألا فليكف الذين يجهلون تاريخ البشر عن تسويد الصفحات بالتفاسير. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ﴾ إن لم تعلموا الآن.

جودت سعيد

جمادى الأولى/ ١٤١٣ هـ

تشرين الثاني/ ١٩٩٢ م

بين يدي السورة

سورة المائدة مدنية وآياتها ١٢٠ آية. وهي من أواخر ما نزل من القرآن.

روى الحاكم عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير تقرأ المائدة ؟ فقلت: نعم. فقالت أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه وما وجدتم فيها من حرام فحرموه[1].

فيها آيات من أواخر ما نزل من القرآن مثل قوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ التي قال عنها عمر أنها نزلت يوم عرفة من حجة الوداع ـ وسيأتي بيان ذلك عند الآية ـ وفيها آيات نزلت قبل غزوة بدر، مثل الآيات التي تذكر رفض بني اسرائيل دخول الأرض المقدسة ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ وذلك أن بعض الصحابة استشهد بالآية عندما استشارهم رسول الله ﷺ في بدر. فالسورة نزلت على مراحل بين هذين الزمنين ولعل أكثرها نزل بعد سورة الفتح.

واسمها (المائدة) مأخوذة من قصة عيسى مع أصحابه الذين طلبوا مائدة من السماء وهي في آخر السورة.. كذلك يمكن أن نقول لأن فيها بياناً للكثير من الحلال والحرام في الطعام والله أعلم.

ومواضيع هذه السورة تدور حول جانبين: تصحيح العلاقة مع الله ـ وتصحيح العلاقة مع الناس. ولا تتعرض لآيات الآفاق وعلاقة الإنسان مع الكون.

ففي جانب تصحيح العلاقة مع الله: يأتي عرض للعقيدة الصحيحة ونقد للعقائد المنحرفة وبيان لمعنى الدين فهو اعتقاد وطاعة وتحكيم لشرع الله. كذلك تبين بعض العبادات مثل الوضوء والتيمم والإحرام.. وبعض المحرمات في الطعام والشراب.. وبعض الكفارات لذنوب تتعلق بحق الله مثل: الصيد

---

(١) صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

للمحرم ـ وكفارة اليمين. . .

وفي جانب تصحيح العلاقة مع الناس: تأتي تنظيمات للمجتمع المسلم من الداخل: مثل إباحة طعام أهل الكتاب والزواج من الكتابية، وبعض العقوبات الجنائية مثل حد السرقة وحد الحرابة. . والشهادة عند الوصية. والسورة قبل كل شيء تحمل الأمة المسلمة رسالة التبليغ والقيام بالقسط في الأرض. . وهو دور جليل يوفر التوازن والقوة للشخصية المسلمة ويضمن التماسك الاجتماعي بين أفراد الأمة. وتأتي تشريعات دولية: يمهد لها بالحديث عن أهل الكتاب وعدائهم للمؤمنين. . فينهى المؤمنين عن موالاتهم. لكن يُشدِّد في الأمر بالوفاء بالعقود معهم ويحُذِّر من تجاوز العدل رغم العداوة والشنآن.

وفي السورة قصص عن أخطاء أهل الكتاب تعرض للعبرة. . وبعضها لا يتكرر ذكره في غير هذه السورة. مثل قصة دخول الأرض المقدسة وقصة المائدة. وقصة ابني آدم تفردت بها السورة وكأنها اللوحة النهائية التي يجب أن تستوحى منها العلاقات الإنسانية السليمة (باعتبار أن السورة من أواخر ما نزل).

ويمكن أن نأخذ فكرة سريعة أفضل عن السورة حين نستعرض أقسامها الأساسية، والفرعية بحسب ترتيب الآيات.

هيكل السورة

١ـ مجموعة من الأحكام : الآيات (١ـ١١)

١ـ الأمر بالوفاء بالعقود.

٢ـ نهي المحرم عن الصيد.

٣ـ تعظيم شعائر الله.

٤ـ لا تدفعكم الكراهية إلى العدوان.

٥ـ تعاونوا على البر والتقوى.

٦ـ المحرمات من اللحوم.

٧ـ النهي عن الأزلام.

٨ـ حِلُّ صيد الجوارح المعلَّمة.

٩ـ حل نكاح أهل الكتاب وطعامهم.

١٠ـ الطهارة للدخول في الصلاة.

١١ـ الأمر بالقوامة بالقسط.

٢ـ في أهل الكتاب: الآيات (١٢ـ٢٦)

١ـ أخذ الميثاق على بني إسرائيل.

٢ـ أخذ الميثاق على النصارى.

٣ـ جاء الإسلام ليظهر كثيراً مما أخفوا.

٤ـ الكتاب يهدي إلى سبل الإسلام.

٥ـ كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح.

٦ـ الرد على الذين قالوا نحن أبناء الله.

٧ـ نداء لهم بمجيء البشير النذير.

٨ـ موسى يأمر قومه بدخول الأرض المقدسة.

٣ـ قصة ابني آدم: الآيات (٢٧ـ٣٢).

١ـ قبول القربان من أحدهما والتهديد بالقتل.

٢ـ موقف الآخر: رفض العنف ولو للدفاع.

٣ـ تنفيذ القتل وندم القاتل.

٤ـ الغراب يعلم كيفية الدفن.

٥ـ قيمة النفس الإنسانية وخطورة الاعتداء عليها.

٤ـ جزاء محاربة الله والسرقة: الآيات (٣٣ـ٤٠)

١ـ حد الحرابة.

٢ـ الأمر بتقوى الله وابتغاء الوسيلة.

٣ـ حد السرقة.

٤ـ هذه الأحكام ممن له ملك السموات والأرض.

٥ـ الذين أنزل إليهم الكتاب ليحكموا به: الآيات (٤١ـ٥٠)

١ـ أصحاب التوراة:

١ـ لا يحزنك أمرهم.

٢ـ بعض صفاتهم.

٣ـ إن تحاكموا إليك فاحكم أو أعرض.

٤ـ كيف يحكمونك وعندهم التوراة.. ؟!

٥ـ بعض ما في التوراة من هدي ونور.

٦ـ من لم يحكم بما أنزل الله: كافرون.

٧ـ شريعة القصاص في التوراة.

٨ـ فمن شاء أن يعفو ويتصدق.

٩ـ من لم يحكم بذلك: ظالمون.

٢ـ أصحاب الإنجيل:

١ـ الإنجيل فيه هدىً ونور.

٢ـ ومصدق لما سبقة من التوراة.

٣ـ من لم يحكم بما أنزل الله: فاسقون.

٣ـ أهل القرآن:

١ـ القرآن مصدق لما سبقه ومهيمن عليه.

٢ـ لكل أمة شرعة لاستباق الخيرات.

٣ـ أفحكم الجاهلية يبغون ؟!

٦ـ تحذير المؤمنين من موالاة أهل الكتاب: (٥١ـ٨٦)

١ـ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء.

٢ـ الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم.

٣ـ من يرتد يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه.

٤ـ وليكم الله ورسوله والذين آمنوا.

٥ـ حزب الله هم الغالبون.

٦ـ النهي عن اتخاذ المستهزئين أولياء.

٧ـ ما تنقمون منا ؟!.

٨ـ التذكير بلمحات من تاريخهم.

٩ـ ينافقون لكم.

١٠ـ كثير منهم يسارعون في الإثم والعدوان.

١١ـ مهمة الربانيين والأحبار.

١٢ـ عقاب الله لهم جزاء افترائهم.

١٣ـ لو آمنوا واتقوا لحصلوا على الآخرة والدنيا.

١٤ـ بلِّغ ما أنزل إليك.

١٥ـ لستم على شيء حتى تتبعوا ما أنزل الله.

١٦ـ من آمن وعمل فلا خوف عليهم.

١٧ـ لمحات من تاريخ بني إسرائيل.

١٨ـ في النصارى: كفر من قالوا الله هو المسيح.

المسيح قال: اعبدوا الله ربي وربكم.

كفر الذين قالوا: الله ثالث ثلاثة.

تهديدهم بالعذاب الأليم وترغيبهم بالتوبة.

المسيح رسول وأمه صديقة. يأكلان الطعام.

كيف يعبدون مالا يملك نفعاً ولا ضراً.

النهي عن الغلو في الدين.

١٩ـ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل بما عصوا واعتدوا.

٢٠ـ أشد الناس عداوة للمؤمنين.

٢١ـ أقربهم مودة للمؤمنين: النصارى.

بعض صفاتهم ـ مصيرهم وجزاؤهم.

٧ـ مجموعة ثانية من الأحكام للمؤمنين: (٨٧ـ١٠٨)

١ـ النهي عن تحريم الطيبات والعدوان.

٢ـ يمين اللغو وكفارة اليمين المنعقدة.

٣ـ تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام.

٤ـ أحكام في الصيد:

١ـ الابتلاء بالصيد.

٢ـ جزاء من صاد عامداً.

٣ـ صيد البحر حلال في كل الأحوال.

٤ـ الكعبة جعلها الله قياماً للناس.

٥ـ تعقيب على ذلك.

٦ـ لا يستوي الخبيث والطيب ولو كثر الخبيث

٥ـ النهي عن السؤال الذي لا يفيد واعتبروا من السابقين.

٦ـ محرمات الجاهلية من الأنعام هي افتراء.

٧ـ التنديد بالتقليد.

٨ـ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم.

٩ـ الشهادة عند الوصية.

٨ـ عيسى والحواريون والمائدة: (١٠٩ـ١٢٠)

١ـ سؤال الرسل ماذا أُجبتم ؟!.

٢ـ تخصيص عيسى بالسؤال.

٣ـ طلب الحواريين أن تنزل عليهم مائدة.

٤ـ براءة عيسى من ادعاء الألوهية.

٥ـ ختام السورة: لله الملك والقدرة.

١ـ مجموعة من الأحكام (١ـ١١)

١ـ الأمر بالوفاء بالعقود

تفتتح السورة بالنداء الرباني ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ويتكرر هذا النداء في السورة ١٦ مرة بينما افتتحت سورة النساء بالنداء العالمي ﴿يا أيها الناس﴾.. فكأن هذه السورة أكثر خصوصية من حيث أنها دعوة وتعليم للمؤمنين بالذات. وكما قال ابن مسعود رضي الله عنه للرجل الذي جاءه قائلاً: اعهد إلي.. (إذا سمعت الله يقول ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه.)[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾.. وإنه لأمر لافت للنظر أن تفتتح سورة طويلة من أواخر ما نزل من القرآن بهذا الافتتاح الفريد ﴿أوفوا بالعقود﴾.. أوفوا: والوفاء هو الاتيان بالشيء وافياً دون أي نقص. والعقود جمع عقد وهو الربط ويكون مادياً أو معنوياً مثل عقد البيع وعقد النكاح.

ولا بد للحياة من ضوابط وهي العقود والعهود. وهو ما بحثناه مراراً بعنوان (أهمية القانون) أو الشجرة المحرمة. فما من إنسانين يلتقيان إلا وتنشأ بينهما علاقة تستند إلى عقد أو عقود.. تبدأ منذ السلام واسلوب الاستقبال إلى طريقة المجالسة والمحادثة.. وانتهاء بعبارات الوداع.. لأن أعراف الناس نوع من العقود التي ترسخت إلى اللاوعي عند الإنسان. وأكبر العقود: شهادة أن لا إله إلا الله لأنها عقد مع الله أن لا تعبد ولا تطيع ولا تلجأ في حاجاتك إلى أحد إلا الله. وهي عقد الإيمان الذي قال عنه الله تعالى ﴿وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾[٢]. ويأتي بعدها عقد الخلافة في الأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ بشرط اتباع الهدى ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) الأعراف: ١٧٢.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] . . ثم يتفرع من عقد الإيمان والخلافة العقود مع الناس والتسخير للكون.

ويمكن أن نميز بين نوعين من العقود: ١ـ عقد الوعي: وهو ما نتعاهد عليه ونعقده بنص فيه شروط واضحة يكتب أو يشهد عليه شهود. ٢ـ وعقد اللاوعي: وهي العادات والأعراف التي نلتزمها لاشعورياً. وكل عقد لا يحل حراماً ولا يحرم حلالاً يصبح الوفاء به واجباً اتباعاً لأمر الله ﴿أوفوا بالعقود﴾. وحتى وعدك لطفلك بشيء ـ مهما كان بسيطاً ـ يصبح عقداً يجب الوفاء به. والموعد عقد يجب الالتزام به. وهنا أتذكر قول أحدهم: (إذا كان الذي يسرق من مالي ـ وهو قابل للتعويض ـ يعاقب بقطع اليد. . فكيف بمن يسرق مني وقتي وعمري ـ وهو مالا يمكن تعويضه ـ حين يتأخر في موعده معي. . ؟!).

ولا يمكن للحياة الإنسانية أن تستقيم وتنمو إلا بالإلتزام والوفاء بالعقود. فهي قاعدة كبيرة تبدأ السورة بتقريرها وتلزم بها المؤمنين قبل غيرهم. . ثم تتوسع الآيات في تطبيقات هذه القاعدة.

ولقد تمثل المجتمع المسلم الأول هذه القاعدة في حياته وخلقه. . فكان المؤمنون هم مضرب المثل في الوفاء بالعقود وحتى في أضيق الظروف. . وما حصل يوم صلح الحديبية من رد أبي بصير وأمثاله من المؤمنين الذين أفلتوا من قيودهم في أهلهم المشركين وأرادوا الالتحاق برسول الله ﷺ وصحبه. . يعتبر نموذجاً فريداً في الوفاء. . ولم يسجل التاريخ على ذلك المجتمع المؤمن حادثة نقض واحدة للعهود. . بل كان المشركون هم الذين ينقضون. . وكان اليهود هم الذين ينقضون. . فلما تكرر النقض من المشركين، وأثبتوا عدم جدارتهم بالتعايش الكريم نزلت سورة براءة. . وأرسل رسول الله ﷺ من يقرأها على الناس في موسم الحج، كي يسمع الجميع، ويبلَّغوا بإنهاء العقود مع المشركين، وبإعطائهم مهلة أربعة أشهر، ليراجعوا فيها مواقفهم ويختاروا الحل الذي يناسبهم: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) البقرة: ٣٨.

أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

بأبي أنت وأمي يارسول الله.. ماذا أذكر من وفائك ؟ وحياتك كلها صفحات ناصعة وضاءة تتضاءل أمامها المكرمات..!! لقد تسلمت مفاتيح الكعبة يوم الفتح.. ووقف علي رضي الله عنه يرجوك أن تحتفظ بمكرمة (حجابة البيت) لبني عبد المطلب ـ عشيرتك ـ فأبيت إلا أن تعيد المفتاح إلى صاحبه.. وفاء بعهد قديم حصل في الجاهلية تقاسمت فيه قريش المكرمات فيما بينها.. ربيت جيلاً فريداً تأصل الوفاء في أعماقه إلى حد عجيب.. ألا ترون إلى عمر حين دخل بيت المقدس وحانت الصلاة وهو في كنيسة القيامة فعرض عليه البطرك أن يصلي هناك.. فقال لا والله فإني أخشى أن يأتي المسلمون من بعدي فيستولون على كنيستكم بدعوى أن عمر صلى فيها..!! لقد اجتاز في وفائه حدود الزمان متحسباً للمستقبل. واليوم ما أكثر ما ضيع المسلمون من العقود والعهود.. لا أقول مع أعدائهم ولكن مع ربهم وفيما بينهم وحتى مع أنفسهم وأولادهم.. حتى شاع بين الناس أن (الموعد العربي) رمز للتأخر والإخلاف.. وأصبح الطفل يتضايق من كلمة (إن شاء الله) حين يشفعها أحد الوالدين بوعده بما يريد.. لأنه يحس أنهما يتملصان من الوفاء بهذه العبارة..

والبشرية الآن ما زالت تؤثر المصلحة العاجلة على الأخلاق.. ولم تتيقن بعد أن الأخلاق هي خير وأبقى، وأن فيها المنفعة والصلاح، في الدنيا قبل الآخرة.. لقد تبين لهم أن الصدق والوفاء في ميدان الصناعة والتجارة هو خير وأبقى.. أما في ميدان السياسة، فلا صدق ولا وفاء.. وإنما هو التقلب والخداع.. وتتجرع الشعوب المستضعفة ويلات هذا الخداع.. ولكن سيأتي اليوم الذي يدرك فيه المستكبرون أن الكأس التي كانوا يسقونها للضعفاء قد سمّمت حياتهم، وضيعت أمنهم وهناءهم.. وغداً تأفُل مدنيتهم ويسقط كيانهم ـ إن لم يعالجوا تخلفهم الأخلاقي قبل فوات الأوان ـ.. وعندها يتحول الآكل إلى مأكول.. وعندها يدركون قيمة القانون الأخلاقي الذي ضيعوه.. فلو أنهم وفوا بالعقود، لوفى الناس لهم.. وما أبعد الشقة بين حضارتهم، وحضارة المسلمين التي أعطت الأولوية للأخلاق.. وعممتها على سائر الأمم التي نعمت بحضارتها.. فلما

ضعفت حضارة المسلمين لم تنقلب ضدها تلك الأمم، بل ظهرت منها دويلات حاولت أن تدعم البناء المنهار حتى لا يسقط (مثل السلاجقة والصفويين والأيوبيين والعثمانيين..) ولنا أن نقارن هذا بما حصل للاتحاد السوفيتي في هذا العصر من تفكك وانقلاب الأمم التي كانت خاضعة له ضده.

وبعد.. فإن المسلمين إن التزموا بهذا الأمر ﴿أوفوا بالعقود﴾ استطاعوا أن يؤدوا دورهم العالمي، في إنقاذ البشرية من حمأة الاستغلال والاستكبار.. وإن العالم بأسره محتاج إلى إشراقة فجر المسلمين، لأن التاريخ أثبت أنهم وحدهم من بين الفاتحين، كانوا هم الذين أعادوا للانسان كرامته، وأمنه، بغض النظر عن دينه، وقوميته، ولونه، وجنسه..[1]

٢ـ نهي المحرم عن الصيد:

جاء الأمر بالوفاء بالعقود وكأنه عنوان للسورة.. والآن تأتي التفاصيل في الأحكام والتوجيهات التي تتضمنها آيات السورة. فيامن خضعتم لله وتنتظرون أوامره.. إليكم هذا البيان لما فيه صلاح حياتكم ومعادكم.. ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.. وتبدأ الآية من الحلال فهو الأصل أما المحرم فهو الحالة المستثناة ولهذا قال الفقهاء (الأصل في الأشياء الإباحة مالم يرد النص بالتحريم).

والبهيمة: ما لا نطق لها لبهم في الصوت (والأمر المبهم: الغامض الذي يفتقر إلى البيان). وأطلقت البهيمة على كل ذات أربع قوائم. والأنعام تشمل: الإبل والبقر والغنم والماعز. ويضم الإنسي والوحشي منها (مثل الظباء والبقر والحمر الوحشية). أما ما يحرم من الانسي فسيأتي تفصيله ﴿إلا ما يتلى﴾ وأما الوحشي فلا يباح صيده للمحرم ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ فلا يجوز للمحرم أن يصطاد ولا يجوز الأكل من صيد صاده محرم (لحج أو عمرة).. كما أن هناك

---

(١) يمكن العودة إلى شهادة المؤرخين من أمثال ول ديورانت الذي تحدث عن الإسلام والمسلمين في الجزء ١٣ من تاريخه قصة الحضارة ثم تحدث عن دخول الغربيين إلى أمريكا وما فعلوه بشعوبها.. وخطف العبيد من أفريقيا..

أرضاً حراماً (الحرمين) لا يجوز الصيد فيها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾.. ولا يحق لأحد غير الله أن يشرع ويحلل ويحرم. فهو الخالق لكل شيء المالك لكل شيء العليم بكل شيء.. يحكم بما يريد.. والله يريد للناس كل خير وارتقاء.. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1]. فهو يريد الخير للبشر ويعلم كيف يتحقق الخير للبشر.. وهذا ما يجعل حكمه أكمل الأحكام.. وإن لم تتبين الحكمة منه لكثير من الناس. ولا يزال الناس يكشفون في كل عصر عن حِكَم جديدة لأحكام الله.

٣ـ تعظيم شعائر الله والشهر الحرام:

ويأتي النداء الثاني للمؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾. والشعار هو العلاقة. والشعائر هي معالم دين الله. فهي دلائل وعلامات مميزة لدين الإسلام. وغلب استعمالها في مناسك الحج. والقصد: لا تضيعوا أوامر الله في الحج وفي غيره.. ونسبت إلى الله (شعائر الله) تعظيماً وتحذيراً للمسلم من الاستهانة بها.

﴿وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾ فإياكم أن تنتهكوا حرمته بقتال أو اعتداء.. فإنه واحة أمان في كل عام يستظل فيه الناس ويدركون نعمة الأمن والسلام بتذوقها.. فلعلهم يسعون إلى تعميم هذه النعمة في حياتهم ونشرها في الأرض وبذلك يخرجون من ظن الملائكة إلى علم الله فيهم ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

ومن المعروف أن الأشهر الحرم أربعة في كل عام. وبذلك يفرض السلام على ثُلُثِ عمر المسلم فرضاً.. وعليه أن يرتقي بالباقي.. وثلاثة من هذه الأشهر قد

---

(١) النساء: ٢٦.

(٢) البقرة: ٣٠. راجع تفسير الآية في كتابي: من هدي سورة البقرة.

خصصت لموسم الحج (شهر قبله وشهر بعده) لحماية الحجاج وتطهير النفوس من العدوان في هذه الأوقات المختارة للعبادة. وقد كان المشركون يتلاعبون بالأشهر الحرم فيؤجلونها من عام لعام إذا عن لهم غزو أو قتال إلى أن جاء الإسلام فأوقف هذه المهزلة.. ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[1].

﴿وَلَا ٱلْهَدْىَ﴾ ماأهدي إلى الكعبة من النعم تقرباً إلى الله وفي ذلك توسعة على من حولها.

﴿وَلَا ٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ كانوا يضعون للهدي قلادة، حتى تعرف بأنها مهداة إلى الكعبة. فلا تستبيحوا هذا النسك.

﴿وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ أمَّ: توجه وقصد. والله يحرم التعرض بأي أذى لكل من قصد البيت الحرام لحج أو عمرة أو تجارة.. فالبيت الحرام مكان جعله الله منطقة أمان للناس والحيوان.. وحتى النبات فقد نهي عن قطع الشجر فيه إلا إذا سببت ضرراً (كما أبيح قتل الفواسق من الحيوان فيه لضررها).. في واحة الأمان هذه يتفرغ الناس للعبادة ويتعاملون بالحب والموادعة.. وهو تدريب عملي على حياة الأمن والسلام.

﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟﴾ إلا في الحرم.. وفي جو هذه الحرمات يدعو الله المؤمنين إلى الوفاء بالعقد وأداء دور القيام بالعدل بين الناس دون تأثر بالعواطف والأهواء.

٤ـ لا تدفعكم الكراهية إلى العدوان:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ وفي الآية إشارة إلى حادثة معينة في السيرة.. وذلك عندما خرج المسلمون مع رسول الله ﷺ قاصدين المسجد الحرام محرمين بالعمرة. فلما وصلوا إلى الحديبية منعهم المشركون من العمرة، ومشتْ وفودٌ بين الطرفين ثم كتب صلح الحديبية.

---

(١) التوبة: ٣٧.

وقد اشتد على أصحاب رسول الله ﷺ أن يمنعوا من البيت الحرام دون سائر الناس.. وحركت هذه الإساءة من المشركين، مشاعر البغض في نفوسهم.. وكثيراً ما تفقد الكراهية صاحبها القدرة على العدل.. حتى أنه يعجز عن رؤية أي خير في من يبغض..

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وإن سمح الإنسان لعواطفه بالانطلاق وقع في الظلم والعدوان.. ومن منهج القرآن تدريب المسلم على أن يكون سيد عواطفه.. والقرآن يعالج الأمر بواقعية.. فالمسلمون بشر يتألمون من إساءة الآخرين إليهم، فيبغضون ويكرهون.. والإسلام يهتم بتصعيد المشاعر، ويزكي القلب السليم من الكراهية، والضغائن.. لكنه واقعي مع أتباعه.. يأخذ بأيديهم في الارتقاء درجة درجة.. فإن كرهتم فلا تسمحوا للكراهية أن تدفعكم إلى العدوان وترك العدل مع المسيء.. فإن تارك العدل ـ ولو مع العدو الكافر ـ آثم مؤاخذ.. ثم تأتي من بعد ذلك درجة أسمى وأعلى من قدر عليها ارتفع إلى مصاف المحسنين الذين يحبهم الله ﴿إن الله مع المحسنين﴾ ويتمتعون بمعيته ﴿إن الله لمع المحسنين﴾. وهي التي عرضها في سور أخرى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[1]. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾[2].

إن الأديان ترتقي بالإنسان المظلوم فتتعهده بتربية طويلة تجعله وهو يعاني من الظلم والقهر.. يكره الظلم ويسعى لرفعه عن الجميع.. حتى إذا وصل إلى مركز قوة وتمكين في الأرض، لم يسع إلى التشفي والانتقام والعدوان.. بل كان أحرص على العدل والإحسان، لأنه تذوق مرارة الحرمان منهما، وآمن بالله، واحتسب أجره عنده وخشي الوقوف والحساب بين يديه. نجد ذلك في تذكير موسى لقومه عندما قالوا: ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن

---

(١) فصلت: ٣٤.

(٢) الرعد: ٢٢.

يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[1] فالمسلم الحقيقي تحرر من عقدة الاستضعاف والاستكبار حين عبد الله وآثر الحق على الخضوع للقوة ولو عرضه ذلك للأذى.. فهو لن يتصرف كما يتصرف المستضعف المقهور حين يحاول التخلص من شحنة القهر بصبها على من هو دونه.. وعلماء النفس تحدثوا عن نفسية الإنسان المقهور وردود أفعاله[2].. ولكن لم يحددوا العلاج بدقة.. وما زالت حتى الآن مشكلة الاستكبار والاستضعاف هي الأولى في العالم والآية هنا تمثل جرعة من العلاج الرباني لهذا المسلم، وقد بدأ يتمكن في الأرض.. ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾.. فلا ينبغي للمسلم أن تكون أعماله ردود أفعال لأعمال الآخرين.. وَلا يجوز أن نغير أعمالنا بمقياس الآخرين.. بل إن العدل والحق فوق كل شيء.

٥ـ وتعاونوا على البر والتقوى:

لما نهى عن العدوان.. أمر بالتعاون على الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾وابن كثير في تفسيره يعرّف البر بأنه فعل الخيرات.. والتقوى: ترك المنكرات.. فكأن البر مرادف للإحسان بينما التقوى هي القيام بالفرائض (أداء الواجبات وترك المحرمات). وفي سورة البقرة تعريف جميل للبر: ﴿۞لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[3].. فالبر ليس أموراً شكلية خاوية وإنما هو جماع الخير لباً ومظهراً.. والآية توجيه إلى الايجابية في العلاقة الاجتماعية.. فليس المسلم شاة

---

(١) الأعراف: ١٢٩.

(٢) من مثل كتاب (سيكولوجية الإنسان المقهور) للدكتور مصطفى حجازي.

(٣) البقرة: ١٧٧.

في قطيع.. ومن المؤسف أنهم قد درجوا على تسمية غريزة الاجتماع بغريزة القطيع!! ـ وإنما هو متضامن مع المجتمع في الخير ينصر إخوانه وأمته بردهم إلى الحق والخير ومنعهم من الظلم.. كما يوضح حديث «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»[1].. لقد تحرر المجتمع المسلم الأول من العصبية الجاهلية إلى حد كبير.. واليوم ينتظر العالم ولادة مجتمع جديد متحرر من كل ذلك.. ويربط الأمر الرباني بالضمير المؤمن الذي يخاف عقاب الله ويرجو رضوانه:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ فلئن عجز المستضعفون عن الرد على العدوان فإن الله ينتقم لهم. وإن العدوان لا بد أن ينال عقابه في الدنيا والآخرة.. ولو بحرمان المعتدي من الارتقاء الإنساني.. وهو عقاب لو تعلمون عظيم..

٦ـ المحرمات من اللحوم:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ.. ﴾ إن الله أحل الطيبات وحرم الخبائث.. والدراسة الموضوعية تبين ضرر وخبث ما حرم الله.. وقد سبق أن ورد هذا التحريم في سورة البقرة مع استثناء حالة الضرورة والرخصة فيها. أما الميتة فهي التي ماتت دون تذكية (ذبح) وستفصل الآية في خمسة أنواع منها. وأما الدم فقد استثنى الحديث منه الكبد والطحال ـ كما استثنى من الميتة السمك والجراد ـ وأما الخنزير فحيوان قذر يعيش على القاذورات، ويتحدثون عن ما فيه من رجس مادي ومعنوي.. ونحن نسلم بحكمة الله وعلمه.. ونفضل حكمته وبيانه على حكم البشر.. وحرم (ما أهل لغير الله به) ـ أي ما ذكر اسم غير الله عليه عند ذبحه ـ تطهيراً للحياة من الشرك ورجسه.. ثم يفصل في أنواع من الميتة.

﴿ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ ﴾ بالماء إذا وقعت فيه أو بحبل.. ﴿ وَٱلْمَوْقُوذَةُ ﴾ التي تضرب بشيء ثقيل فتموت.. ﴿ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ ﴾ التي تقع من السطح.. أو في وادٍ أو في بئر

---

(١) رواه الإمام أحمد.

فتموت. ﴿وَٱلنَّطِيحَةُ﴾ التي ماتت بسبب تناطح بين الحيوانات ﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ﴾ التي عدا عليها حيوان مفترس فأكل بعضها... ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ ما أدركتموه حياً فذبحتموه.. وهي تعود على كل الأنواع السابقة. وللعلماء تفصيلات في موضوع التذكية لا ندخل فيها.. ولكن موضوع الذبح قابل للتطوير بتطور العصر.. فإذا استعمل الإنسان أجهزة جديدة في (مسالخ) كبيرة من شأنها أن تحقق الأسهل والأسرع والأنظف في مسألة الذبح فما المانع من الأخذ بها ؟! طالما تحقق فيها قوله ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه ليس السن والظفر»[1] .. وتوفر فيها الإحسان في الذبح من حيث تخفيف الألم على الحيوان المذبوح.

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ أي الأصنام. وكان المشركون قد نصبوا حجارة حول الكعبة يذبحون لها.. وبعض الجاهلين يذبح على قبور الأولياء وباسمهم.. فهو شرك ولحمه حرام.

٧ـ النهي عن الأزلام:

﴿وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ﴾ فالتحريم هنا للقسمة الظالمة وليس لنوع من الحيوان.. وذلك أنهم في الجاهلية كانت لهم (قداح) ـ مثل العيدان ـ فإذا اشتركوا في جمل ـ مثلاً ـ كتبوا أجزاءه على أقداح متفرقة ويسحب كل واحد منهم قدحاً فيكون نصيبه ما كتب عليه.. وهي قسمة ظالمة. وكانوا يرجعون إلى الأزلام يستفتونها إذا هم أحدهم بسفر أو أي أمر.. فيكتبون على قدح: أفعل وعلى الآخر لا تفعل.. والثالث فارغ من أي كتابة.. كذلك كانوا يديرون لعب القمار بالأزلام على ما يبدو.. فجاء الإسلام فحرم القمار والميسر وحرم اللحوم التي تقسم بالأزلام ـ لأنها من أنواع القمار ـ ويقول الله عنها هنا ﴿ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ أي خروج عن أمر الله..

ويمكن أن نقول أن النهي هنا يشمل كل الأساليب في الكسب التي ترجع إلى

---

(١) ذكر في الصحيحين.

الصدفة والحظ.. وكم توسع الناس في هذا المجال الآن.. واخترعوا أساليب جديدة تفضح جشع الإنسان ورغبته في الكسب بدون بذل جهد.

وكل ذلك حرام.. كذلك فإن المسلم قد نهي عن الأساليب اللا علمية في تدبير أمور حياته.. فإذا هم بأمر من سفر أو زواج أو غير ذلك من أمور الدنيا.. فعليه أن يفكر في الأمر، وعواقبه، ويستشير أهل الرأي وأصحاب التخصص في الأمر ثم يستخير ربه ـ بصلاة الاستخارة الواردة في السنة ـ ثم يمضي لما شرح الله له صدره.. أما اللجوء إلى القداح والأزلام وما شابهها من الوسائل لتعينه على اتخاذ قرار فهو ضرب من الجهالة والخرافة أمر الإسلام بايقافه.. وفي وسط هذه الآية وضمن هذه الأوامر وبيان المحرمات يأتي قوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ إنه التثبيت والتطمين للمسلمين.. لقد يئس الكفار من القضاء على الإسلام.. سبحان الله.. لقد انتصرت دعوة الله وحزبه، مع أنها لم تكن بالنسبة للعالم إلا كنقطة في بحر.. فإذا بها تنتشر وتكتسح بطلان الشرك والكفر من أمامها.. وبعد أن كان الكفار يحزبون الأحزاب ويجمعون الحشود أملاً في القضاء عليها.. إذا بهم يتراجعون ويلقون السلاح.. ثم يذعنون أخيراً لصوت الحق الذي أصبح يجلجل في أعماقهم وصدق الله ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[1] ..

فيا أيها المسلمون لا تخافوا.. إنها البشرى من ربكم ﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم﴾.. لقد أصبح الإسلام حقيقة واقعة راسخة استعصت على كل الكيد والمؤامرات.. إنه الدين الثاني عالمياً من حيث التعداد.. ورغم ضعف أهله وتخلفهم عن مفاهيمه وإهمالهم للدعوة له.. فإنه ينتشر دون حملة (تبشير).. ورغم قوة حملات التبشير وخططها الفنية فإن نسبة المرتدين عن الإسلام قليلة وغير متكافئة مع الجهد المبذول.. إنه وعد الله بحفظ هذا الدين. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾..

---

(١) الإسراء: ٨١.

﴿فلا تخشوهم واخشوني﴾ فأعداء الله أحقر من أن يلحقوا الأذى بكم أو يقضوا على دينه الذي قضى ببقائه. ولكن ذنوبكم هي التي ينبغي أن تكون موضع اهتمامكم لأنها تعرضكم لعقاب الله وسخطه.. ﴿واخشوني﴾.. وكم كرر الخلفاء الراشدون وصيتهم لجنود المسلمين.. (فلتكن ذنوبكم أخوف لكم من عدوكم.. وإن لم تغلبوهم بتقواكم غلبوكم بقوتهم وعتادهم)[1].. ولكننا اليوم نكثر من الحديث عن كيد أعدائنا ونغفل عن دراسة عيوبنا وأخطائنا.. بل نعتبر محاولات النقد والتقويم خيانة وتشهيراً بالمسلمين.. ولا نعتبر بما حدث في الانطلاقة الأولى.. لقد تجمعت شياطين الإنس والجن ضد حفنة مؤمنة انطلقت من مكة متخفية.. فإذا بها تعود بعد عشر سنوات لتفتح الجزيرة العربية كلها.. وإذا بها بعد خمسين عاماً من ذلك وقد اكتسحت مشرق العالم القديم ومغربه.. ولم تستطع أية قوة أن تقتلع الجذور التي غرستها في هذا المشرق والمغرب.. وما انهزم المسلمون مرة إلا وكانت ذنوبهم هي السبب وما انحلت قوتهم وتفسخت حضارتهم إلا عندما أهملوا تدبر قرآنهم والعمل به..

﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ فهل من فضل أكبر من ذلك.. ؟! جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال وأي آية ؟ قال: قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾ فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها.. عشية عرفة في يوم الجمعة[2].

والآية تتضمن التذكير بنعم كبرى منَّ الله بها على المسلمين:

١ـ ﴿أكملت لكم دينكم﴾ فالآية من أواخر ما نزل ولم ينزل بعدها حلال

---

(١) الكلام بما معناه من وصية عمر لجند المسلمين.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

ولا حرام.. والدين هو الطريقة التي يعيش عليها الإنسان ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ ويشمل مجموعة العقائد والشعائر والمحرمات والواجبات والعقوبات.. وسائر التنظيمات التي نسّقت العلاقة بين الإنسان وربه والناس والكون.. ولا يدرك حقيقة النعمة بهذا الدين من لم يعرف أحوال الجاهلية ومآسيها.. فيا أيها المسلمون.. ويا أيها الناس إن الله لم يدعكم تتخبطون في المتاهات.. بل أنزل إليكم الرسالات.. ولم يزل الأنبياء يحملون إليكم هداية الله.. حتى اكتمل الدين بخاتم الأنبياء ﷺ.. فترككم على المحجة البيضاء وآيات الكتاب محفوظة بين أيديكم تشق لكم الطريق وتحثكم على كشف آيات الآفاق والأنفس لتحقيق مزيد من النمو والتسخير والصلاح في الخلافة على الأرض.

٢ـ ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ ولقد كان هذا الإسلام النعمة الكبرى التي منَّ علينا بها خاصة.. وعرضها على الناس كافة.. ولكن كثيراً منهم رفضها لجهله بمواضع الرحمة فيها.. فما أشد جحود المسلمين حين يتنكرون لهذه النعمة التي كانت سبب وجودهم وبقائهم.. وسر خلودهم في التاريخ.. وفي نعيم الآخرة بإذن الله...

٣ـ ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ فكيف لا نرضى بما رضيه الله لنا.. ؟! والإسلام: هو في روحه تسليم النفس لله[1] ومن يرفض أن يسلم نفسه لله.. فقد أسلمها لشياطين الإنس والجن يتلاعبون بها ويستعبدونها..

إن مجيء هذا التذكير بنعم الله ضمن الحديث عن المحرمات هو اسلوب لإدخال الأوامر الإلهية إلى قلب المؤمن وجعله يستمسك بها.. فالذي يأمرك وينهاك هو الذي يرعاك ويحميك من أعدائك ويكمل نعمه عليك.. فليس القصد هو حرمانك وإعناتك.. بل هو حمايتك وإبعادك عما يضرك.. فالتكليف استمرار في الرعاية ومزيد من النعمة..

ومات رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية (في عرفة) بأحد وثمانين يوماً.. ويذكر أن عمر بكى عند نزولها وقال: ما كمل شيء إلا نقص..

---

(١) وهو الإذعان للحق الذي هو من أسمائه تعالى.

فإن صح عنه هذا الخبر فإنه يدل على إدراك لنهاية أجل رسول الله ﷺ.. وإدراك مبكر لأجل الأمة ودورة الحضارة.. حيث أن لحظة الأوج في حياة الأمة هي النقطة التي يبدأ منها الانحدار..

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

وذلك أن النجاح يصبح سبباً للفشل حين يصاب الناجح بالغفلة، والاغترار بما حقق.. ويشبه تونبي هذه الظاهرة في حياة الأمة بالملاح الذي جدَّف بجد حتى وصل إلى الشاطىء.. ثم استرخى على مجدافيه.. والأمم حتى الآن مشت وفق هذه الدورة التي تشبه دورة حياة الإنسان: (طفولة ـ شباب ـ هرم).. ولكن هذا لا يعني حتمية الدورة فإن الإنسان يستطيع أن يتدخل بالعلم ليطيل في شباب الأمة، ويجنبها السقوط. وذلك ما اهتم بتوضيحه الأستاذ جودت سعيد في كتابه (حتى يغيروا).

نقطة أخرى مهمة.. وهي أن قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ لا يعني إغلاق باب الاجتهاد.. ولا يعني أن للإسلام صورة واحدة ثابتة قد تمَّ تشكيلها جملة وتفصيلاً فلا تطرأ عليها أية إضافات.. فلقد تحدث العلماء ـ مثل ابن قيم الجوزية ـ عن أن الناس يُجد لهم من الأحوال ما يقتضي ظهور أحكام وحلول جديدة.. وإن الله قد أكمل الدين بوضع الأطر العامة والدعامات الأساسية التي تقبل ظهور صور متعددة الأشكال كل صورة تناسب زمانها ومكانها وتتنوع في جزئياتها وألوانها.. ويجمعها مع ذلك قاسم مشترك واحد هو الإسلام.. ومع إحساسي بأهمية هذا الموضوع، فإنني أشعر بقصور في تَجْلِيَتِهِ.. فهو يحتاج إلى عرض مبسط بأمثلة ونماذج.. ولنبدأ بمثل بسيط.. إن موضوع الرق قد بدأ يختفي في معظم بقاع الأرض.. وبالتالي فالآيات المتعلقة به قد توقف حكمها الآن. فهل يعني ذلك أن الدين قد نقص.. ؟! وهل يستطيع أحد أن يقول إن عمر رضي الله عنه قد أنقص الدين لأنه أوقف أحد مصارف الزكاة (المؤلفة قلوبهم) لشعوره بأن ظروف المجتمع المسلم قد تغيرت بشكل يقتضي هذا الإجراء ؟! ولعمر اجتهادات

كثيرة في الإيقاف والإضافة.. منها أنه أمر بجمع الناس خلف إمام واحد في صلاة التراويح.. وأعجبه ذلك فقال: نعمت البدعة هذه.

إن التغير حقيقة تاريخية كبرى، تفرض ذاتها على حياتنا، ولو رفضنا الاعتراف بها.. وإن القرآن يقررها ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾[1] ويراعيها وينبهنا إليها.. فلقد وردت في القرآن آيات فيها أحكام منسوخة كانت تناسب مرحلة معينة من حياة المجتمع المسلم.. هذه الآيات (المرحلية) نُسخت بعد ذلك حكماً ولكن بقيت في القرآن لفظاً حتى ننتبه إلى ضرورة التغير والتلاؤم مع الأحوال المتجددة.. وفي القرآن آيات تشرق كاشعاعات، وتمثل تطوراً ونمواً سيحدث في المستقبل، يمكن أن نقول عنها (مستقبلية).. مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ...﴾[2].. معنى ذلك أنه سيأتي زمان يسود السلم والدعوة إليه.. وعلى المجتمع المسلم حينها أن يترك آيات القتال ليطبق أمر الله في الدخول في السلم. كذلك نحس (بالمستقبلية) في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[3] وفي قوله تعالى للملائكة عن هذا الإنسان ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾.. وفي التوجيه للإنسان ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[4].

وعلى هذا فإنه يمكن أن يخرج من القرآن نماذج متعددة من مجتمعات مختلفة متنوعة بتغير الزمان.. ولهذا كان دين الله صالحاً لكل زمان ومكان لأنه يحمل من المرونة ما يعين كل أمة على التكيف ضمن إطاره وقواعده الأساسية. ولهذا تعقد مجامع جديدة للفقه للوصول إلى اجتهادات جديدة في مسائل جدت في الاقتصاد والطب (مثل نقل الأعضاء)..

ولقد سمعت بعض المسلمين يدعو إلى إشاعة تعدد الزوجات بحجة أن

---

(١) فاطر: ١

(٢) البقرة: ٢٠٨

(٣) الصف: ٩

(٤) طه: ١١٤

حكم الله ينبغي أن يبقى مطبقاً في الأرض.. وكأنه يظن أن دين الله ينقص إن ترك الناس التعدد.. ؟! فهل نقص دين الله حين ذهب الرق ؟! وهل نقص دين الله حين توقف استعمال الخيل في الحرب ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ..﴾[1] فمن الواضح أن قوة الخيل لم تعد ترهب الأعداء الآن.

وفي القرآن آيات لا يمكن أن تكون موجهة لمعاصري محمد ﷺ مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾[2].. وآيات تحدثت عن أمم في الماضي وبعض ما كان محرماً عليها ـ مثل بني إسرائيل ـ وما كان مشروعاً لها من قرابين وشعائر ـ مثل سجود إخوة يوسف له ـ ألغيت ونسخت وتجاوزها الناس في ارتقائهم..

أعود فأقول: أحس بأهمية الموضوع وبقصوري في بحثه.. وسيأتي من هو أقدر مني ليبين بوضوح الجانب المتغير في الدين.. ولكني أردت من إشارتي هذه أن ألفت النظر إلى الأمر.. وأطمئن المسلم المرعوب من كل شيء وخاصة من فكرة التغير.. إن أساليب الحياة تتطور وإن الله قد وعد بأن تنمو الحياة الإنسانية إلى الأفضل ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[3].. فلا داعي للتشبث بأوضاع فات أوانها.. وإن رسول الله ﷺ بقوله «أنتم أعلم بأمور دنياكم» قد حثنا على الرجوع إلى العلم في اختيار الأنفع والأبقى للحياة.

نعود إلى الآية حيث نجد الحديث يعود إلى المحرمات من الطعام ليستثني حالة الاضطرار:

﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ﴾ أي مجاعة أو جوع يخشى على حياته منه.

---

(١) الأنفال: ٦٠

(٢) الأنبياء: ٣٠

(٣) الرعد: ١٧

﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ﴾ أي غير مائل للحرام قاصد للوقوع فيه.. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من يُسر الإسلام.

٨ـ حل صيد الجوارح المعلَّمة:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ..﴾.

إن سؤال المؤمنين يدل على حالة التقوى التي كانوا يحيونها فهم يريدون معرفة كل شيء في هذا المنهج الجديد ويتشككون في كل ما كانوا عليه في الجاهلية من تحليل وتحريم فيسألون متحرجين ﴿ماذا أحل لهم﴾ ؟! ويأتي الجواب مليئاً باليسر رافعاً للحرج يوحي بالرضا والقناعة بحكم الله الرحيم المنعم على عباده.. ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ بهذا العموم والشمول والطيب ضد الخبيث. ويتضمن النافع المفيد اللذيذ في طعمه وريحه.. الحلال في كسبه. والنص عام في الحلال المادي والمعنوي (مثل الزواج). فالله العليم الحكيم لم يحرم عليكم إلا الخبائث المضرة بكم مادياً ومعنوياً..

﴿وما علمتم من الجوارح﴾ وهي الحيوانات التي تجرح بنابها أو ظفرها.. وقد استعمل الناس الكلاب والطيور الجارحة في الصيد ﴿مكلبين﴾ مروضين ومعلمين للحيوان. والكلمة مأخوذة من الكلب.. لأن هذا الحيوان هو أكثر ما اهتم الإنسان بتعليمه ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ وهو تذكير بالنعمة وإعطاء القدرة للإنسان على التسخير.. وفيها إشارة إلى الإستمرار في التعليم حتى لا ينسى الجارح ويصطاد لنفسه. وقال الفقهاء يجربه في الصيد ثلاث مرات ثم يأكل بعد الثالثة..

﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ إن أتى الجارح بالصيد ولم يأكل منه كان حلالاً وإن مات بالصيد قبل التذكية (الذبح) ﴿وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ قال ﷺ: «إذا أرسلت كلبك المعلَّم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك»[1]. وفي الأمر تفصيلات لن أدخل فيها تراجع في التفاسير والفقه لمن يريد التوسع. والمهم

---

(١) ثبت في الصحيحين.

هو إبعاد المسلم عما كان عليه المشركون من الإهلال لغير الله عند الذبح والصيد. ويربط الحكم بتقوى الله:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ فإن توخي الحلال في المأكل هام و «كل لحم نبت من السحت فالنار أولى به» وإن الأكل من الخبائث له آثاره السريعة في الدنيا في الجسم والنفس وهذا ما تنبه إليه الآية ﴿إن الله سريع الحساب﴾.

٩ـ حل نكاح أهل الكتاب وطعامهم:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾ يكرر الموضوع ويؤكده.. وكأنه يشير إلى أن الإسلام فيه تخفيف ورفع لبعض الأغلال والأصار التي كانت موجودة من قبله.. فقد كان الناس من قبله يحرمون على أنفسهم أشياء كثيرة.. وحرم الله بعض الطيبات على أهل الكتاب عقوبة لهم. وقد يستطيب بعض الناس أكل بعض المحرمات ويرونها بذوقهم لذيذة.. ولكن معنى الطيب يتضمن ـ كما قلنا ـ النافع الذي ليس له ضرر فردي أو اجتماعي..

﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ ﴾ وهذه نقلة كبيرة في الحياة الإنسانية والعلاقة البشرية.. فالإسلام لم يكتف بمنح أهل الكتاب الحرية الدينية.. بل إنه لم ينبذهم أو يعزلهم اجتماعياً.. ولكنه أنشأ جسوراً هامة في العلاقات.. فالتزاور والايناس وقبول الضيافة.. وحتى الزواج الذي هو أعمق الصلات الاجتماعية وحتى الحجاب من نساء أهل الكتاب.. فلم ينقل عن الصحابيات وأمهات المؤمنين شيء في أنهن أحتجبن من اليهوديات.

وهذا التعامل المتسامح المفتوح يعتبر سابقة تاريخية شهد بها المؤرخون للإسلام.. ولا يخفى ما كان لذلك من أثر في دخول الناس في دين الله أفواجاً.. فمن الواضح أن الضعيف المهزوز في ثقته بنفسه هو الذي ينغلق على ذاته خوفاً من الضياع.. وأما الإسلام فقد أثبت قوته وسلامته بالانفتاح على الجميع..

﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾ والطعام يشمل

الذبائح.. إلا اللحم المنصوص على حرمته.. وأما الحديث «لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي» فمحمول على الإستحباب[1].

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وكما اشترط في المؤمنة أن تكون محصنة.. اشترط ذلك في الكتابية أيضاً فلا بد أن تكون عفيفة ذات خلق حتى تكون جديرة بتأسيس أسرة سليمة. فهي مؤمنة بالله وبدينها ونبيها وعفيفة في أخلاقها.. وأما المشركة فلا تحل. ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي مهورهن ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ فكما أن العفة مطلوبة في النساء فهي مطلوبة في الرجال وعليهم أن يقصدوا بأموالهم الإحصان والزواج.. لا الزنا ولا الخليلات.. وإباحة الزواج من الكتابية هو شأن من شؤون الحياة يُنظر في عواقبه وتقدر فيه ظروف المجتمع.. فلقد كان من اجتهادات عمر رضي الله عنه أنه منع الزواج من الكتابية في إحدى الفترات خوفاً على المسلمات من الكساد.. وللباحث الاجتماعي أن يقدم اجتهادات في هذا المجال.. أحد المفكرين مثلاً قال: إن الإباحة تبدو جيدة ومثمرة عندما يكون المجتمع المسلم في حالة قوة وغلبة وعندها تكون إيناساً للمغلوب ورفعاً لقدره.. أما والمجتمع المسلم ضعيف خاضع للآخرين فإن الزواج من الكتابية يزيد في ضعفه ويخرج جيلاً أبعد ما يكون عن إسلامه..

ولا يحل للكتابي أن ينكح مسلمة كي لا يفتنها في دينها لأن القوامة للرجل.. والمسلم يؤمن بكل الأنبياء ولكن الكتابي لا يؤمن بمحمد ﷺ ويتعرض له بالأذية.. والمسلم يُلزم نفسه بمنح حرية الدين للآخرين امتثالاً لأمر الله ﴿لا إكراه في الدين﴾ ولكن الكتابي لا يتسامح في ذلك.. حتى بين الكاثوليك والبروتستانت لا يحدث التسامح فكيف مع المسلمين..؟! وفي هذا المنع تكريم للمرأة المؤمنة وحماية لها من الاضطهاد والإكراه في الدين.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ وهو تعقيب

---

(١) كذلك يمكن أن يمر الفرد المؤمن بظروف نفسية معينة ـ خاصة إذا كان يعيش في مجتمع منحرف عن الإسلام ـ تتطلب منه ذلك فالحديث يمثل حالة خاصة تناسب مرحلة معينة. ولا يجوز أن يصبح هو القاعدة العامة التي تطبق دون تدبر.

على الزنا شديد.. يشعر بأنه كفر بالإيمان.. يجعل المرء يفقد كل حسناته ويخسر آخرته. وقد يكون تعقيباً على كل ما سبقه من أحكام فإن الإيمان بالله هو الالتزام بحدود ما أحل الله واجتناب ما حرم.

١٠ـ الطهارة للدخول في الصلاة:

وذكر الطهارة والصلاة في هذا الموضوع نلمس فيه إشارات منها:

١ـ فالطهارة والصلاة نوع آخر من الطيبات.. فهي من طيبات الروح.. وأروع متاع هو اللقاء مع الله.

٢ـ أحكام الطهارة والصلاة مثل أحكام الحلال والحرام.. وكلها عبادات لله تعالى.

٣ـ القرآن كتاب الحياة ينتقل مع المؤمن لينظم له جميع جوانب حياته اليومية.. من الأسرة إلى الطعام إلى المسجد.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فلا بد من التهيؤ والاستعداد لهذه الوقفة العظيمة بين يدي الله.. إن من يذهب إلى لقاء إنسان عزيز عليه ينتبه إلى هندامه ونظافته.. ومن يريد أن يقابل ملكاً يتخذ كل ما يقدر عليه من استعداد جسمي ونفسي.. فكيف بمن يريد أن يقف بين يدي رب العالمين.. ؟!

ولهذا قال ﷺ «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم عند كل صلاة بوضوء وعند كل وضوء بسواك»[1].. وقيل إن الأمر بالضوء لكل صلاة كان واجباً في ابتداء الإسلام ثم نسخ فصار مستحباً. عن بريدة قال: كان رسول الله ﷺ يتوضأ عند كل صلاة فلما كان يوم الفتح توضأ ومسح على خفيه، وصلى الصلوات بوضوء واحد فقال عمر: يارسول الله إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله قال: «إني عمداً فعلته يا عمر»[2]. والآية تعدد فرائض الوضوء.

---

(١)

(٢) رواه مسلم والإمام أحمد.

﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ فالفرائض في الوضوء أربعة ـ عدا النية التي هي أصل في كل عمل ـ واختلفوا في غسل الرجلين أو مسحهما.. والأولى الغسل لأنها لو كانت معطوفة على المسح لكسرت اللام في (أرجلكم) فهي معطوفة على (وجوهكم).. كذلك وردت أحاديث عدة تنص على غسل الرجلين. منها: عن عبد الله بن زيد بن عاصم الأنصاري رضي الله عنه وكانت له صحبة قال: قيل له توضأ لنا وضوء رسول الله ﷺ. فدعا بإناء فأكفأ على يديه فغسلهما ثلاثاً ثم أدخل يده فاستخرجها فمضمض واستنشق من كفه واحدة ففعل ذلك ثلاثاً. ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل وجهه ثلاثاً ثم أدخل يده فاستخرجها فغسل يديه إلى المرفقين مرتين مرتين ثم أدخل يده فاستخرجها فمسح برأسه فأقبل بيديه وأدبر ثم غسل رجليه إلى الكعبين ثم قال: هكذا كان وضوء رسول الله ﷺ[1]. وفي تفسير المنار بحث طويل حول ذلك يقول في آخره: خلاصة الخلاصة أن الغسل للرجلين المكشوفتين والمسح للمستورتين ـ طبعاً إذا لبس الخفين أو النعلين أو الجوربين على طهارة ـ ويكون المسح على ظهر الخف وهو رخصة محددة بوقت: للمقيم يوم وليلة وللمسافر ثلاثة أيام بلياليها.. وإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه.. بينما كثير من المسلمين الآن يتحرجون من الأخذ بالرخص والتسهيلات ولكنهم يتهاونون ببعض الفرائض.. مثل فريضة طلب العلم.. والحديث الذي أوردته يوضح سنن الوضوء التي منها: الترتيب ـ والغسل ثلاثاً.. وتراجع التفاصيل في كتب الحديث والفقه وأكتفي بإيراد حديث في فضل الوضوء: عن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها

---

(١) رواه مسلم.

شاء»[1] وفي حديث آخر أنه تخرج خطايا كل عضو مع غسله في الوضوء.. فلله الحمد والمنة.

﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ بالاغتسال قبل الصلاة.. وصفته تؤخذ من عمل رسول الله ﷺ. عن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت: أدنيت لرسول الله ﷺ غسله من الجنابة فغسل كفيه مرتين أو ثلاثاً، ثم أدخل يده في الإناء ثم أفرغ به على فرجه وغسله بشماله ثم ضرب بشماله الأرض فدلكها دلكاً شديداً ثم توضأ وضوءه للصلاة ثم أفرغ على رأسه ثلاث حفنات كل حفنة مِلءُ كفه، ثم غسل سائر جسده، ثم تنحى عن مقامه ذلك فغسل رجليه ثم أتيته بالمنديل فردَّه[2]. (ولا يفيد ذلك عدم جواز التنشيف بالمنديل إذ لا دليل على ذلك).

والغسل والوضوء يحققان الطهارة والنظافة ويعيدان النشاط إلى الجسم استعداداً للقيام بين يدي الله تعالى. فإن لم يتمكن المسلم من الوضوء، أو الاغتسال، لسبب من الأسباب، فإن الله يمنحه رخصة التيمم.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ والتيمم ينوب عن الوضوء وعن الاغتسال في حالات ثلاث: ١ـ المرض (الذي يحول دون استعمال الماء) ٢ـ السفر[3]. ٣ـ فقد الماء. وكأن الآية تذكر نواقض الوضوء ونواقض الغسل.

﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ كناية عن قضاء الحاجة لأن الغائط هو المكان المنخفض الذي يقصدونه لقضاء الحاجة ﴿أو لامستم النساء﴾ كناية عن الجماع. والقرآن يعلم الناس أدب الكلام فيوضح الحكم بألفاظ لا يتحرج المرء من التلفظ بها. ﴿فتيمموا﴾ والتيمم: هو القصد والتوجه ﴿صعيداً طيباً﴾ كل ما صعد على الأرض بشرط أن يكون طاهراً. أما الكيفية فكما

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) هناك خلاف بين العلماء فيما إذا كان السفر وحده مبرراً للتيمم أم أنه يجب أن يقترن بالحرج في استعمال الماء.

بينت في سورة النساء.. يضرب بيديه على الصعيد ضربة واحدة ـ وينفضهما من التراب ـ فيمسح وجهه ويديه.. وهو أمر يقصد به تزكية النفس وإعدادها للصلاة. وقد يتبيّن للناس في المستقبل أكثر من ذلك.

﴿ فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ وفي هذا التعقيب إشارات لطيفة حانية منها:

١ـ رفع الحرج والعسر عن المسلمين.. وهو مقصد هام من مقاصد الشريعة ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[1] وفي ذلك رد على فريقين: ١ـ الذين يزعمون أن أوامر الله شاقة.. ولكن من يدرس العواقب ويتأملها يجد أن المشقة التي تأتي من ترك أوامر الله هي أكبر وأثقل.. ولا يخفى الآن ما للنظافة من أثر في الحماية من الأمراض. وما أعظم الدين الذي جعل النظافة من فرائضه بحيث يلتزم بها العالم والجاهل والحضري والبدوي.. وفي سائر أحكام الإسلام يمكن للمتأمل أن يرى العواقب التي فيها الضيق والضرر لمن يترك أمر الله.. حتى في العبادات التي تؤدى لله خالصة.. ولكنها تجنب الإنسان الشقاء النفسي والتفكك الاجتماعي..

٢ـ وكذلك في الآية رد على المتشدّدين الذين يريدون أن يضيقوا ما وسع الله.. ورسول الله ﷺ لم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً. فالذين يرفضون الرخص ويزيدون في مساحة الحرام.. يسيئون إلى دين الله ويصدّون الناس عنه.. وقد ندد الله بالذين يحرمون ما أحل الله لأنهم يعتدون على حاكمية الله ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[2].

٢ـ الحرص على التطهر والتهيؤ جسمياً ونفسياً قبل الصلاة: والطهارة هنا من الأوساخ والجراثيم والذنوب والفتور والكسل.. ولنا أن نتأمل كيف أن المساجد في العالم الإسلامي ـ رغم تخلفه الآن ـ هي مراكز للطهارة والنظافة

---

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) الأعراف: ٣٢.

ولم يُقل عنها بأنها تسبب العدوىٰ في الأمراض لأنها موضع تجمع للناس وخاصة في يوم الجمعة.. ورغم ما يطلب من المسلمين فيها من تسوية الصفوف وسد الثغرات والتلاصق.. فإنها لم تصبح مرتعاً للأوبئة..

٣ـ الحرص على وقت الصلاة وحرمة تركها لأي عذر.. وإن الله شرع التيمم كي يذلل العقبات.. ويمنع الأعذار..

٤ـ هذه الأوامر والنواهي فيها تمام النعمة على المسلمين وتستحق الشكر.. فقد أنعم الله عليكم بالأحكام التي تطهركم ودلكم على العبادات التي تحقق لكم الهناء والرضى ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾[1] ولله در من قال: (إن شكرنا يحتاج إلى شكر). وليس الشكر باللسان فقط ولكن ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[2].. وتتابع الآيات في التعقيب وتذكر بميثاق الله:

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ﴾

إن هذه الأمور: الوضوء والطهارة والشكر.. هي أمور فردية.. لا يطلع أحد عليها إلا الله. فهي عهد وميثاق بين الفرد وربه فالله يؤكد على الحفاظ على هذه المواثيق التي لا يعلم حقيقتها إلا الله. وقد اعتبر (الطهور شطر الإيمان) ـ أي نصفه ـ لأن الطهارة فردية إن حققها الإنسان ـ مع أن الناس لا تطلع عليها ـ يكون قد حقق مراحل من الإيمان تساعده على التقدم.

لما نزلت هذه الأحكام كان المؤمنون قد أعلنوا طاعتهم لله وبايعوا الرسول على ذلك ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ ولا ننسى أن هذه السورة بدأت بالقاعدة الكبيرة ﴿أوفوا بالعقود﴾ وهذه الأوامر هي بعض التطبيقات.

والعبرة في ﴿سمعنا وأطعنا﴾ لا باللسان.. ولكن بالتطبيق والعمل.. وللمرة الثالثة ـ منذ بداية السورة ـ يكرر الأمر بالتقوى.

---

(١) طه: ١٣٠.

(٢) سبأ: ١٣.

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ احذروا فإن الله يعلم دقائق ما في النفوس.. و (ذات الصدور) ما يبقى في النفس ملازماً لها ولا يصرح به الإنسان لمخلوق.. بل ربما خفي على الإنسان نفسه.. ففي بعض الأمور لا يعرف الإنسان دوافعه الحقيقة وراء سلوكه.. ولهذا يدعو المسلم (رب اغفر لي ما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني).

١١ـ الأمر بالقوامة بالقسط:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ في سورة النساء جاء التوجيه ﴿قوامين بالقسط شهداء لله﴾.. وهنا جاءت الكلمات متبادلة والمعنى متقارب. ﴿كونوا قوامين لله﴾ والقوام هو المبالغ في القيام بالشيء كأحسن ما يكون. فالأمر هنا يذكر الإنسان بمسؤوليته ودور الخلافة في الأرض الذي خلق له وأن عليه أن يقوم بالأمانة التي حملها وأن يكون قيامه لله وحده بمنجاة من كل المؤثرات.. فلا يتدخل الهوى ولا المعصية ولا الرغبة في الإطراء والظهور.. خالصاً لله.

﴿شهداء بالقسط﴾ دون محاباة لأحد. وقد سبق أن جاء التحذير من أن يدفع البغض إلى الاعتداء وهنا:

﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ﴾ لا يدفعكم البغض إلى الانحراف عن العدل.. وهذا أشق من الأول. وللمرة الرابعة يكرر الوصية بالتقوى لأن المُتّصفين بها هم القادرون على العدل.. كما أن العدل يمنحك صفة التقوى:

﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.. حين نتأمل الآية كلها نجدها تنص على قانون إنساني ذي ثلاثة بنود: ١ـ القوامة. ٢ـ الشهادة بالقسط. ٣ـ عدم التحامل على من تبغض.

هذا قانون للأنفس.. من التزم به وصل إلى نتائج جيدة في الخلافة.. فكما أن من يستخدم قوانين المادة (الآفاق) يصل إلى التسخير، ويحقق ما

يريد.. وكذلك قوانين الإنسان.. إنه التدريب على التجرد، والحكم الموضوعي فلا ينساق وراء العواطف.. إنها الجدية في حمل الأمانة ﴿خذوا الكتاب بقوة﴾ وأداء الشهادة.. وكما سبق أن ذكرت في شرح الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[1] فإن الشهادة لا تكون بالقسط إلا إذا توفرت فيها الشروط الثلاثة: ١ـ الحضور. ٢ـ الأمانة في النقل. ٣ـ الوعي.. إن الآية تبني عالماً جديداً الحق فيه هو صاحب السلطة العليا.. ولا يقدر على تمثل هذا الموقف إلا من وصل إلى الحكم بالقانون لا بالسيف.. فهو الذي يحرص على القانون (الحق) فوق السيف (القوة). أما من وضل إلى الحكم بالقوة.. فهو مرتبط بها حريص على إعطائها الأولوية لأنه يعلم أن غيره إن ملكها فسوف يزيحه.. وهذا موضوع كبير يحتاج إلى بحث وعرض، من جوانب عدة، وبأساليب منوعة..

إن من ينحرف عن العدل ويحابي نفسه أو قومه أو من يحب.. يظن أنه يحصِّل منفعة كالتاجر الذي يغشّ يظن أنه يكسب.. ولكن هذا الكسب مؤقت وعاجل.. إذ سرعان ما يفقد ثقة الزبائن وتكسد تجارته.. ولا شك بأنه يساهم في ترويج الغش، وعندها يخسر الناس جميعاً.. وهكذا من لا يلتزم بالعدل، ولا يحرص على سيادة القانون.. يساهم في إشاعة الظلم.. ولا بد أن يأتي اليوم الذي يتعرض فيه هو، أو من يحب للظلم، وتأتي الآيات لتعطي النتيجة الإيجابية والسلبية... لهذا القانون. فمن قام به ربح ومن عطله خسر..

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ والآية هنا تبرز النتيجة الآخروية لأنها أضمن باعتبار أنها فردية.. بينما نتائج الدنيا تأتي جماعية قد لا ينالها أفراد قلة في مجتمع ضال.. ومتى أدرك المؤمنون حتمية السنن والقوانين الإنسانية وشروط نتائج الدنيا والآخرة كانوا أرسخ قدماً في التطبيق

---

(١) راجع (من هدي سورة البقرة) الآية ١٤٣. حنان اللحام.

والالتزام. ويشترط للآخرة: الإيمان والعمل الصالح أي: الإخلاص والصواب.. فإن العمل الصالح هو العمل وفق سنن الله في الآفاق والأنفس. وإن هذا الوعد يربط القلوب التي تعبت وجاهدت في تحقيق العدل بأجر الله المحقق ويجعلها تستخف بانتفاش المكذبين.. إذ سرعان ما تحبط أعمالهم ويبطل كيدهم.. وكأن الآيات تقول للمؤمنين: اعدلوا مع هؤلاء المكذبين ولا تظنوا أنهم سيفلتون من عقاب الله على تكذيبهم وأعمالهم.. ولا تظنوا أن عدلكم معهم سيقوي شوكتهم ويمكنهم من إيذائكم والإضرار بكم.. فإن الالتزام بقوانين الله يحميكم وعين الله ترعاكم. ويذكرهم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ﴾.. وفي هذا التذكير ما يطفىء نار الغيظ والبغض في قلوب المؤمنين، ويمنحهم السكينة والرضى فهم في كنف الله ورعايته.. وقد ذكرت روايات في التفاسير عن مناسبة نزول الآية.. ومن هم القوم الذين هموا بإيذاء النبي والمؤمنين.. لكن الآية يمكن أن تنطبق على أحداث كثيرة في السيرة.. بل إن مجموع السيرة تشير إلى محاولات المشركين، وأهل الكتاب والمنافقين للنيل من المسلمين، وكيف كان الله يحفظهم ويرعاهم.. فلقد كان رسول الله ﷺ أكثر الناس تطبيقاً لهذه القوانين الإنسانية التي نص عليها القرآن، حتى وصف بأنه ﷺ كان قرآناً يمشي على الأرض. فلما كان التزامه بهذا القدر كف الله أيدي الناس عنه وهذا مثال واضح على أن تطبيق القانون يعطي النتيجة الجيدة.. فإن نجاح دعوة رسول الله ﷺ لم يتم بمعجزات.. ولكن تم بالتزام السنن والقوانين.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.. وللمرة الخامسة يتكرر الأمر ﴿واتقوا الله﴾.. التزموا بأمر الله وقوانينه ثم توكلوا على الله.. فإن الله لن يتخلى عنكم وستنالون نتائج الدنيا ـ حسب شروطها ـ وفضل الله في الآخرة.

٣ـ في أهل الكتاب: (١٢ـ٢٦)

١ـ أخذ الميثاق على بني إسرائيل:

الآيات هنا تذكر المسلمين بمصير الذين ينقضون الميثاق. فالقرآن يستعمل التاريخ كشاهد عدل يشهد على ثبات سنة الله في خلقه. كذلك فإن الحديث هنا يبين حقيقة أهل الكتاب حتى لا ينخدع المسلمون بمناوراتهم.

﴿ ۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ والميثاق يتضمن شرطاً وجزاءً. وقد أخذ هذا الميثاق على اثني عشر نقيباً ـ أي عريفاً يمثل قومه ـ يمثلون الأسباط الاثني عشر.. وشبيه بهذا ما حصل في ليلة العقبة عندما بايع الأنصار رسول الله ﷺ وكان فيهم اثنا عشر نقيباً: ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج. وفي الآية مثال على القانون الإنساني الذي سبق أن أمر به المؤمنين (القوامة لله والشهادة بالقسط) وهو ميثاق عليهم.. فانظروا ما وصل إليه الذين من قبلكم عندما نقضوا الميثاق وخالفوا القانون الإنساني الذي دلهم الله عليه. وتعجل الآية بذكر النتيجة (الجزاء) الذي نص عليه الميثاق بإيجاز ﴿وقال الله إني معكم﴾ وكفى بذلك جزاء.. فمن كان الله معه لا يضره شيء بعد ذلك.. ثم يفصل في ذكر الشروط: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ فالشروط:

١ـ إقامة الصلاة أي أداؤها على أحسن وجه. وعندها تصبح الصلاة مصدر صلاح الفرد ﴿تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ ٢ـ إيتاء الزكاة وهي طهارة للفرد من الشح والأثرة وطهارة للمجتمع من الفقر والحقد والثورات.. ٣ـ وآمنتم برسلي كلهم دون تفريق. ٤ـ وعزرتموهم: عظمتموهم ونصرتم ما جاؤوا به من الأديان ودعمتموه. ٥ـ ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ ويتضمن الانفاق عامة من الجهد والمال.. احتساباً لأجر الله ورضاه. وفي ذلك ارتقاء لمرتبة

الاحسان.. إذ أن الزكاة فرض يأثم تاركها.. لكن القرض الحسن تطوع يفيض من نفس المحسن دون من ولا أذى فمن استمر بهذه الأعمال الطيبة حصل على معية الله ومغفرته وجناته الواسعة..

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.. أما من انقطع عن هذه الأعمال فقد كفر.. ﴿فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ضاع عن الطريق السوي بعد أن كان يمشي في وسطه.

وفي ذلك تنبيه إلى الطريقة العلمية في امتحان دقة القانون. إذ لا يكفي أن نقول أن وجود سبب (كذا) أعطى نتيجة (كذا).. ولكن للتأكد نحذف السبب (كذا) فإن تعطلت النتيجة يكون الموضوع قد أصبح قانوناً. وبهذا نخرج من الاحتمالات والتفسيرات الخاطئة التي تجعلنا نفقد السيطرة على الموضوع.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ وعمل الله لا يحدث حتى يحدث عمل العبد فهو ثمرة له.. ويذكر من صفاتهم وأخطائهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ والتحريف تبديل المعنى بحيث يستخدم النص لغير معناه الأصلي والتحريف آفة خطيرة تعرضت لها الكتب السماوية فعطلت بعض ما فيها من الخير.

٢- ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ ففي المجتمع الذي يحدث فيه كتمان الحق.. فإن الجيل الجديد يأتي وقد نسي بعض آيات الله. وإن تفريط الأمة وعلمائها بالتعليم ونشر العلم ينتج مجتمعاً لا يعرف حكم الله في كثير من الأمور رغم وجودها في القرآن. وعلى المسلم أن يحرص على المعرفة وتعلم آيات الله - في الآفاق والأنفس - كي لا يصيبه ما أصاب السابقين من نسيان. وبهذا يستوجب عقاب الله الذي يأتي نتيجة لعمل الإنسان. والعلم لا يتأتى إلا بالجهد المستمر الواعي.

٣- ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وعندما خانوا عهد الله أصبحت الخيانة

خلقاً عاماً لهم.. وهكذا سترى منهم خيانة مستمرة ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾[1] في العهود والمواثيق.. في الكلام والسلام ـ فقد كانوا يحرفون سلامهم على النبي بشكل خسيس ـ في النظرات.. والنوايا.. ومثال ذلك ما أظهروه من ملاطفة النبي ﷺ عندما جاء يستعين بهم على جمع مال لدية رجلين قتلا خطأً.. ونووا قتله وتآمروا على ذلك.

ومع ذلك فإن من دأب الله الدقة في الحكم والانصاف ولهذا يستثني:

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.. ومهما كانوا قلة فإن الله لا يهمل ذكرهم.. وبذلك تكون أحكام القرآن موضوعية ودقيقة وعادلة. ويأتي التوجيه منطلقاً من الأساس الإسلامي الكبير ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.. فرسول الله ﷺ كان مثالاً للعفو في حياته.. وما انتقم لنفسه إلاّ أن تنتهك حرمات الله. ولا يكون العفو عفواً إلا إذا كان عن قدرة على الانتقام.. أمّا الامتناع عن الانتقام لعجز.. فيمكن أن يسمى صبراً إذا ابتغى به وجه الله.

والعفو هو الإحسان.. وهو أحب إلى الله في كل الأحوال ما لم يحل حراماً ويحرم حلالاً. ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ لأن الإحسان هو دواء العداوة.. وفيه علاج للنفوس وإعطاء فرصة للمراجعة والندم حيث يخجل المعتدي من ذنبه وكرم الطرف الآخر معه.. بينما المقابلة بالمثل تغذي العداوة والبغضاء.. ويبقى الحقد في تأجج متبادل.. إن الإحسان هو دواء الأكثرية.. وهو القاعدة التي لا بد أن يكون لها استثناءات.. وذلك حين يتحول الحقد في النفوس إلى سرطان.. يحتاج إلى جراحة استئصال.. ولهذا احتاج الرسول ﷺ إلى قتالهم وإخراجهم من المدينة بعد ذلك.. علماً بأن المنصفين منهم أثر فيهم الإحسان وجعلهم يدخلون في الإسلام.

ولقد ظهر في القرنين الأخيرين بالذات من اهتم بموضوع العفو وتطبيقه كبرنامج في العلاقات الإنسانية.. بل وحتى في الكفاح القومي.. من أمثال هنريك ثورو وتولستوي وغاندي وعبد الغفار خان.. وظهرت خطة العصيان

---

(١) البقرة: ١٠٠.

المدني ومذهب اللاعنف.. وأصبح الناس أقرب لتقدير منهج الأنبياء في العفو والحب.

٢ـ أخذ الميثاق على النصارى:

نلاحظ منذ الآية الثامنة حيث أمر المؤمنين بالتزام القانون الإنساني (القوامة لله والشهادة بالقسط) كيف يتابع السياق بتسلسل جميل.. فبعد أن ذكر القاعدة والقانون ذكر نتيجته سلباً وإيجاباً.. ثم ذكر المثال الأول عن المسلمين الذين وفوا بالميثاق والتزموا بهذا القانون كيف حماهم الله من أعدائهم. ثم كان المثال الثاني عن بني إسرائيل والميثاق الذي أخذ عليهم وما أصابهم عندما نقضوا الميثاق. والمثال الثالث الآن عن النصارى: وفي ذلك تأكيد على أن سنن الله تحكم كل الأمم.

﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ أعود فأقول لقد تعرضت الكتب السماوية للتبديل والتحريف والكتمان، إلا القرآن فقد حفظ من التبديل. ولهذا فقد وقع النصارى فيما وقع به اليهود ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾.. وعندما حصل التبديل والتحريف في النصوص حصل التفرق والاختلاف، وظهرت المذاهب المختلفة التي يكفر بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً.. وصدق الله حين يذكر النتيجة التي وصلوا إليها من نسيان بعض ما ذكروا به ﴿فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ فلقد تميزوا من بين أتباع سائر الأديان بهذه الظاهرة: التفرق إلى شيع متقاتلة.. ومن يدرس تاريخ المسيحية في العصور الوسطى، ثم ظهور الاصلاح الديني على يد لوثر وكالفن وغيرهما.. ومحاكم التفتيش التي كانت تمارس التعذيب، والحرق لكل من يختلف معهم في جزئية بسيطة من الدين.. يرى عجباً.. ولا بد للمسلمين أن يحذروا ويستيقظوا فقد أوشك أن يحل بهم ما حل بالنصارى من قبلهم.. ويكاد التفرق في الدين يأكل كيانهم.. ولكي نعالج العداوة والبغضاء لا بد من معرفة السبب

كي نقضي عليه.. والقرآن هنا يعلل الأمر بنقض الميثاق، ونسيان بعض الكتاب. وفعلاً هناك آيات في القرآن منسية من حيث الفهم والتطبيق وإن كانت تتلى على الناس صباح مساء. من مثل الآيات التي أمرت بالسير في الأرض ودراسة أحوال الأمم وعواقبها.. ومثل قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[1] وقوله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2] وقوله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ﴾[3].

﴿وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ في الآخرة ولن يفلتوا من عقابه.

ونلاحظ اختلافاً في العرض.. فالحملة على النصارى كانت أخف من الحملة على اليهود. وسيأتي في آخر السورة ما يؤكد هذا الفارق حين يتحدث عن أشد الناس عداوة للمؤمنين (اليهود) وأقربهم مودة لهم (النصارى).

٣ـ جاء الإسلام ليظهر كثيراً مما أخفوا:

ويأتي النداء موجهاً لأهل الكتاب عامة: اليهود والنصارى.. بأنه قد جاء الرسول الذي بشر به أنبياؤهم:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۖ﴾ ومن الأدلة على صدق رسالته أنه بين لكم كثيراً مما كنتم أخفيتم من الأحكام في كتابكم ـ فالنصارى أخفوا التوحيد وجادلوا رسول الله ﷺ في عيسى وقالوا له (من أبوه ؟).. واليهود أخفوا حكم الزنا وحكم الربا وصفات محمد ﷺ التي كانت موجودة في كتابهم، وغير ذلك ـ ولقد عاملكم بالسسماحة والإحسان فعفا عن كثير من أعمالكم وكيدكم.. وما زالت الآيات تؤكد على خطورة الإخفاء والكتمان للحق، فهو سبب النسيان والضلال.

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) الإسراء: ٥٣.

٤ـ الكتاب يهدي إلى سبل السلام:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ يوصف الرسول أو القرآن بأنه نور تنجلي به الظلمات وتظهر به الأمور على حقيقتها. . والعلم يسلط الضوء على الأشياء فيكشف سننها. ﴿وكتاب مبين﴾ فيه الوضوح والجلاء. يقول الجاحظ: (حياة الحلم بالعلم وحياة العلم بالبيان). . ومعنى ذلك أن البيان والتعليم هو الذي يحافظ على استمرار العلم. . والعلم يحافظ على بقاء الأخلاق ولهذا وصف هذا الكتاب بأنه سيوصلكم إلى سبل السلام ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ بشرط الاتباع وطلب رضوان الله. فالآية تنص على قاعدة هامة وقانون إنساني:

اتباع الكتاب + طلب رضوان الله ← سبل السلام + الخروج من الظلمات إلى النور + الهداية إلى صراط مستقيم.

وسبل السلام: طرق السلام وتشمل سلام النفس والأسرة والمجتمع. . ويمكن أن تمنح العالم السلام.

وأما الصراط المستقيم: فهو أسهل الطرق وأقصرها وأقلها مشقة وكلفة. . للوصول إلى الهدف.

واللفتة هنا ﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه﴾ تؤكد أن الله أراد وأذن لهذه السنن أن تحكم الحياة الإنسانية. فإذا تحدثنا عن حتمية القوانين الإنسانية فإن هذا لا يعني الانقاص من سلطان الله ومشيئته. . بل إنه سبحانه أراد هذا.

وحين ننظر في أحوال المسلمين نجد أن الكتاب لم يعد (مبيناً) بالنسبة لهم فلقد خالطه التحريف وإهمال البيان. واتباع الكتاب لا يأتي إلا بعد المعرفة

والبيان. ولهذا تعطلت وظيفة القرآن فلم يعد يهديهم إلى سبل السلام.. وهم في ظلمات يتخبطون.. ويتنازعون في محاولة تلمس الصراط المستقيم.

إن كتابنا يوصلنا لو فهمناه واتبعناه إلى سبل السلام.. وإن أول كلمة يقولها المسلم حين يقابل أخاه: السلام.. ومع ذلك فإننا نعيش الآن مشكلة فقدان السلام.. النفسي والأسري والاجتماعي.. وفي عالم الكبار (الدول الكبرى) يدركون أهمية السلام ويكرسون له الأبحاث والجهود.. ويقيمون (مباحثات السلام) لحل مشاكلنا.. وحتى لو نجحوا في تحقيق سلام لنا.. فإننا سرعان ما نفقده.. كمن يتمتع بصحة جيدة لكنه يجهل قواعد الصحة والوقاية من الأمراض فهو معرض للإصابة بالأوبئة عند اجتياحها.. وكان الأولى بنا نحن أمة السلام أن نعرف كيف نحقق السلام في عالمنا.. ونقدمه للآخرين.. إن من كشف السنن وسخرها هو الذي خرج من الظلمات إلى النور وهو الذي يصل إلى السلام.. بينما نحن بين صنفين: البسطاء الطيبون المتمسكون بدينهم دون علم.. والذين درسوا وتخصصوا في مجالات الحياة لكنهم قد تنصلوا من الإسلام.. (ومع ذلك فهم قلة غير كافية). ولا بد من إخراج النموذج الثالث: المسلم الطيب الذي كشف السنن وسخرها.. إن أردنا أن ننهض من كبوتنا ونستمتع بالسلام من جديد في عالمنا. أيها المسلم.. إنك تكرر في صلاتك كل يوم ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ فهل تدرك معنى ذلك ؟!

هل تدرك أنك تطلب الوصول إلى أفضل النتائج بأقل وقت وجهد ممكن.. ؟! وهل تدرك ما تحتاج إليه من علم لتصل إلى هذه المرتبة من الاقتدار ؟! وكما جاء في التوراة (أنا الفهم لي القدرة).

٥ـ كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح:

﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ هذا جوهر عقيدة النصارى.. وهو أكبر مشكلة في العقيدة المسيحية: اختلاط الألوهية

بالبشرية. ولا زال يعيش مئات الملايين من البشر منذ قرابة ٢٠٠٠ عام على هذا الخطأ الفاحش، الذي يقول عنه الله هنا إنه كفر. والسبب الجوهري لحدوث هذه المشكلة هو ما وقع على الكتب السماوية من التبديل، والتحريف، والكتمان ـ وهو يشمل الإخفاء المتعمد والنسيان ـ وهو تخلف مؤسف في الحياة البشرية التي تقدمت في نواحٍ كثيرة. ولم تستطع أن تتحرر من هذا الخطأ العقائدي، رغم محاولات عدد من المفكرين النصارى إنكار ذلك، وظهور فئات قليلة من الموحدين عبر القرون.. مثل ميكائيل سرفيتوس الاسباني، الذي ظهر في القرن السادس عشر، وقبض عليه في جنيف، وحاكمه (كالفن) ـ أحد زعماء الاصلاح الديني!! ـ وحكم عليه بالحرق حياً لأنه نادى بالتوحيد، ورفض التسليم بتعميد الأطفال.. وفولتير ـ في القرن الثامن عشر ـ عاد بعد تشككه بالدين إلى الإيمان بالله العظيم على أساس من التوحيد.. وفي هذا العصر قام العالم المسلم أحمد ديدات بجهود مشكورة في الحوار مع النصارى حول التوحيد وكتابهم المقدس وما فيه من تبديل وتحريف.. ولكن مشكلة الميراث الثقافي لا تحل بهذه السهولة.. إن العالم الغربي يحمل على ظهره آصار ألفي عام.. وقد حفر الحقد الصليبي في قلبه ندوباً لم يعرف كيف يتحرر منها.. ولم نعرف نحن كيف نعالجها.. في هذه الظروف: من المؤلم أن تحمل تبعة دعوة النصارى إلى التوحيد.. في الوقت الذي بهتت فيه صورة التوحيد في عالمنا.. وأصبحت السيادة فيه لأوثان فكرية عديدة.. ومن لم يطهر نفسه.. كيف يتصدى لتطهير الآخرين.. ؟!و الله تعالى في هذه الآية يقدم الدليل لنقض هذه العقيدة:

﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا.. ؟!﴾ وهذا هو موضع الانفصال بين الألوهية والبشرية.. البشر لا يملكون البقاء والتصدي لحكم الله. وهل قدر المسيح على الامتناع من رفع ربه وانهاء وجوده في الأرض.. ؟ وكذلك أمه مريم.. وفي آيات أخرى يقدم أدلة أخرى للفصل بين الألوهية والبشرية ـ كما سيأتي في سورة المائدة ـ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ

وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾[1].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأكيد على توحيد الله في الخلق.

٦ـ الرد على الذين قالوا نحن أبناء الله:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ ويأتي الرد علمياً وواقعياً ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم﴾ ؟! فالذنوب والأخطاء لا بد أن تأتي نتائجها في الدنيا قبل الآخرة وإن الله لا يحابي أحداً من خلقه.. بل يتعامل مع الناس على أساس أنه لا ميزة لفرد ولا لأمة إلا بالعمل الصالح: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[2]. إن النتائج لا تأتي بحسب الأماني والأحلام.. لكنها تأتي حسب الأعمال ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾ ولا بد أن نتذكر دائماً القاعدة: نتائج الأعمال في الدنيا جماعية وفي الآخرة فردية.

ومن المؤسف أن المسلمين الآن قد أصيبوا بشيء من هذه الأماني.. وصدق رسول الله ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم» وداخلهم الغرور وكأنهم ظنوا أنهم فوق القوانين.. حتى أن بعض الكتاب يكتب عن خصوصية هذه الأمة.. وكأن الأمة المسلمة حالة خاصة لا تخضع لقوانين حياة الأمم.. وهذا الظن يتضمن خللاً في العقيدة لأن فيه تشبيه الله بالبشر الذين يعتريهم النقص ويتأثرون بالهوى. سبحانه وتعالى عما يظنون.. كما أنه من الوجهة العملية يحرم الأمة المسلمة من مراجعة الذات ومحاولة تصحيح المسار.. فلقد أفلت من أيدي المسلمين قانون الحياة الحقيقي ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾

---

(١) المائدة: ٧٥.

(٢) النساء: ١٢٣.

وتعلقوا بأوهام (الوساطات) و (المحسوبيات) حتى في علاقتهم مع الله..!! ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]. ولا بد لنا من التوبة من هذه الذنوب لإيقاف سيل العذاب الذي يجتاح عالمنا..

﴿بل أنتم بشر ممن خلق﴾ وإن خالق البشر قد وضع سنناً عامة لحياتهم يخضع لها كل البشر..

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ في الآخرة أما في الدنيا ﴿من يعمل سوءاً يجز به﴾. ومشيئة الله نابعة من عدله سبحانه وتعالى وعلمه.. فهو أعلم بمن يستحق المغفرة.. وحتى التوبة وضع لها شروطاً حتى تكون مقبولة:

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[2]. ومغفرة الله تأتي نتيجة لصدق الإنسان في توبته والتزامه للعمل الصالح.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ في الآية السابقة ركز على أن الله وحده صاحب الخلق. وهنا يركز على أن الله وحده له الملك والحكم.. وهي جوانب التوحيد التي يؤكد عليها القرآن دائماً ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾[3].. وخاصة في سياق تصحيح العقائد.

٧ـ نداء لهم بمجيء البشير النذير:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ﴾ فهو نداء من الله لأهل الكتاب عامة.. حافل بالرحمة والنصح.. من الغني عن العالمين.. ومع ذلك يتلطف بعباده ويرحمهم فهو لا يريد لهم الضلال والعذاب.. ولهذا أرسل لهم محمداً ﷺ على فترة من الرسل وبعد أن غرق الناس بالغفلة والنسيان.. جاء هذا البشير النذير.. كي لا يؤخذ الناس على غفلة منهم..

---

(١) فصلت: ٢٣.

(٢) النساء: ١٧.

(٣) الأعراف: ٥٤.

وحتى لا يحتجوا بالجهل وأنهم لم يُبلَّغوا.

﴿ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٌ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فلم يعد لكم من عذر.. وإن الله القادر على كل شيء.. قادر على حسابكم..

٨ـ موسى يأمر قومه بدخول الأرض المقدسة:

ولا عجب إن كان موقفهم من رسول الله ﷺ بهذا الشكل من التكذيب والتخاذل عن نصرته.. فلقد تصرفوا مع نبيهم موسى بما لا يليق.. وخذلوه مع أنه هو الذي حررهم من فرعون وفي عهده نالوا من نعم الله الكثيرة..

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا.. ﴾ هذه خبرات أمة سابقة توضع بين يدي المسلمين لتبصّرهم بعقبات الطريق.. وكيف يكون الموقف السليم الذي يعين على تجاوزها.. ومن تزود بخبرات غيره جنب نفسه الدخول في متاهات تضيع كثيراً من الجهد..

هاهو موسى يتابع طريق الدعوة والتربية مع قومه.. إنه مشفق من نكول قومه فقد جربهم في مواطن عدة وعرف تخاذلهم.. فهو يحشد لهم ـ قبل أن يأمرهم بدخول الأرض المقدسة ـ ـ الذكريات الطيبة عن نعم الله التي أفاضها عليهم.. وعلى رأسها إرسال الأنبياء باستمرار لهدايتهم منذ يعقوب إلى موسى ـ واستمر ذلك حتى مجيء عيسى. فكان أحد أسباطهم للأنبياء وآخر للملوك. ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ أعطاكم الإمكانية والقدرات التي تهيئكم لتكونوا ملوك الدنيا.. لقد أعطاكم كل هذه النعم عندما استجبتم لدينه.. حتى نلتم من الفضل ما لم ينله أحد:

﴿ وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ من الأمم في زمانكم.. لأنكم كنتم أمة التوحيد والطاعة.. فاحذروا أن تخسروا هذه النعم بترك القيام

بأسبابها.. فإن الله ﴿لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1] فاذكروا أسباب النعم.. وامتثلوا لأمر الله وجاهدوا في سبيله كي تقدموا برهان جدارتكم بالتفضيل:

﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ فقد وعدكم بها إن بذلتم جهدكم.

﴿وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ إن التراجع والارتداد عن أمر الله يجعلكم تخسرون الدنيا والآخرة ورغم هذا الخطاب المفعم بالإخلاص والحرص عليهم وبيان أسباب النصر ونزول النعم من الله...

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وفي الآية تصوير لحالتهم النفسية المتخاذلة.. إنهم يريدون نصراً رخيصاً بدون جهد.. كما يقول المسلمون الآن: (اللهم أهلك أعداء الدين وارزقنا نصرك المبين).. وهم لا يبذلون أسباب النصر.. من الاعداد والسهر والمرابطة. ويبرز الآن من جموع بني إسرائيل رجلان فقط.. يتكلمان بنغمة أخرى:

﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ فالله يصفهما:

١- من الذين يخافون.. أي من الله.. لأن من خاف الله لم يخف من أحد سواه..

٢- أنعم الله عليهما.. بالإيمان والثبات وإدراك سنة النصر.. ويمكن أن تكون (يخافون) من عاقبة مخالفة القانون.. يخافون أن تترك الأسباب فتحدث النتائج السيئة..

﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ فهم يشرحون لقومهم كيف يأتي نصر الله.. فيقولون أقدموا واقتحموا باب المدينة وعندها تنكسر قلوبهم وتغلبوهم.. وهذا شبيه بقوله تعالى ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]. أي أنهم ينبهون قومهم أن للأمور مفاتيح وأبواب إذا توجه

---

(١) الأنفال: ٥٣.

إليها الإنسان استطاع أن يدخل ويحصل على مراده. ولا تنسوا التوكل مع الإقدام فإنه الشرط الثاني ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ والتوكل الحقيقي يكون بعد العمل (اعقلها وتوكل على الله). ولكن الجواب يأتي عجيباً ووقحاً وبالغاً في الجبن أقصى مدى:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾!! هكذا ﴿اذهب أنت وربك﴾ وكأنه ليس ربهم..!! ولنا أن نتصور مدى الألم والخيبة التي شعر بها موسى.. فهذه هي ثمرة جهده مع هؤلاء القوم ؟! وبعد كل صبره عليهم وتعليمه لهم تكون هذه نهاية المطاف..!!

ويتوجه موسى إلى الله معتذراً ملتجئاً.. ومعلناً انفصاله عنهم. فما عاد يربطه بهم شيء بعد تخاذلهم ونقضهم الميثاق فهم فاسقون.. والارتباط بين المؤمنين يكون على الطاعة والوفاء بميثاق الله وإلا فلا قرابة ولا نسب ولا ارتباط.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ كان موسى يدرك أن مشكلة المجتمع لا تحل برجل واحد أو اثنين.. ووجود رجلين يخافان الله ويفهمان الفهم الصحيح ـ كما تبين من موقف الرجلين اللذين نصحا قومهما بالإقدام ـ لا يكفي لتحقيق النصر.. إلا إذا أطاعوهما.. وحتى إن أطاعوا دون فهم فإنهم سرعان ما يفقدون ما كسبوه.. لأن الجهل بالقانون يجعلهم عاجزين عن حماية مكاسبهم.. إن حماية المجتمع من السقوط لا تتم إلا بوجود العدد الكافي من الفاهمين للسنن والقوانين.. والفهم الصحيح لا يوصل إليه بالتمني.. ولكن لا بد من السعي والجد والمعاناة.. وكل إنسان ينال من الفهم بقدر ما درس وتعب وفكر.. وهكذا جاءت النتيجة بحسب الأكثرية لعدم وجود العدد اللازم للأمة من الفاهمين:

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۚ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ

﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فبعد أن كانوا على أبواب النصر والدخول إلى الأرض المقدسة جاءت العقوبة شديدة ﴿فإنها محرمة عليهم﴾.. وتاهوا في الأرض أربعين عاماً.. حتى ذهب جيل التخاذل ونبت جيل جديد يعتبر بهذا الدرس وينتبه إلى الأسباب. ويتركهم في التيه بعد أن قال لنبيه ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فإن السلوك له نتائج.. والفسق له عواقب وكل أمة تجني ثمارها في الدنيا قبل الآخرة. فالقانون صارم والسنة لا تحابي أحداً..

ولقد اعتبر المسلمون في الماضي من هذه القصة.. فانظر إلى روعة موقفهم في بدر والرسول ﷺ يستشيرهم بعد أن علم بخروج جيش المشركين ليحمي العير التي خرج لها جيش صغير من المسلمين[1].. فقال المقداد: (يا رسول الله إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾ ولكن اذهب انت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون)[2]. وقال سعد بن معاذ ـ نيابة عن الأنصار ـ: والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد.. لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك[3]..

أما المسلمون الآن فقد مضت عليهم مئات السنين وهم في التيه.. ضائعون يتخبطون.. فمتى نخرج من التيه.. ؟! إن التيه الفكري أشد من التيه في الأرض.. لأن الإنسان يفقد فيه ذاته ويضيع هويته.. فهو شريد مستعبد في الدنيا.. مهدد بعذاب النار في الآخرة...

ويا ليت شعري.. أين الذين يملكون (البوصلة الفكرية) كي يحددوا لنا طريق الخروج من التيه ؟! كم نحن بحاجة إلى هؤلاء الذين شمروا واجتهدوا وضربوا في مشارق الأرض ومغاربها فعرفوا مبادىء الأمم وعواقبها وأدركوا السنن وكيفية تسخيرها.. ليعودوا إلينا يحملون (البوصلة الفكرية) التي تشير

---

(١) وذلك ليسترد المسلمون بعض أموال المهاجرين التي اغتصبها المشركون وصاروا يتاجرون بها.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) راجع تفسير ابن كثير عند الآية.

إلى المخرج.

٣ـ قصة ابني آدم: (٢٧ـ٣٢)

تأتي القصة وكأنها تمهيد لبيان أهمية القانون الذي يحمي الإنسان من العدوان.. وذلك أن الآيات بعدها تتحدث عن عقوبة الحرابة والسرقة.. ومجيء القصة قبل القوانين كأنه يوحي بأنه لا بد من التضحية بالنفس من قبل أصحاب المبادىء إلى أن يدرك الناس أهمية القانون والالتزام به.

إنها قصة أول جريمة يرتكبها الإنسان ـ الذي وصفته الملائكة بأنه يسفك الدماء ـ والدافع هو الحسد.. فلا تستهينوا بالأمراض النفسية فإنها منبع الجرائم. وسنتناول الآيات بالفهم ثم نعلّق عليها..

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ ﴾.. وحين يأمر الله نبيه ﷺ أن يتلو عليهم هذه القصة وفي السورة التي تعتبر ـ في معظمها ـ من أواخر ما نزل من القرآن فإن ذلك يعني أهمية هذا الموضوع في مستقبل الانسانية. فالمسلمون ينبغي لهم أن يستوحوا من هذه القصة اسلوباً للنمو في العلاقات الإنسانية..

والتنبيه ﴿بالحق﴾ مفيد لراوي القصة.. وللسامعين.. فقد درج الرواة على تزيين الأخبار وإدخال المبالغات فيها ـ بقصد الإثارة ـ حتى تفقد مغزاها.. فلا تظنوا أن ما يقصه القرآن من هذا القبيل.. فإنها تليت عليكم بالحق.

﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ.. ﴾. والقربان أصله من: قرَّب ـ وتقرَّب من الله.. وقد غلب استعمالها في الذبائح وإن كانت عامة في كل ما يتقرب به إلى الله أمّا نوع القربان الذي تقرب به ابنا آدم.. فقد تحدث فيه المفسرون.. ولا أدخل في التفاصيل التي لم تذكرها الآيات هنا.. ولكن نفهم أنهما اختلفا في أمر ما.. فطلب منهما أن يقربا قرباناً لله ولم يكن هناك مساكين يتصدق عليهم ولذا كان القربان بتقديم شيء من كسب

صاحبه.. فإذا تقبله الله أرسل إليه ناراً تأكله. فلما تقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر.. اغتاظ الفاشل المرفوض.. وبدلاً من أن يفكر في سبب رفض قربانه أقسم ليقتلنَّ أخاه..

﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.. والغيرة تعمي البصيرة.. والحسد يوقع في التفسير الخاطىء للنجاح والإخفاق وبالتالي يخفق من جديد في علاج خيبته.. فكيف كان رد أخيه على هذا التهديد ؟

﴿قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ إنه يحاول أن يلفت نظر أخيه إلى أسباب القبول. وكأنه يقول له: إنني لم أذنب معك.. فإن كان الله تعالى لم يتقبل منك فارجع إلى نفسك فحاسبها.. إنك لن تستفيد من قتلي شيئاً.. وإن من طبيعة الناس أنهم إن أخطأوا بحثوا عن سبب خارجي ولم يراجعوا أنفسهم.. ولهذا يخفقون في العلاج.

﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ إنه يقابل عدوان أخيه بالوداعة وكف اليد.. وهو أفضل اسلوب لكسر الشر والقضاء على العدوان.. ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[1] وهذا موضوع يحتاج إلى دراسات مستفيضة واستحضار لتجارب البشرية عبر التاريخ.. هل يمكن القضاء على الشر والعنف بالشر والعنف ؟! قد تتغلب عليه بقوتك وقد يسكت لك لضعفه.. ولكن هل استطعت أن تمحو العداوة والحقد من قلبه.. ؟! أم أنه سيتربص فرصة للانقضاض عليك.. ؟!

إن ابن آدم هنا يبذل جهده لإطفاء جذوة الغضب في قلب أخيه ويبصره بالعواقب.. إنه يرفع رأسه بعزة وهدوء ليواجه غضب أخيه بالود ويقول له: أنا لن أدافع عن نفسي.. ولن أمد يدي لقتلك ولو اعتديت علي فإن هذا لا يليق بي.. لأني ﴿أخاف الله رب العالمين﴾ الذي حرم القتل والعدوان.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ ولا تنسى بأنك ستضيف إلى إثمك ـ الذي

---

(١) فصلت: ٣٤.

كان سبباً في عدم قبول قربانك ـ إثم قتلي . . وإنك بقتلي تجعلني أكسب الموقف يوم القيامة . . وعندها آخذ مظلمتي منك بأن تحمل عني ذنوبي وسيئاتي . .

﴿ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ . . كل هذا تبصير لأخيه بالعواقب . . لكن الآخر ركب رأسه . .

﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ سهلت له نفسه قتل أخيه وشجعته عليه . . وأسلم القياد لنفسه (الأمارة) بالسوء فأصبح من الخاسرين . . فقد خسر نفسه بإفساد طبيعتها وتغليب الشر عليها حتى غلبت الأمارة على اللوامة ـ التي هي مصدر الخير في الإنسان ـ وقد خسر في الدنيا راحة الضمير واحترام من حوله وحبهم . . وفي الآخرة خسر الجنة ورضى ربه . . وخسر بأنه سن للناس سنة سيئة وأصبح قدوة لهم بها فقد كان أول من اجترأ على القتل . . وكما قال رسول الله ﷺ : «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها . لأنه كان أول من سنَّ القتل»[1] . . وهنا وقف مذهولاً أمام جثة أخيه لا يدري ماذا يصنع بها . . ! !

﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ﴾ نفهم من هذا أن الإنسان موكول إلى كسبه واجتهاده . . فلقد كان الإنسان الأول يجهل حتى دفن جثة الميت . . ولكن اكتسبها بالتعلم من الحيوان . . أما الحيوانات فإنها ألهمت بالغريزة كيف تقضي حاجاتها وتحصل على قوتها . . واستمر الإنسان يتعلم ويكتسب خبرات جديدة حتى ارتقى في القرن العشرين إلى مستوى من التمكين والتسخير مذهل . . ومع ذلك ما زال الباب مفتوحاً . . ولا ريب بأن إنسان المستقبل سينظر إلى إنسان القرن العشرين على أنه بدائي متخلف . . تلك هي الإمكانيات التي تفرد بها هذا المخلوق الفذ ـ الإنسان ـ فمنحته مرتبة الخلافة في الأرض . . وأُمرت الملائكة بالسجود له .

أما قصة الغراب . . فلا نخوض في الروايات حولها لأنه لا توجد رواية صحيحة في ذلك . ويكفي ما نفهمه من الآية من أن القاتل وهو واقف في حيرته

---

(١) رواه الإمام أحمد .

تلك.. رأى غراباً يبحث في الأرض حتى جعل حفرة.. ولعله ألقى فيها بغراب آخر ميت.. أو أن القاتل انتبه لما رأى الحفرة أن بإمكانه أن يحفر ويدفن أخاه في الأرض.

﴿ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ.. ؟!﴾ يبدو القاتل هنا وقد بدأت نفسه اللوامة تقرعه بسياطها.. وهو الآن يذكر أن هذا المقتول أخاه.. وأنه تحول إلى جثة يسوء الناظر رؤيتها وأنه على الأقل مطالب بأن يواري سوأة أخيه.. إنه يدعو على نفسه بالويل لفعلته.. ولعجزه وجهله.. لقد أدرك مقدار جرمه وخسارته ﴿ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾.

من أجل ذلك.. وبعد أن أدرك الناس بعد فترة قضوها في الحياة على هذه الأرض ـ الله أعلم بمقدارها ـ حاجتهم الشديدة إلى القانون الذي ينسق حياة الجماعة.. ويضع للفرد حدوداً لا بد من التزامها كي يبقى فرداً في جماعة.. لأنه لو نبذ من الجماعة لما استطاع البقاء في الأرض.. من أجل ذلك نزلت الشرائع..

﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا﴾ من قتل دون أن يكون القتل قصاصاً ولا جزاء على الافساد في الأرض ـ مثل حد الحرابة الذي سيأتي بعد قليل ـ فكأنما قتل الناس جميعاً.. لأنه بفعلته اعتدى على الكرامة الإنسانية واستخف بحرمة الحياة.. واجترأ على القانون بالخرق.

﴿ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ ومن ساهم في انقاذ إنسان من الهلاك.. بتخليصه من خطر محدق أو معالجته بالطب أو بالدفاع عنه وإظهار براءته أو غير ذلك.. فكأنما أحيا الناس جميعاً.. لأنه جاهد وتعب محافظة على حرمة حياة الإنسان..

ويأتي التعقيب عن بني اسرائيل خاصة.. أو سائر الأقوام التي استخفت بالشرائع:

﴿ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ﴾ في المعاصي وانتهاك القانون. مع أن مجيء البينات يقتضي أن تكون الأكثرية قد استفادت وأدركت حكمة القانون.

والاسراف: هو تجاوز حدود المنفعة في العمل. وكل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده. وحتى في فعل الخير يكون الاسراف شراً أحياناً.. فلقد أمر رسول الله ﷺ من كان يقوم من الليل إذا أصابه النعاس أن يرقد وينام حتى يقوم إلى العبادة نشيطاً.. ونهى الثلاثة الذين أرادوا أن يسرفوا بالعبادة.. وبين لهم أن هذا يخالف سنته.. وكان ﷺ يتخول صحابته بالموعظة.. ساعات محدودة.. ونهى أن تتجاوز الوصية بالمال للخير مقدار الثلث.. إن الإسراف في الخير قد يؤدي إلى التعنت.. ويشوه صورة الإسلام وكثيراً ما ينفرّ الآخرين من الأخذ به فكيف إذا كان الإسراف في الشر.. ؟!

ولا يفوتنا أن نلاحظ دقة الأحكام القرآنية.. فالآيات لا تعمم.. وإنما الأكثرية مسرفون.. حتى لا تظلم الفئة الصالحة.

وقبل أن نترك الآية أحب أن أنبه إلى نوع من قتل النفس وإحيائها.. قد يقال عنه الآن: قتل المعنويات وعكسه رفع المعنويات.. إن الله جعل الكلمة الطيبة صدقة وشبهها بالشجرة الطيبة ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1] وإن رسول الله ﷺ جعل الابتسامة في وجه أخيك صدقة.. لما لهما من أثر في إحياء النفس وبعث الطاقة.. ولقد تحدث ديل كارينجي في كتابه (كيف تكسب الأصدقاء) عن تجارب لطيفة قام بها في مجالي: الكلمة الطيبة والابتسامة.. وما أثمرتا من إنعاش في نفس المتلقي..

ولا أعني بالكلمة الطيبة المبالغة في المديح.. فإن ذلك قد يؤدي إلى العكس: كأن يقتله الغرور.. طوبى لمن درسوا العلاج النفسي وتعلموه ومارسوه لإحياء الأنفس التي أوشكت أن تموت من اليأس إن الموضوع ليس بالسهولة التي يتصورها كثيرون.. فكما أن القانون إن لم يوضع في مكانه أصبح إسرافاً مثل: القصاص من القاتل.. فإذا بالغ الولي في القصاص فقد القانونُ حكمته ﴿فلا يسرف في القتل﴾.. وكذلك إن الكلمة الطيبة يجب أن توضع في مكانها وإلا تحولت إلى ملق ونفاق وقتلت النفس بدلاً من أن تحييها.

---

(١) إبراهيم: ٢٥.

والحكمة: وضع الأمور في مواضعها.. ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[1].

وكم قتل الآباء من مواهب في أولادهم بكلمات سخرية.. أو توبيخ في غير مكانه. أو بالتدليل و (النفخ) الزائد. وكم دفعت كلمات بسيطة من التقدير المخلص.. إلى أعمال جليلة وعظيمة في نفوس استردت عافيتها بهذه الكلمات.. ورد أن رسول الله ﷺ قال عن عبد الله بن عمر: «نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل» قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً[2].. وحياة رسول الله ﷺ ملئت بالأمثلة فلقد كان يعرف كيف يعالج النفوس ويحييها.. من مثل تصرفه مع حاطب بن أبي بلتعة عندما زلت قدمه تحت وطأة محبة الأهل فأرسل إلى قريش يعلمها بخروج رسول الله مع الجيش يوم الفتح.. وضبطت المحاولة قبل أن تتم وانكشف أمر حاطب.. وأخذ عمر يقول: يا رسول الله دعني أضرب عنقه لقد خان الله ورسوله.. لكن رسول الله ﷺ سمع اعتذار حاطب وشهد له بأنه يحب الله ورسوله وأنه من أصحاب بدر.. وفي يوم الفتح عالج أبا سفيان بأن قال: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن».. فحسن إسلام أبي سفيان حتى كان له موقف مشهود يوم حنين ويوم اليرموك.. ولقد كان يحيي النفوس عندما يتحاشى أن يواجه أناساً بأخطائهم وإنما يوجه عتاباً عاماً: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا..».. وعندما كان يبشر بعض أصحابه بالجنة في مواقف عصيبة.. أقول إن هذا الفن ـ من إحياء النفوس ـ هو من أعظم العلوم التي ينبغي أن يتعلمها الدعاة إلى الله والمربون.

بعض التأملات والفوائد من القصة:

قبل أن نمضي في عرض بعض التأملات أنبه إلى الكتاب الذي ألفه جودت سعيد مستوحى من هذه القصة وبعنوان (مذهب ابن آدم الأول. أو مشكلة العنف في العمل الإسلامي). والذي يعتبر المحاولة الأولى لبلورة خطة جديدة في

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) رواه مسلم.

العمل الإسلامي تتبنى السلم (اللاعنف). ولا أنكر جهود المودودي ومالك بن نبي ووحيد الدين خان وغيرهم.. في هذا المجال ولكنها لم تصل إلى إفراد الموضوع بدراسة مستقلة وافية. ولقد نما الموضوع الآن وكثر عدد المهتمين به من العالم الإسلامي ومن العالم أجمع.. إذ ينظر إليه على أنه أمل المستقبل للبشرية.

١ـ نرى في القصة أن الذي لجأ إلى القوة كان هو الفاشل الذي لم يتقبل عمله.. وهذا ما نراه في الحياة العملية.. فمن المعروف أن لغة القوة هي لغة العاجز عن البيان والإقناع.. ثم إن ابن آدم هذا بلجوئه إلى القوة لم يصل إلى ما يريد.. بل كان هو الخاسر وتضاعفت خسارته أضعافاً (من عدم قبول القربان إلى..).

٢ـ يرد التساؤل: هل كان بالإمكان حل المشكلة بغير اسلوب اللاعنف ؟ قد نقول: ماالفائدة من أن الآخر اعتزل العنف؟ مع ذلك فإن أخاه قتله.؟. فلو أنه دافع عن نفسه هل تأتي العواقب أسلم ؟

وهنا نرى أن القاتل رغم جريمته قد أثر فيه موقف أخيه فجعله من النادمين وربما دفعه إلى التوبة.. بينما لو قاتله أخوه لما شعر بالندم عند قتله لأنه يعطي لنفسه مبرر الدفاع عن النفس.. إن هذا الموقف ليدل على سمو أخلاقي كبير حمله الإنسان في جنبات نفسه منذ حياته البدائية.. إنه الإقدام على التضحية بالنفس من أجل هداية الآخرين وتوبتهم.. مثل ما فعل الغلام المؤمن في قصة أصحاب الأخدود. كيف أعبر عن هذا المرتقى ؟ إن حلاوة الإيمان تبدو في أروع صورها عندما يفتدي المؤمن الآخرين بروحه كي يذوقوا حلاوة الإيمان.. وشتان بين من يكون موقفه: إما أن تؤمن أو أقتلك.. وبين من يقول بلسان حاله: أقبل أن تقتلني إذا كان في ذلك هدايتك وتوبتك.. إن المؤمن الحقيقي لا يفكر بأن يجعل الآخرين ضحايا إيمانه.. بل يبذل جهده ـ وروحه إن اقتضى الأمر ـ ليذوق الآخرون حلاوة الهداية.. أقول هذا والألم يملأ قلبي لانتكاس هذه الميزة في مسلمي هذا الزمان.. إذ ما زال كثير منهم يحلم بالتقرب إلى الله بسفك الدماء إن المسلمين قد ضاعت منهم الآية ﴿لا إكراه في الدين﴾ حتى أن بعضهم يقول عنها: نسختها آية السيف.!! وينسى باقي الآيات من مثل: ﴿ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين﴾ [يونس: ٩٩].

٣ـ عندما يسوق القرآن القصة بهذا الشكل.. وفي السورة التي يقول فيها ﴿اليوم أكملت لكم دينكم..﴾ يشعرنا بأن هذا الاسلوب هو الأصوب.. وتأتي وصايا الرسول ﷺ لتؤكد ذلك: فقد ذكر أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي. والماشي خير من الساعي» قال: أفرأيت إن دخل عليَّ بيتي فبسط يده إلي ليقتلني فقال ﷺ «كن كابن آدم»[1].. وفي رواية أبي داود أنه قال ﷺ «كن كابن آدم» وتلا ﴿لئن بسطت إلى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك..﴾

٤ـ إن كف اليد يعتبر إجراء حكيماً لأنه يخفف من مشاعر العدوان وأضراره إلى أقل قدر ممكن.. وهذا يتناسق مع قانون التعامل الفردي الذي نص عليه القرآن في تحويل العدو إلى ولي حميم ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[2].

كما أن كف اليد هو القانون الذي أمر المسلمون بالتزامه عندما لم يكن لهم في الأرض مجتمع قائم يحكم بالإسلام وأمرهم رسول الله ﷺ أن يلتزموا به لو عاشوا وعاصروا عصر الفتن.. حين يبدأ الحاكم والمجتمع بالانحراف عن تطبيق الإسلام.. وقد شرحت ذلك بالتفصيل في تفسير سورة النساء[3].. عند الآية ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا...﴾.

٥ـ إن القدرة على اللجوء إلى الأخلاق بدلاً من القوة في حل المشاكل كانت موجودة عند الإنسان الأول وهي الآن أكثر نمواً.. خاصة بعد أن أشعرهم العصر النووي بضرورة العودة إلى الأخلاق وإلا دُمِّر العالم.. ولقد ظهرت حركات تتبنى اللاعنف حتى في العالم الإسلامي.. مثل جماعة الهلال اللاعنفي في تايلاند.. وعبد الغفار خان مع الباتان في الهند ـ وهو صديق معاصر لغاندي ـ

---

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي.

(٢) فصلت: ٣٤.

(٣) راجع (من هدي سورة النساء) شرح الآية ٧٧ منها..

ونامل ان تتسارع خطوات النمو آكثر في هذا المجال.

٦ـ نجد في قصة ابني آدم توضيحاً لقانون الله في أن مشكلة الإنسان في أساسها ليست في العدو الخارجي والانتصار عليه.. ولكنها في التغلب على العوامل الداخلية.. (على مستوى فردي واجتماعي) فالمشاكل ليست من عند الشيطان.. ولا في وجود الاستكبار والاستعمار.. بل إنها كما حددها القرآن ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[1] وعلى هذا الأساس ينبغي إعادة النظر في كل ما يعترضنا من فشل في جميع المستويات: نجاح الفرد ـ مشاكل الأسرة ـ تخلف المجتمع ـ المشاكل الدولية العالمية.. وبذلك يتغير موقفي من المشكلة فأبدأ بمراجعة الذات وأتساءل: ما هو الدور الذي قمت به أنا حتى حصلت هذه المشكلة ؟ وكيف كان يمكن تفاديها.. ؟

وعندها يبدأ التصحيح الحقيقي.. وإلا فما الذي أستفيده من لعن الماكرين.. وحتى لو قُتل الماكرون.. هل خرجت أنا من جهلي وتخلفي وهل تمكنت من بناء نفسي وأمتي.. ؟! وماذا استفاد ابن آدم من قتل أخيه ؟

ولعل مالك بن نبي ـ رحمه الله ـ هو أكثر من تحدث عن هذا الموضوع وابتكر له مصطلحاً خاصاً ردده في كثير من كتبه وهو (القابلية للاستعمار).. ثم جاء جودت سعيد فأكد ذلك في كتبه وخاصة كتابه (حتى يغيروا ما بأنفسهم).. ولا بد أن نذكر دائماً أن هذا القانون تظهر نتائجه في مستوى اجتماعي أكثر منه فردي. فالقاعدة أن (النتائج في الدنيا جماعية وفي الآخرة فردية). ولكن ايجاد الجماعة يبدأ بجهاد الفرد الذي يبارك الله فيه..

٧ـ وفي الآية الأخيرة التي جاءت تعليقاً على القصة ﴿من قتل نفساً.. فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ بيان لقداسة الشريعة (القانون) وخطر الخروج عليها.. إن من يخرج على القانون يهدد أمن الناس جميعاً.. وبجرأته على انتهاك القانون أعطى العنف في العمل الإسلامي). والذي يعتبر المحاولة الأولى لبلورة خطة جديدة في

---

(١) آل عمران: ١٦٥. وفي القصة القاتل توجه إلى الأسباب الخارجية بينما حاول أخوه أن يرده إلى الأسباب الداخلية.

فرصة لكثيرين أن يفعلوا مثله . . وينبغي أن ندرك حين يتعرض فرد من المجتمع لانتهاك شيء من حرماته ـ التي قررها ﷺ حين قال: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» ـ ولو لم يكن ذو قرابة لنا فإن هذا يهدد حياتنا وحياة أصحابنا بالخطر . . ولهذا يجب علينا جميعاً أن نقف في وجه من يتجاوز القانون . . وأن نربي الإحساس بقداسة القانون في نفوس أبنائنا . . ولك أن تتأمل كيف تتفاوت صورة الأمم في التقدم والتأخر بمقدار احترام قداسة القانون بينما نحن الآن نعيش بين أناس يتفاخرون بالقفز فوق القانون. ولهذا لا حرمة للإنسان في عالمنا . . إنساننا قد فقد الأمن لأنه يدرك ضعف قداسة القانون في العالم الثالث . . وأن مصيره في كثير من الأحيان لا يتحدد بلوائح القوانين . . بل بالتوصيات والرشاوي . .

إن حماية القانون وإعادة الحرمة والجلال إليه . . هو إنقاذ لحياة الأمة ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ . . ونحن كمسلمين ينبغي أن ندعم كل دعوة لمنع الظلم في العالم مهما كان مصدرها ـ ولو صدرت من هيئات أنشأها أعداؤنا ـ فرسول الله ﷺ أعرب عن استعداده لأن يشهد ما يشبه (حلف الفضول) ـ الذي شهده في الجاهلية ـ مع غير المسلمين لأن فيه نصرة المظلوم وإحياءً للحق وإعادة الحرمة للقانون والعدل . . وغير ذلك من المعاني الإنسانية. باختصار أعود فأقول: ينبغي أن لا نسكت عن ظلم إنسان لم يخرج على القانون والشريعة . . كما لا ينبغي أن نحمي من خرج على القانون والشريعة . . ولو اتصف المجتمع بهذا الوعي ولم يسكت على خرق القانون . . لعجز أي حاكم عن خرق القانون . . انظروا في أحوال الأمم من حولكم . . ولماذا نحن المسلمين بالذات نعاني من الاستبداد ؟

٨ـ إن فكرة إلغاء وجود الطرف الآخر الذي يخالفني أو يناقشني بدأت منذ أن حدث أول خلاف بين ابني آدم . . والطرف الفاشل هو الذي تبناها. وهذه الفكرة تخالف المنطلقات الإسلامية. حيث نجد الآيات القرآنية تنبهنا مراراً إلى أن الله سمح بوجود الكافرين على الأرض . . ولم يسمح بقتل من يخالف في الرأي أو الدين ﴿لا إكراه في الدين﴾ . ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٩٩] ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

﴿ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾[1] [هود: ١١٨]. إن الحركة والنمو الفكري والإنساني لا يتم إلا بوجود طرف آخر ورأي آخر.. حتى الشيطان يعتبر وجوده ضرورياً كي يستنفر المؤمن مواهبه ويراجع ذاته ويتدارك مواضع النقص والخلل.. ولهذا كان من المنظرين إلى يوم البعث. ولهذا لا غرابة أن نجد أحزاب المعارضة متوفرة في الدول المتقدمة.. أما دول العالم الثالث فأكثرها لا يسمح فيها إلا بالرأي الواحد. والمسلم المعاصر يعاني من التمزق والصراع في عالمه الإسلامي ويحلم بتحقيق وحدة بين أطرافه.. لكن يتصور أن هذه الوحدة لا تتم إلا بالقضاء على تعدد الآراء والمذاهب.. وأنه يجب أن يتجمع المسلمون في تيار فكري واحد وتتم تصفية كل التيارات الأخرى والقضاء عليها.. ولكن هذا التصور ساذج، وفيه تعطيل للاجتهاد، والإبداع والنمو في المجتمع.. فإن إلغاء الطرف الآخر من الوجود فيه إعدام للحياة الفكرية، وإيقاف للحركة التاريخية.

٩ـ يعتبر اسلوب ابن آدم الأول ﴿ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ اسلوباً مبتكراً وفذاً في علاج المشاكل.. يتضمن نزع السلاح ولو من طرف واحد. ولا يزال الموضوع بحاجة إلى مزيد من الوقت والنضج حتى يتبين للناس مدى فعالية هذا الأسلوب. والطريق أمام الإنسانية ما زال طويلاً.

٤ـ جزاء محاربة الله والسرقة (٣٣ـ٤٠)

والإسلام لم يسن العقوبات إلا بعد أن ربى النفوس على التقوى وأعطاها الهدف الذي تعيش من أجله.. وأسس مجتمعاً متكاملاً يحقق للأفراد كل الفرص والضمانات للحصول على الرزق والأمن والكرامة وصيانة الأعراض.. ونشر جواً نمت فيه بذور الخير وذابت بذور الشر.. وبعد ذلك كله جاءت العقوبات

---

(١) وإنما شرع القتال في الإسلام لمنع الظلم ـ لا لمنع الكفر ـ وضد من يفتن الناس ويحاول إكراههم على دين ـ مهما كان هذا الدين ـ علماً بأن القتال في الإسلام له شروط ليس هنا موضعها ـ ولكن يكفي أن أشير أن القتال ـ مثل إقامة الحدود ـ هو من واجب الحاكم المسلم فهو الذي يستنفر الناس للقتال ضد الظلم ولا يحق لغيره من أفراد المجتمع أن يستنفر للقتال.

لردع النفوس المنحرفة. . إكمالاً لصيانة المجتمع. . والذين يبدأون ـ في عودتهم إلى الإسلام ـ من تطبيق العقوبات يخطئون خطأ جسيماً. . فليس هذا من منهج الإسلام. . ولا ينتج ذلك إلا مزيداً من الصد عن دين الله.

١ ـ حد الحرابة:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك [أن نفراً من عكل ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فاستوخموا المدينة وسقمت أجسامهم فشكو إلى رسول الله ﷺ ذلك فقال: «ألا تخرجون مع راعينا في إبله فتصيبوا من أبوالها وألبانها» فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها[1] فصحّوا. فقتلوا الراعي، وطردوا الإبل فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث في آثارهم فأُدركوا فجيء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم، ثم نبذوا في الشمس حتى ماتوا]. ورواه مسلم من طريق سليمان التيمي عن أنس قال: [إنما سمل النبي ﷺ أعين أولئك لأنهم سملوا أعين الرعاء]. . ونزلت فيهم ـ وفي أمثالهم ـ الآية.

من هم الذين يحاربون الله ورسوله ؟يبدو أن الآية تزيد في وصفهم للبيان ﴿ويسعون في الأرض فساداً. .﴾ قال ابن عباس: (من شهر السلاح في فئة الإسلام وأخاف السبيل. .)[2].

وقال مالك بن أنس: (المحارب من حمل السلاح على المسلمين في مصر ـ أي مدينة ـ أو خلاء قاطعاً السبيل مختفياً لهم بسلاحه. .). ويقول رشيد رضا في المنار: (المحاربون: المفسدون في الأرض. الذين يعملون في بلاد الإسلام أعمالاً مخلة

---

(١) يبدو أن العرب كانت تستعمل ذلك كدواء لبعض السقم.

(٢) ابن كثير في تفسير الآية.

بالأمن سواء في الأنفس والأموال والأعراض معتصمين بقوتهم غير مدعنين للشريعة).

فالجريمة تشمل: ١ـ الخروج على الإمام المسلم الحاكم بشرع الله.

٢ـ العصابات التي تغير على الناس فتسرق وتقتل وتعتدي على الأعراض ـ ومنهم قطاع الطرق ـ

٣ـ عصابات تهريب وترويج المخدرات (لأنهم يحاربون الله ويسعون في الأرض فساداً)

واصطلح على تسمية هذه الجريمة: الحرابة. وهي إحدى الجرائم الخمسة التي سميت عقوباتها: حدوداً: (الزنا ـ القذف ـ السرقة ـ الخمر ـ المحاربة). والحدود يختلف أمرها عن القصاص.. وذلك أن القصاص بيد ولي الدم (ولي القتيل) فإن عفا انتهى الأمر.. وليس للحاكم أن يجبره على القصاص. أما الحد.. فإن وصل أمر الفاعل إلى الحاكم وثبت الفعل عليه ـ بدون شبهة ـ فلا بد من إيقاع الحد..

وقد بحث الفقهاء في الشروط التي يجب أن تتوفر في المحارب حتى يقام عليه الحد.. واختلفوا في معظمها.. إلا شرط: بلوغ سن التكليف ـ أي أن يكون بالغاً عاقلاً ـ ولا يشترط في المحارب أن يكون مسلماً.. يقول سيد سابق (لا فرق بين أن تكون هذه الطائفة من المسلمين أو الذميين أو المعاهدين أو الحربيين ما دام ذلك في دار الإسلام وما دام عدوانها على كل محقون الدم قبل الحرابة من المسلمين والذميين)[1].

والعقوبة التي تحددها الآية: القتل ـ أو الصلب ـ أو قطع الأيدي والأرجل من خلاف ـ أو النفي.. وقال بعض الفقهاء: النفي من الأرض: منه السجن..

وهنا لا يحق لي أن أدخل في تفاصيل تَخَصَّصَ في بحثها علماء وفقهاء.. ولكن حتى النظرة العجلى تجعلنا نتساءل: ماذا يعني أن يترك تحديد نوع العقوبة

---

(١) سيد سابق في كتابه فقه السنة: المجلد الثاني صفحة ٤٦٤. وقد بحث الموضوع بتفصيل مفيد.

للحاكم ؟ وهل للحاكم أن يختار على هواه دون مرجع . ؟!

إن من يدرك مقاصد الشريعة لا بد أن يقول: إن الحاكم يجب أن يستعين بخبراء اجتماعيين ونفسيين لتحديد العقوبة المناسبة والعادلة والكافية لتحقيق الأمن في المجتمع وصرف المجرم عن الجريمة . . إذ ليس القصد هنا مجرد الانتقام من المجرمين . . بدليل إسقاط العقاب على من تاب قبل القدرة عليه ـ كما سيأتي في الآية التالية ـ

إن جريمة الحرابة هي من أكبر الجرائم . . ومع ذلك فإن الله سبحانه وتعالى يعطي فرصة للحاكم في النظر والتقدير والاجتهاد وفي ذلك تكليف كبير لأهل الحل والعقد ـ علماء القانون والشرع والنفس والاجتماع ـ أن يجتهدوا في تقدير المصالح ودراسة العواقب والظروف والملابسات . . كي يتم تحديد العقوبة بالشكل الذي يحقق الأرشد للفرد والمجتمع .

وسنرى عند دراسة حد السرقة كيف كان عمر رضي الله عنه يجتهد لما فيه العدل والخير لأنه استوعب مقاصد الشريعة .

﴿ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ هذه العقوبة هي ذل وفضيحة لهم في الدنيا . . ولن يعفيهم هذا من عذاب الآخرة . . وقد يكون هذا خاصاً بحد الحرابة بينما العقوبة في باقي الحدود تكون كفارة للمذنب وتعفيه من عقوبة الآخرة . . كما ورد في الحديث: «من أتى منكم حداً فأقيم عليه فهو كفارته، ومن ستره الله عليه فأمره إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له . »[1]

وذلك لفظاعة جرم الحرابة حين تزعزع الأمن في الأمة وتنشر الخوف بين الناس مما يعطل المصالح ويضر بتوفير الضمانات التي يزدهر ضمنها اقتصاد المجتمع ونموه الثقافي والاجتماعي . . إن ضمان الأمن في المجتمع مقصد كبير وخطير . . وكما مر معنا ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ لأنه قتل الأمن في قلوبهم . . وأفقد القانون حرمته . . فكل فرد في الأمة خائف على نفسه أو ماله أو عرضه . . يشله الخوف عن التفكير في أي نمو لنفسه وأهله وأمته . . كذلك قد يكون هذا

---

(١) رواه مسلم.

التهديد بعذاب الآخرة. . لأن المحارب ارتكب جرائم كثيرة. . وعقوبة الحرابة لا تكفي لرد حقوق الذين اعتدى عليهم في الدنيا. . أما في الآخرة فلا بد أن يأخذ كل مظلوم حقه. . ولو بأن يحمل المحارب عنهم سيئاتهم وقيل بأن هذا التهديد بعذاب الآخرة لمن عوقب وهلك ولم يتب من جرائمه. . والله أعلم.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ودليل صدق توبتهم. . أنهم تابوا قبل أن يمسكوا وقبل أن يصبحوا في قبضة الحاكم. . تابوا وهم ما زالوا قادرين على العدوان ممتنعين بقوتهم عن الاعتقال. . وعندها تسقط عنهم عقوبة الدنيا والآخرة. . إلا فيما يتعلق بحقوق العباد فلا بد من رد الحقوق إلى أصحابها. . أو الحصول على العفو منهم عن طيب خاطر منهم.

وإن فتح باب التوبة هنا لجدير بالتأمل. . فالجريمة ـ الحرابة ـ هي الكبرى. . ومع ذلك فإن التوبة قد أسقطت العقاب وأوقفت الملام. . ألا يشير هذا بوضوح إلى أن المهم في الموضوع هو إيقاف الجريمة ورد المجرم إلى جادة الصواب؟ فإذا استطاع الناس أن يبتكروا أساليب جديدة أكثر إيقافاً للجريمة وأشد أثراً في تحويل المجرم إلى إنسان فاضل فما المانع. . ؟! هاتوا الذي ثبت أنه أحسن عاقبة كي نأخذ به فالقرآن علمنا أن نتحرى ما ينفع الناس لأنه هو الذي[1] يبقى. . إن بعض المدن الكبرى حتى الآن فاقدة للأمن. . وبعضها لا يجرؤ الناس فيها على الخروج من بيوتهم ليلاً. . خوفاً من عصابات السطو والخطف و. . ولا أقول هذا للتنديد بالآخرين والدفاع عن الإسلام والمسلمين. . ولكن أقول أن على البشر كلهم ـ بما فيهم المسلمين ـ أن يفكروا في أفضل الأساليب لتعميم الأمن والسلام في هذه الأرض.

ولنا أن نتأمل كم فتحت هذه الآية ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ . . ﴾ من قلوب كادت الجريمة أن تودي بها. . وكم حققت من أمن للمجتمع بتوبة كثير من المحاربين. . وكم هزمت من شياطين. . ألم يكن الفضيل بن عياض ـ عابد الحرمين كما لقب فيما بعد ـ قاطع طريق. . فتاب. . وهذا علي الأسدي كان

---

(١) ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ [الرعد: ١٧].

محارباً أخاف السبيل وأصاب الدم والمال فطلبه الأئمة والعامة، فامتنع ولم يقدروا عليه حتى جاء تائباً. وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] فوقف عليه فقال: يا عبد الله أعد قراءتها. فأعادها عليه فغمد سيفه ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل، ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح، ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه فلما أسفروا عرفه الناس، فقاموا إليه، فقال لا سبيل لكم علي جئت تائباً من قبل أن تقدروا علي. فقال أبو هريرة: صدق وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم ـ وهو أمير على المدينة في زمن معاوية ـ فقال: هذا علي جاء تائباً ولا سبب لكم عليه ولا قتل. فترك من ذلك كله.. وخرج تائباً مجاهداً في سبيل الله في البحر.. فلقوا الروم.. فاقتحم على الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر فمالت به وبهم فغرقوا جميعاً[2].

لقد حققت الآية أغراضاً جليلة عديدة.. منها:

١ـ علاج نفوس وتطهيرها وإعادتها إلى جادة الصواب بعد أن قطعت أشواطاً في الضلال..

٢ـ عادوا إلى المجتمع بصفحة جديدة لا يستطيع أحد أن يمس حقوقهم أو يجرح كرامتهم.. وهذا خلافاً لما يحدث لمن يفرج عنهم من السجون حالياً حيث تغلق الأبواب الشريفة في وجوههم. وقد يضطرون إلى العودة للجريمة من جديد لأنهم أصبحوا من (أصحاب السوابق).

٣ـ وفر على المجتمع قتالهم وترصدهم.. واستعاد الناس أمنهم..

٢ـ الأمر بتقوى الله وابتغاء الوسيلة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ تأمل معي روعة الإسلام.. إنه لا يأخذ الناس بسلطان

---

(١) الزمر: ٥٣.

(٢) ذكره ابن جرير الطبري.

العقوبة فقط.. بل إنه ما يكاد ينتهي من الترويع بالعقوبة حتى يأخذ طريقه إلى القلوب.. ويعود النداء الحبيب ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ ليحدو النفوس المؤمنة ويجعلها تسارع في الأخذ بكل عمل يقر بها إلى ربها ويوصلها إليه.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله﴾ هكذا تتردد هذه الوصية في هذه السورة مراراً وتكراراً.. مثل جرس الانذار ينطلق كلما غفل الإنسان وكادت قدمه تزل إلى الهاوية.. انتبه أيها المؤمن واحذر.. فإن الطريق مليء بالمزالق وقد زرعت لك الألغام فيه ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾[1] ﴿اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ ما هي الوسيلة ؟

الوسيلة لغة: ما يتوصل به إلى الشيء ويتقرب به إليه.. والوسيلة إلى الله: كل ما يقربنا ويوصلنا إليه.. ولقد نصت الآيات والأحاديث على كثير من الأعمال التي توصل إلى رضى الله ومحبته.. ومع تطور الأحوال في عصرنا جدت أساليب مبتكرة يتقرب بها إلى الله.. وفي ذلك فليجتهد المجتهدون.. وفي ذلك فليتنافس المتنافسون، تأمل معي كم يكون فضل من أخرج فيلماً جيداً يزكي نفوس ملايين المشاهدين ؟! ألا يعتبر التخصص في فن الإعلام وحسن استخدام وسائله المعاصرة.. لنشر الخير.. من أحسن الوسائل للتقرب إلى الله في هذا العصر.. ؟!

هذا وقد ورد في الأحاديث معنى آخر للوسيلة على أنها أعلى منزلة في الجنة.. عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثلما يقول ثم صلوا عليَّ فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه عشراً. ثم سلوا لي الوسيلة. فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة»[2]. وهو معنى خاص للوسيلة نص عليه الحديث ـ على أنها أعلى منزلة في الجنة لا ينالها إلا محمد ﷺ ـ أما في القرآن فالوسيلة كل ما يتقرب به إلى الله.

---

(١) الأعراف: ١٧.

(٢) رواه مسلم.

﴿وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون﴾. والجهاد: كل جهد وتعب يبذله الإنسان في سبيل الخير والحق. ولقد كان القتال في الماضي من أبرز أنواع الجهاد.. أما الآن فعلى المسلم أن يعيد النظر ويتأمل في حاجات الأمة المسلمة وأمراضها وظروف حياتها في هذا العالم المعاصر.. لكي يدرك في أي مجال ينبغي أن يكون الجهاد كي يؤتي ثماراً طيبة.. فلكل عصر أساليبه في الجهاد.. ولكل أمة أمراضها التي يجب أن تعطى الأولوية لها في الجهاد.

أليس العالم كله محتاج إلى جيل جديد مفتوح العقل والقلب.. يؤمن بالحق والخير ويلتزم بهما ويسعى لخدمة الآخرين.. ؟ ألا يعتبر إنشاء هذا الجيل وتربيته من أعظم الجهاد في هذا العصر.. ؟!

إن الآية تدل المؤمنين على طريق الفلاح: اتقوا الله + ابتغوا إليه الوسيلة + جاهدوا في سبيله، فمن فعل ذلك كله له أن يرجو الفلاح ﴿لعلكم تفلحون﴾ في الدنيا والآخرة.. أما من كان صفر اليدين ـ مثلنا ـ فكيف يتطاول إلى الفلاح.. ؟! فيا أيها الذين آمنوا انتبهوا قبل فوات الآوان.. فإن من حرم من الفلاح تدهور إلى مصير مروع لا فكاك منه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ عجباً لهذا الإنسان.. كيف ينسى الآخرة وينشغل بمتاع قليل من هذه العاجلة..! وكيف يؤجل التوبة ويغتر بالحياة حتى ينقضي الأجل وتفوت الفرصة.. وعند ذلك لا تنفع الأماني ولا يقبل فداء ولا رجاء.. وإنما هي نتائج الأعمال.

٣ـ حد السرقة:

﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ويبدو أن القطع كان معمولاً به في الجاهلية فأقره الإسلام. وقيل بأن الآية نزلت في المرأة المخزومية التي سرقت.. والسرقة في اصطلاح اللغويين: هي

أخذ الشيء من الغير على وجه الخفية والاستسرار[1].

وأما تعريفها عند الفقهاء.. فبعض التعاريف أضافت قيوداً أخرى.. ككون الأخذ من حرز (أي موضع حصين) وبعضها لم يشترط ذلك كالظاهرية. وبعضها أضاف أيضاً كون المسروق مما لا يتسارع إليه الفساد كالحنفية[1].

فقد عرفها الحنفية: بأنها أخذ مُكلَّف نصاب القطع خفية مما لا يتسارع إليه الفساد من المال المتمول للغير من حرز بلا شبهة[1]. وهذا التعريف دقيق لأنه يحدد شروط إيقاع العقوبة على هذه الفعلة.

وعلى هذا ميز الفقهاء السرقة عن غيرها من جرائم أخذ المال. مثل: الحرابة والغصب والاختلاس.. فهذه الجرائم لها عقوبات أخرى.. وللباحث المهتم أن يطلبها في كتب الفقه..

أما جريمة السرقة فلها أركان وشروط أختصر في تعدادها معتمدة في ذلك على كتاب عقوبة السارق للدكتور أحمد توفيق الأحول. فالشروط كما نرى من تتبع التعاريف تتفرع إلى:

الشروط المتعلقة بالسارق:

١ـ شرط التكليف: أن يكون بالغاً عاقلاً.

٢ـ أن يكون مختاراً في الفعل: أي غير مكره.

٣ـ أن يكون حراً: وهو قول ابن عباس وخالفه فيه الجمهور.

٤ـ الالتزام بأحكام الإسلام: وهذا أيضاً فيه خلاف بين الفقهاء.

٥ـ أن لا تكون للسارق شبهة في المال المسروق. كأن يكون المال لأحد من رَحِمِه المحرم[2].

---

(١) من صفحة ٩٦ و ٩٧ من كتاب عقوبة السارق للدكتور أحمد توفيق الأحول.

(٢) وهو رأي أبي حنيفة. واتفق الأئمة الأربعة على أن الوالد لا يقطع إذا سرق مال ابنه أو ابنته.

الشروط المتعلقة بالمسروق منه :

مطالبة مالك المال بالمال المسروق . وخالفهم في ذلك الإمام مالك

الشروط المتعلقة بالمال المسروق :

١ـ أن يكون المسروق مالاً . واختلفوا في سرقة الأطفال (لبيعهم) .

٢ـ أن يكون المال منقولاً .

٣ـ أن يكون المال متمولاً : أي أن يكون عند الناس عزيزاً يضنّون به . وقد اختلفوا في ذلك .

٥ـ أن يبلغ نصاباً : واختلفوا في مقداره : ما بين ثلاثة إلى عشرة دراهم فضية . .

ويقول صاحب الكتاب : إنه لا يمكن حالياً تحديد ما يوازي الربع دينار من الذهب (وهو النصاب الذي ذكره الفقهاء في الماضي) تحديداً يمكن اعتباره قاعدة عامة . . وذلك لارتفاع أسعار الذهب بصورة مطردة بين وقت وآخر . . ولما كان الوقت المعتبر لتحقيق النصاب هو وقت السرقة . . فإني أرى أن يترك أمر هذا التقدير إلى جهة شرعية كدار الافتاء مثلاً بما فيها من أجهزة معاونة بأن يعلن كل يوم ما يوازي ١/ ٤ دينار من الذهب بالعملة .

٦ـ أن يكون المسروق مملوكاً للغير . فيخرج من ذلك الأخذ من الغاصب والسارق ـ وأخذ اللقطة .

٧ـ أن لا يكون مما يتسارع إليه الفساد . (مثل الثمر) وفي ذلك خلاف .

الشروط المتعلقة بفعل السرقة :

١ـ أن يكون الأخذ خفية .

٢ـ أن يكون الأخذ من حرز . (الموضع الذي تحفظ فيه الأموال عادة بحيث لا

يعد صاحبه مضيعاً).

٣ـ ثبوت الأخذ. وطرق الاثبات في الشريعة عديدة منها: الإقرار ـ والشهادة..

﴿فاقطعوا أيديهما﴾ والثابت: أن تقطع يد واحدة وهي اليمنى.. وهي مثل قوله تعالى: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾ ولم يقل (قلباكما).. جرياً على مألوف لغة العرب.

وتقطع اليد اليمنى من الكوع ـ وهو ما درجنا على تسميته بالرسغ أو الزند ـ وهو ما دلت عليه الأحاديث وعليه جمهور الفقهاء. بينما قال الخوارج بالقطع من المنكب.. وقال الشيعة بقطع الأصابع فقط..

﴿جزاء بما كسبا نكالاً من الله﴾ فالقصد من العقوبة هنا: مجازاة السارق ومعاقبته. وردع الآخرين عن الإقدام على هذه الجريمة وبذلك يحفظ أمن المجتمع وتصان الضمانات الاجتماعية كما قال عند القصاص على القتل ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾. إذ أن مهمة الحاكم أن يبذل جهده في توفير سلامة النفس والمال والعرض لأفراد أمته.. والقصاص والحدود إن قضت على فرد صانت الأمة.

﴿والله عزيز حكيم﴾ عزيز له الحكم والأمر.. وحكيم يأمر بالحكم المناسب في الظرف المناسب. تروى قصة عن الأصمعي أنه كان يقرأ الآية وأمامه أعرابي فأخطأ وقرأ ﴿والله غفور رحيم﴾ فقال الأعرابي كلام من هذا ؟ قال الأصمعي: كلام الله. قال الأعرابي: أعد عليَّ. فانتبه الأصمعي وقرأ ﴿عزيز حكيم﴾ فقال الأعرابي: الآن أصبت. قال الأصمعي: وكيف عرفت ؟ قال: عزيز حكيم فأمر بالقطع.. ولو كان غفوراً رحيما لما أمر بالقطع.

وقبل أن أترك الموضوع أقول إنه لموضوع كبير كان للفقهاء فيه صولات وجولات.. حتى أن الباحث يكتشف ولو بنظرة عجلىٰ.. أن العقوبة لا تطبق إلا بشروط دقيقة وبعد انتفاء أي شبهة.. وها أنا أسجل بعض الملاحظات:

١ـ إن العقوبات والحدود لم يأمر بها الله إلا بعد أن أقيم مجتمع مسلم منظم متضامن متكامل يحكمه حاكم مسلم يسهر على توفير الضمانات المادية والمعنوية لكل أفراده. وإنه لخطأ كبير أن يبدأ المسلمون بالعقوبات في عودتهم إلى تحكيم شرع الله.. كمن ترك رأس الأمر وعموده.. وتمسك بأطراف أذياله.. إن هذا من شأنه فعلاً ـ كما قال أحد الكتاب ـ أن يصد الناس عن الإسلام لأنه ينتج مجتمعاً تنمو فيه نسبة المعوقين والعاطلين.

ولله در عمر رضي الله عنه الذي تفرد بفهم عال لمقاصد الشريعة ومواضع الأحكام وكانت له اجتهادات جريئة.. حتى أنه روي عنه أنه قال لوالٍ يريد أن يعيِّنَه: ماذا تفعل إن جاءك الناس بسارق أو ناهب ؟ قال: أقطع يده.. قال عمر: إذن إن جاءني جائع أو عاطل عن العمل فسوف عمر يقطع يدك.

٢ـ الحاكم المسلم هو الذي يقيم الحدود.. فإن لم يكن هناك حاكم مسلم هل نهمل الموضوع ؟ بل لا بد من تحريك الذهن ومحاولة فهم أبعاد الموضوع ولا يترك هذا للعلماء فقط ـ وإن كانت حاجة المجتمع إليهم هي الأولى ـ لأن رفع مستوى الوعي العام هو الذي يبلور ويشكل النخبة من العلماء.. ولأن تيار الرأي العام في المجتمع هو الذي يوجه الحاكم بل ويحكمه.. ولهذا يروى أن أحد الظالمين سئل: لِمَ ؟! فرد على السائل بحرف واحد أيضاً: كما.. (ويقصد كما تكونوا يول عليكم).

٣ـ قاعدة: درء الحدود بالشبهات: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ «ادرؤوا الحدود عن المسلمين مااستطعتم. فإن كان له مخرج فخلوا سبيله. فإن الإمام أن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة»[1]. وينبغي للسارق أن يكون مكفي الحاجة.. متبيناً لحرمة الجريمة وليس جاهلاً بشرائع الإسلام.. وقد قال عمر رضي الله عنه (لا قطع في عام المجاعة). وحين سرق غلمان ـ أي رقيق ـ لحاطب ناقة لرجل من مزينة فانتحروها ـ أي ذبحوها للأكل ـ ورفع ذلك إليه.. كاد أن يقطع أيديهم.. ثم استدرك فغرَّمَ سيدهم بضعف ثمن الناقة ولم يقطعهم

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم والبيهقي وغيرهم.

لشبهة الجوع والحاجة[1]

٤ـ بل إنه يندب للقاضي أن يلقِّن السارق ما يسقط الحد. فقد أتي النبي ﷺ بلص اعترف ولم يوجد معه متاع فقال له ﷺ: «ما إخالك سرقت». قال: بلى.. (مرتين أو ثلاثاً)[2] وكذلك فعل أبو بكر وعمر[3]..

٥ـ المسروق منه يستطيع أن يعفو عن السارق ما لم يصل الأمر إلى الحاكم. فإن وصل أقيم الحد.

٦ـ إن ما يحدث في العالم الآن يعاكس المنطلق الإسلامي العادل الذي يعذر الفقير الضعيف.. بينما الناس يعذرون الشريف ولا يقيمون عليه الحد. وهو سبب هلاك الأمم كما قال ﷺ «إنما أهلك من قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد»[4]. وفي المجتمع الدولي الآن تترك إسرائيل كي تفعل ما تشاء.. ويترك الصرب لينتهكوا كل حقوق الإنسان مع المسلمين في البوسنة والهرسك.. ولا تطبق العقوبات إلا على العالم الإسلامي..!! لقد أصبحت (الشريعة الدولية) مهزلة لأنها في الحقيقة شريعة الغاب التي كشرت عن نابها دون حياء.. وهو تخلف أخلاقي لا بد أن يؤتي ثماره ولو بعد حين.. لأنه قانون هلاك الأمم.

٧ـ وفي المقابل نحن بحاجة إلى دراسات إحصائية وميدانية لأحوال الأمم.. لرؤية إلى أي مدى نجحت القوانين البشرية الأخرى في القضاء على السرقة. وقرآننا يعلِّمنا أن نقيِّم الأمور بنتائجها وعواقبها.. فمن أعطى عاقبة أفضل (خيراً وأبقى) كان هو الأصلح.. علماً بأن دراسة تاريخ الأمم الماضية تكشف لنا أن قوانين الأمم المعاصرة لنزول القرآن كانت تحكم بعقوبات أشد خاصة على الضعفاء..

---

(١) صفحة ٤٩٢ من الجزء الثاني من فقه السنة لسيد سابق.

(٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائي.

(٣) صفحة ٥٠٣ من فقد السنة لسيد سابق.

(٤) رواه مسلم.

وبعد.. فإن فهمنا لموضوع العقوبات مازال بحاجة إلى إنضاج.. ولا بد من الاطلاع على ثمرات الدراسات النفسية والاجتماعية في العالم في هذا المجال. إذ أن الغاية هي تزكية الفرد والمجتمع وتحقيق الضمانات الأمنية اللازمة للحياة وازدهارها فيه. ولا ننسى أن رسول الله ﷺ - وهو خير من طبق الإسلام - لم يضرب امرأة أو طفلاً أو عبداً قط.. ومعنى ذلك أنه لم يلجأ إلى الضرب في حل مشاكل الأسرة والتربية.. إن اسلوبه ﷺ في تزكية الإنسان لم تعط فيه الأولوية للعقاب.. ومرة أخرى أقول: كم نحن محتاجون إلى فقه عمر رضي الله عنه.. لقد كان عمر رضي الله عنه متمسكاً بمقاصد الشريعة فلم تكبله النصوص.. لقد كان يعلم كيف يضع النص في مكانه.. وكيف يجتهد في مصالح الناس.. ولا عجب فقد رباه رسول الله ﷺ على أن يعمل فكره ويجتهد. أما نحن فقد فقدنا العلماء المجتهدين منذ انهيار حضارة المسلمين.. اللهم إلا من عدد قليل لا يكفي للنهوض والإقلاع[1]..

﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ إن باب التوبة مفتوح إلى يوم القيامة.. وحتى مرتكبي الكبائر.. وهذا السارق إن تاب بقلبه إلى الله وأصلح في عمله وسلوكه.. ورد الحقوق إلى أصحابها.. أو حصل على عفو صادق منهم.. فإن الله يفتح له الأبواب ويمنحه الرحمة والمغفرة.

---

(١) أذكر مرة أنه سألتني إحدى الباحثات: إن شارب الخمر - أو مدمن المخدرات - الآن يمكن أن يعالج في مراكز صحية تقدم له العلاج النفسي والجسمي حتى يتحرر من هذه العادة الخبيثة.. فهل نستطيع أن نقول أن هذا العلاج الآن يغني عن إقامة الحد عليه.. ؟ خاصة وأن معظم المدمنين قد غرر بهم واستدرجوا إلى هذه الجريمة من قبل الخبثاء وتجار المخدرات بأساليب عجيبة.. قلت: إن هذا الموضوع جدير بالبحث والتأمل وعلى العلماء أن يدرسوه ويعطوا حكمهم فيه.. ولا يحق لي بعلمي القليل أن أطلق حكماً فيه.. ولكن من الواضح أن الذين غرر بهم من المدمنين يعتبرون ضحايا تحتاج إلى المساعدة والانقاذ.. لا العقاب. ثم إنني ما زلت أتساءل: لماذا نفكر قبل كل شيء بإقامة الحدود في عالمنا الإسلامي المهلهل الذي فقد جوهر الإسلام ؟! وكأن كل شيء على ما يرام ولم يبق إلا إقامة الحدود!!
هلاّ بنينا المجتمع الرباني القائم على العلم والإيمان أولاً..!!

أما: هل تقطع يد السارق التائب أو لا ؟! ففيه خلاف بين الفقهاء يُرجع إليه.

ويأتي التعقيب على هذا الحكم وعلى التوبة:

﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ؟! هذه الأحكام من المالك لكل شيء.. العليم بكل شيء.. الرحيم بعباده.. حتى أنه وهو رب السموات والأرض.. يغفر ويرحم.. ولكن الناس لا تغفر!!

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ لأنه يعلم من يستحق العذاب ومن يستحق المغفرة..

﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وفي ذلك تذكير للمؤمنين بأهمية الفرار إلى الله والاعتصام به.

٥ـ الذين أنزل إليهم الكتاب ليحكموا به (٤١ـ٥٠)

١ـ أصحاب التوراة:

الآيات هنا تؤكد على أهمية الحكم بما أنزل الله في الكتب السماوية. أي عن العنصر الثالث من عناصر التوحيد: لا حاكم إلا الله. وذلك لأن دين الله وحكمه منهج كامل للحياة يتصف بالعلم المطلق والعدل المطلق ويتناسق مع سنن الكون كلها وفيه يتحرر الإنسان من العبودية لغير الله.

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ يبدأ بمواساة الرسول ـ وهو المسؤول الأول عن هذا المجتمع الوليد ـ الذي يتألم لرؤية أناس داخل هذا المجتمع لا يؤمنون بمبادىء هذا المجتمع.. فماذا يصنع القائد المسؤول مع أمثال هؤلاء.. ؟!

﴿ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم المنافقون.. ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ﴾ إنها مشكلة تعترض كل

المجتمعات.. وهي وجود أناس داخل المجتمع لا يؤمنون بمثله الأعلى.. فكيف تعالج الأمم هذه الظاهرة.. ؟!

إننا نرى ـ رغم الشعارات التي تدعي الديموقراطية في أنحاء العالم ـ كثيراً من الدول ـ وخاصة في العالم الثالث ـ.. تلجأ إلى مطاردة هؤلاء وسجنهم وأحياناً قد تقضي بإعدامهم.. أما الدول المتقدمة فهي تحقق الديموقراطية لأبناء بلدها.. لكنها تأبى على العالم الثالث أن يفكر بمبادىء غير مبادئها.. وأوضح مثال على ذلك موقف العالم الغربي الآن من التيار الإسلامي في الجزائر عندما فاز بانتخابات ديمقراطية، وأما بالنسبة للنظام الإسلامي وكيف ينبغي أن يعالج هذه المشكلة.. فإن المبدأ المقرر في القرآن ـ والذي نسيه المسلمون الآن مع الأسف ـ ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (١) ..

إن المجتمع الذي بني على الإيمان والتقوى وتمارس فيه الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتكرس فيه الجهود الكافية لبيان الرشد من الغي.. لا يضره وجود طائفة لا تؤمن بمبادئه.. وتتخذ خط المعارضة.. بل قد أصبح من الواضح أن وجود المعارضة ضروري لنمو المجتمع.. لأنه يبقي على المجتمع حالة التوتر التي هي ضرورة لبقاء الحركة والنمو.. وبدون معارضة يهدأ التوتر ويسترخي المجتمع ويستسلم للنوم راضياً.. وهذا ما أشرت إلى بعضه عند تفسير الآية ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ (٢) ..

إن وجود القلة التي تسارع إلى الكفر ضمن مجتمع مبني على العلم والإيمان لا يضر.. لأن الأكثرية هي التي تكون ثقافة الأمة.. وفي مثل هذا المجتمع يصبح الحق والخير هما الطابع المميز لعادات المجتمع وسماته وثقافته التي يستنشقها الناشئون فيه.. فإذا كان المجتمع بهذا الشكل فلا يحزنك وجود المعارضين.. بل إن وجودهم ضروري لاستنفار أصحاب الحق وتحريك عقولهم وتوظيف طاقاتهم.. وترسيخ أقدامهم..

---

(١) البقرة: ٢٥٦.

(٢) راجع تفسير الآية ٢٥١ من كتاب (من هدي سورة البقرة) حنان لحام.

وتستمر الآيات في وصف هؤلاء المعارضين من المنافقين واليهود..

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ كثيروا السمع للكذب.. يتسقطون الكلام من كل مكان.. بل يسمعون لمصادر معينة فقط لا يهمها إلا الكذب والافتراء وكتمان الحق.. يسمعون لمن لم يأتوك لأنهم لا يريدون الحوار مع الحق حتى لا ينكشفوا..

سبب نزول الآية: ورد أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا. فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون. قال عبد الله بن سلام كذبتم إن فيها الرجم، فأتُوا بالتوراة. فأتَوا بالتوراة فنشروها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده فإذا آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. فرأيت[1] الرجل يحني على المرأة يقيها الحجارة[2].

ويبدو من الحادثة ومن سياق الآيات.. أن بعض السادة الماكرين من اليهود قد أشاروا على قومهم أن يذهبوا إلى محمد ليحكموه في أمر الزانيين منهما.. امتحاناً للنبي.. وتملصاً من حكم كتابهم.

﴿لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ والتحريف هو تغيير اللفظ أو المعنى..

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ﴾ أي إن حكم لكم بالجلد فاقبلوا ويكون لكم حجة عند الله أن النبي حكم بذلك.

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ ولا تقبلوا.. هكذا يريدون أن يكون الحكم على هواهم.. ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[3].

---

(١) يقول ذلك راوي الحديث عبد الله بن عمر. وأقول: تأمل في نخوة هذا الزاني ورأفته بالمرأة..!! إن الإنسان مهما أجرم يبقى في قلبه من الخير ما يستحق الاحترام.

(٢) رواه البخاري.

(٣) المؤمنون: ٧١.

﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ والفتنة هي الامتحان بالتعريض لموقف عصيب فإما أن يثبت على الحق فينجح في الامتحان أو يتخاذل ويستسلم للهوى فيسقط. وامتحان الناس قانون من الله لا مفر منه لأنه هو الذي يحدد مراكزهم وجدارتهم.. ونتائجه تأتي وفق إرادة الإنسان الممتحن.. ولا يستطيع أحد أن يغير ذلك ﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾.. ولكن الدعاة والمصلحين يستطيعون تحصين المجتمع.. وعندها لا يتأثر المجتمع بمن يقومون بالفتن. وأما أصحاب الفتن وأهل الهوى فكيف ينجون وهم يزرعون الفخاخ للناس..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ لأنهم أرادوا الرجس لقلوبهم وآثروا الحضيض على الرفعة..

﴿لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهكذا فإن المجتمع الواعي لا بد أن يكشف هذه الأصناف المخادعة التي تريد إثارة الفتن.. ويكون هذا خزياً لهم في الدنيا.. وتقليصاً لنشاطهم.. وأما في الآخرة فلهم من الله ما يستحقونه.

﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ تأكيد لافت للنظر.. كيف يتسقط هؤلاء مجالس الكذب.. وكيف يستخدمون كل ما سمعوا لافتراء الكذب.. وينبغي أن يحذر الإنسان من سلوك الفارغين الذين لا همَّ لهم إلا تتبع القيل والقال.. وإن الله قد وصف عباده بالجد في تقصي الحق فهم يستمعون إلى كل ما يقال من جميع الأطراف كي يتبين لهم الحق.. لأنهم طلبة حق له يعيشون وعنه يتحرون.. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

أما هؤلاء فإنهم لا يريدون الحق وإنما يريدون أن يكيدوا له.. فهم يتتبعون الأكاذيب ويلفقونها..

---

(١) الزمر: ١٨.

﴿ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ وقد وصف المال الحرام بأنه سحت لأنه يقطع البركة ويمحقها.. وقد عرف اليهود عبر التاريخ بأكلهم الربا مع أنهم قد نهوا عنه لكنهم استباحوا أكله من غير اليهود وادعوا أن الله لا يؤاخذهم إن غدروا بالأمم الأخرى وأكلوا أموالهم بالباطل ﴿ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ترك الخيار لرسول الله ﷺ أن يستعمل حكمته في التعامل معهم.

﴿ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ﴾.. إن من يؤدي واجبه ويلتزم بسنن الله فإن شياطين الإنس والجن لا تستطيع أن تضره بشيء.. فامض في طريقك أيها الداعي ودقق في أعمالك وصححها باستمرار.. ولا تهتم بالكائدين.. فإن كيدهم يوشك أن يقضي عليهم.. ﴿ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله﴾..

﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ﴾ إن أعرضت عنهم وأهملتهم فلا حرج عليك ولن يضروك.. وإن أردت أن تحكم ـ إن لجأوا إليك لتحكم بينهم ـ فاحكم بينهم بالعدل رغم عداوتهم للإسلام والمسلمين ورغم كيدهم وتلاعبهم.. وهذا هو الدرس التربوي الذي تلح عليه هذه السورة.. التزام العدل حتى مع العدو..

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ ألا تريد أن تنال حب الله.. ؟! ومن منا لا يريد.. !! إن هذا التعقيب بقوته السحرية يزيح كل العقبات النفسية التي خلفتها في القلب مكائدهم وافتراؤهم..

ويستدل من الآيات على أن أهل الكتاب في ظل المجتمع الإسلامي لا يكرهون على حكم من غير شريعتهم.. لكن لا يسمح لهم بالخروج على النظام العام والإفساد في الأرض.

---

(١) آل عمران: ٧٥.

وقد ورد في نزول الآيات سبب آخر. عن ابن عباس أن الآيات إنما أنزلت في الدية في بني النضير وبني قريظة وذلك أن قتلى بني النضير كان لهم شرف تؤدى لهم الدية كاملة وإن قريظة كانوا يؤدى لهم نصف الدية فتحاكموا في ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله ذلك فيهم. فحملهم رسول الله ﷺ على الحق.. فجعل الدية في ذلك سواء[1].

﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ إنهم أتباع هوى تركوا حكم التوراة وجاؤوا إليك عسى أن ينالوا منك حكماً يناسب أهواءهم.. فلما حكمت بالعدل ـ ووافق ذلك حكم الله في التوراة ـ تولوا وأعرضوا.. فكيف يدعون الإيمان بعد ذلك.. ؟! إنهم لا يؤمنون حتى بكتابهم لأن المؤمن حين يسمع حكم الله يستسلم وينفذ ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ ﴾[2].. يقول صاحب تفسير المنار أن بعض اليهود يحتجون بأن التوراة التي معهم ليست محرفة بشهادة القرآن هنا:

﴿وعندهم التوراة فيها حكم الله﴾ غير أن هذه الحجة غير مقبولة. لأن القرآن طالب أصحاب الأديان السابقة أن يؤمنوا بالإسلام ويحكموا به لأنه رسالة الله الأخيرة للبشرية كلها[3].. والإسلام جاء إلى البشرية حين بلغت مرحلة الرشد فوضع لها الشريعة التي تستطيع فيها أن تتابع نموها.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ عندما أنزلت على موسى.. ورغم ما لحق بها من تبدل وتحريف.. فإن فيها بقايا من الهدى والنور. ولكن اليهود أتباع هوى وليسوا طلاب هدى.. فهم لا ينتفعون منها..

﴿ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ ﴾ يوصف أنبياء اليهود هنا بأنهم أسلموا.. لأن الإسلام هو دين الله الذي جاء به كل الأنبياء.. وهو

---

(١) ذكره ابن كثير نقلاً عن ابن جرير.

(٢) النور: ٥١.

(٣) بل إن كتبهم وأنبيائهم تأمرهم باتباع خاتم الأنبياء.

في جوهره استسلام لله. ومعنى هادوا: تابوا[1]. (وهم أتباع موسى).

﴿وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ﴾ والرباني: منسوب إلى الرب ويطلق هذا على كبار الكهنة والصالحين من اليهود (العُبَّاد) أما الأحبار فهم الذين عندهم علم.. ويقابل الربانيين والأحبار عند المسلمين: الأولياء والفقهاء..

﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ فالله حملهم التوراة وطلب منهم أن يحفظوها.. وهم شهداء على ما في كتاب الله ـ التوراة ـ من علم. وقد حذرهم الله من التخلي عن هذه الأمانة:

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ وقد يكون هذا النص موجوداً في التوراة. والتوجيه هنا عام لكل أتباع الديانات السماوية.. لكن الخطاب وجه بشكل خاص إلى الربانيين والأحبار لأثرهم على عامة الناس.. فهم الهداة وهم القدوة.. وهم الذين حُمِّلوا الكتاب وطُلب منهم تبليغه. وفي الآية تحذيران لا بد للمؤمن من تذكرهما في حياته اليومية.. فكيف بالعالم الداعي إلى الله..

١ـ لا تخشوْا الناس واخشونِ. لا تخافوا من تقاليد الناس.. ولا من مخالفة الرأي العام.. ولا من الأفكار السائدة الموروثة التي تعوق نهضة الأمة.. ولكن خافوا رب الناس.. وتذكروا المسؤولية والحساب بين يديه.. لماذا تخاذلتم عن تعليم الناس وانقاذهم.. ؟!

٢ـ ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً. فتكتموا الآيات وتتركوا بيان الحق من أجل مصلحة دنيوية..

ورحم الله من قال: إن الدنيا بحذافيرها ثمن قليل أمام الآخرة.. ألم تقل الآيات قبل قليل: ﴿إن الذين كفروا لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم..﴾ (٣٦).

إن الذي استطاع أن يتحرر من خشية الناس قد نال العتق بعد العبودية..

---

(١) كما جاء على لسان موسى حين تضرع إلى ربه ﴿إنا هدنا إليك﴾ الأعراف: ١٥٦..

وأطلق من أغلاله فلا يحكمه إلا رضا الله ذلك لأنه ترك خشية الناس إلى خشية الله.. فهو يسارع إلى الخير حيث كان ولو خالف الناس.. ولا تعوقه المصالح الدنيوية.. لأنه يؤمن أن الدنيا والآخرة بيد الله.. ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾[1].

هذا الهدى والنور الذي كان في التوراة لم ينتفع منه أهل الكتاب.. ويذكرني هذا بحديث زياد بن لبيد عندما ذكر النبي أمراً فقال: «وذلك عند ذهاب العلم» فقال زياد: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أولادنا.. فقال ﷺ «ثكلتك أمك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة.. أوليست اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء ؟!».

ونحن الآن في ذاك الزمان الذي تحدث عنه رسول الله ﷺ وصعب على الصحابي أن يتصوره.. إن القرآن باق بين أيدينا.. وفيه الهدى والنور.. لكننا عاجزون عن الاستفادة من هدى القرآن ونوره لقد أصبنا بفقدان العلم.. فألقينا أفكارنا العفنة على الآيات فشوهناها.. وإن من لم يتابع في فهمه وكشفه لآيات الآفاق والأنفس يعجز عن متابعة الفهم لآيات الله في الكتاب ويتوقف عند مراحل تاريخية سابقة فات أوانها.. فلا عجب أن يسبقه الذين ساروا في الأرض بل وفي السماء..

ويستمر التحذير من التخلي عن آيات الله والحكم بما أنزل.. لا تستهينوا بالأمر فإنه يصل بكم إلى الكفر..

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عن ابن عباس: قوله تعالى ﴿ومن لم يحكم.. فأولئك هم الكافرون﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر. ومن أقر به ولم يحكم به فهو ظالم فاسق.. وعن عطاء قال: كفر دون كفر. وعن طاووس: ليس بكفر ينقل عن المِلَّة[2]. ورأي أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون مؤمناً بذنب يرتكبه ولو كان من الكبائر. ولكن الخوارج يكفرون

---

(١) النساء: ١٣٤.

(٢) راجع تفسير ابن كثير للآية.

أصحاب الكبائر. وموضوع التكفير خطير ويجب التأني فيه وقد حذر منه الرسول ﷺ «من كفر مؤمناً فهو كافر». . وقد يكون المسلم مؤمناً بحكم الله لكنه لا يلتزم بشريعته. . ضعفاً أو كسلاً أو خوفاً. . فلا يسمى هذا كفراً. . بل هو فسوق أو عصيان. .

ومن الواضح أن الأمة تعاني من المدعين الذين يزعمون أن الإيمان في القلب وأن إيمانهم أقوى من غيرهم. . وإن كانوا لا يلتزمون بأمر الله. . ولكن العلاج يكون بالتوعية وإيجاد رأي عام يدرك حقيقة الإيمان وأنه ما وقر في القلب وصدقه العمل. ولا بد من إيجاد الكمية الكافية من النوعية الفاهمة لتغيير المجتمع.

وفي عالمنا تعود المتدينون عند الاختلاف أن يكفر بعضهم بعضاً. . أما أهل السياسة فيُخوِّن بعضهم بعضاً. . بينما يقول ابن تيمية أن من عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضاً ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون .

وتذكر الآيات بعضاً من الأحكام المكتوبة في التوراة:

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾ ففي الاعتداء عمداً يكون القصاص بالمثل. . فهو العدل والمساواة لا فرق بين شريف وضعيف. .

﴿ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ حتى الجرح يُقتصُّ بجرح مثله. . ولا ننسى قصة جبلة بن الأيهم ـ آخر ملوك الغساسنة ـ ولطمه لرجل من السوقة مما أدى إلى تهشيم أنفه. . وكيف حكم عمر رضي الله عنه بالقصاص من جبلة. . فهرب جبلة مرتداً. .

﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ أي عفا وتنازل عن حقه. . فيكون ذلك كفارة عن الجاني وأجراً للمجني عليه. ولم تذكر الآية (الأرش) وهو التعويض الذي يدفع عند الجروح أو فقد أحد الأعضاء ـ ويقابل الدية التي تدفع تعويضاً عن القتيل ـ وهو مذكور في كتب التفسير والفقه. وموجز ذلك:

إذا كان الاعتداء عمداً: فالقصاص بالمثل ـ أو الأرش (التعويض المالي) ـ أو العفو (والمُعتَدى عليه هو الذي يختار).

أما إذا كان الحادث خطأ: ففيه: الأرش ـ أو العفو.

وصاحب المنار يذكر أن العفو ليس له ذكر في التوراة فهو مما أضافه القرآن إلى شريعة القصاص. أما عيسى (عليه السلام) فقد جاء في وعظه تركيز على العفو وأن لا يقاوم المرء الشر بالشر. لكن الذين يدَّعون أنهم أتباع المسيح هم أشد أهل الأرض مقاومة بالشر بل إنهم يبدأون الأمم بالشر. إلا من رحم ربك.. من أمثال العلماء والمؤرخين ـ بعضهم ـ الذين نددوا بأعمال الفاتحين النصارى حين اكتشفوا أمريكا وكيف كانوا أكثر همجية من شعوبها البدائية.. وتحدثوا عن سرقة السود من أفريقيا وبيعهم واستعبادهم من قبل أتباع عيسى..

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لأن الموضوع هنا يتعلق بحقوق الناس فمن ترك هذا الحكم نصر الظالم وخذل العدل..

٢ـ أصحاب الإنجيل:

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ ويوصف الإنجيل أيضاً بأن فيه هدى ونوراً. ويؤكد مرة ثانية على تصديقه للتوراة:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾. وفي الإنجيل يقول عيسى (عليه السلام): (لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل)[1].

فالنص واضح في أن كل نبي يأتي مصدقاً لما قبله ومكملاً له.. وأن الناموس سيكتمل حتى يأتي الكل..

نعود إلى هذا التأكيد الوارد في الآية ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.. كأن فيه استهجاناً لموقف اليهود من عيسى وهو الذي جاء ليرسخ العمل بالتوراة..

---

(١) انجيل متى الاصحاح الخامس.

كيف آذوه وكذبوه وسعوا إلى قتله.. ويمكن أن نلاحظ أن «مصدقاً» الأولى تعود على عيسى.. وأما الثانية فإنها تعود على الإنجيل.. وبهذا يؤكد أن عيسى والإنجيل يصدقان التوراة.

﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهكذا تؤكد الآية على أن الإنجيل فيه هدى. وفي الحقيقة إن الإنجيل لم يأت بشرائع جديدة وإنما جاءت فيه مواعظ وضرب أمثال لإيقاظ النفوس وإعادة ربطها بالله. وكأن الآية تشير إلى أنه رغم التبديل والتحريف الذي حصل في التوراة والإنجيل.. فإن الإنجيل يبقى فيه من الهدى والموعظة أكثر مما في التوراة.. وأهله أقرب إلى المسلمين من اليهود. تأمل في هذه العبارات التي جاءت في موعظة الجبل: (أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات. فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الأبرار والظالمين. لأنه إن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجر لكم ؟! أليس العشارون أيضاً يفعلون ذلك ؟! وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل تصنعون ؟! أليس العشارون أيضاً يفعلون هكذا ؟!..)[1]

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ للقارىء أن يتأمل كيف أن الآيات حددت ثلاثة أوصاف لمن لم يحكم بما أنزل الله: كافرون ـ ظالمون ـ فاسقون فمن لم يحكم شرع الله إما أن يكون كافراً أو ظالماً أو فاسقاً..

وصاحب تفسير المنار تأمل هذه الآيات واجتهد في فهمها بما أختصره على النحو التالي:

فأما الآية التي قالت ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ فإن ما سبقها يتعلق بالأنبياء وما نزل عليهم أي أن الموضوع متعلق بصميم العقيدة.. فالذي يخرج عما أنزل الله في هذا الجانب يكون قد كفر.

وأما التي قالت: ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ فإن ما قبلها يتحدث عن القصاص

---

(١) انجيل متى الإصحاح الخامس.

﴿أن النفس بالنفس﴾ فالآية تتعلق بإقامة العدل بين الناس. فمن لم يحكم بذلك يكون ظالماً.

وأما التي قالت ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ فإن ما قبلها يتحدث عن الهداية والموعظة. ومن ترك ذلك يكون فاسقاً..

هذا وإن كل كافر وكل ظالم يكون فاسقاً ـ أي خارجاً عن أمر الله ـ وليس العكس صحيحاً.

وحين يقول ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] فلا يشترط أن يكون الظلم هنا بحق العباد.. وإنما الكفر ظلم للنفس وحرمان لها من الهدى.

٣ـ أصحاب القرآن:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ونلاحظ أنه قال عن القرآن (الكتاب) بينما ذكر اسم كتاب اليهود (التوراة) وكتاب النصارى (الإنجيل) هل في ذلك إشارة إلى أنه هو الكتاب الأصلي الشامل لما قبله.. ؟!

والتأكيد ﴿بالحق﴾ وهي كلمة شبيهة بكلمة (العلم). وعكس الحق: الباطل. وعكس العلم: الجهل والظن.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يضيف صفة لم توصف بها الكتب السابقة: مهيمناً عليه: وقد ذكر في معنى الكلمة عدة آراء يمكن جمعها في عبارة واحدة:

المهيمن: من يقوم على الشيء ويشهد عليه ويكون له حق مراقبته والنسخ منه.

﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ فاحذروا من منزلق التساهل.. ولو كان الدافع إليه هو الرغبة في توحيد الأمة.. لأن التساهل حين يصبح اتباعاً للهوى سيدمر الأمة.. ولعمري إن الأمر دقيق ويحتاج

---

(١) البقرة: ٢٥٤.

إلى علم وفقه.. فاليسر مقصد من مقاصد ديننا.. والرسول ﷺ ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.. ولكن دراسة عواقب الأمور هي التي تكشف عن حكم من الأحكام.. هل هو من اليسر.. أم أنه اتباع للهوى.. ؟!

ولا تغرنك النظرة السريعة العاجلة إلى الأمور.. انظر مثلاً لو أن عمر رضي الله عنه تساهل في الحكم على جَبَلة بن الأيهم بالقصاص.. وحكم من عنده بالأرش (التعويض المالي).. لما ارتد جَبَلة عن الاسلام.. صحيح أننا كنا ربحنا فرداً واحداً.. ولكن الأمة كلها كانت تخسر قيمة العدل وحرمة الإنسان والقانون.. ولخسرت الحضارة الإسلامية تميزها الأخلاقي وقدرتها على إنصاف الشعوب المهضومة والناس المقهورين.

وفي كل مجتمع أناس يغضبهم تمسك أصحاب الحق بالحق.. وذلك لأنهم أتباع هوى.. انظروا إلى الدول الغربية الآن كيف تتساهل مع أتباع الهوى والشهوات.. فهي لا تهتم بمكافحة الانحراف الجنسي رغم أنه سبب جوهري في انتشار وباء الايدز.. وحدثني أحدهم وقد زار ألمانيا كيف أنه رأى حياً خاصاً لمدمني المخدرات يمارسون فيه تعاطي المخدرات علناً.. ورجال الأمن لا يتدخلون.. لأن ذلك من الحرية الشخصية إن هذا التساهل مع أتباع الشهوات لا بد أن يؤتي ثمارَهُ النكدة.. وعندها يتبين أن الذين اختاروا الأيسر ـ بظنهم ـ إنما اختاروا الأصعب على المدى الطويل..

وكلمة الهوى مدانة في القرآن.. وتوضع في مكان معاكس للعلم والحق والهدى.. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[1].. فما هو الهوى.. ؟

الهوى: ما تميل إليه النفس بسبب العادة والتكرار أو تلبية لرغبات وميول في النفس.. فالعادات والتقاليد من الأهواء.. وحب الأهل والرغبة في محاباتهم من الهوى.. والغرور والكبرياء من الهوى ولهذا يرفض أتباع الهوى سماع النقد والنصح..

ولكن يمكن تصعيد الهوى حتى يتفق مع الخير (ما هو خير وأبقى) وهي ميزة

---

(١) النجم: ٢٣.

الإنسان الذي آمن بهدف أسمى يعيش من أجله ـ تحقيق الخير لنفسه وللآخرين ـ واهتم بتحصيل العلم ليكشف ما هو خير وأبقى لأكبر عدد ممكن من الناس. . وهو ما وصفه الرسول ﷺ «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» أي حتى تصبح ميوله النفسية متطابقة مع الشرع. . والشرع مقصده تحقيق ما هو خير وأبقى للأكثرية. . وهذا النوع من البشر يتمتع بتوازن نفسي كبير ـ وهو ما أطلق عليه القرآن ﴿النفس المطمئنة﴾ ـ لأنه لا يعاني من الصراع بين رغباته النفسية (الهوى) ومثله الأعلى (الذي يلبي الحاجة الإنسانية للتميز عن الحيوان) بل إن الهوى تطابق مع المثل الأعلى. . إلى درجة أنه يشعر بالسعادة إن مات في سبيل مثله الأعلى. . وإخضاع الهوى للحق ليس سهلاً. . ولكن زيادة العلم تذلل العقبات وتمنح النفس السكينة. وأما المؤمن البسيط الذي لم يتح له الارتقاء العلمي. . فإن إيمانه يعوض بعض النقص ويمنحه الرضى.

﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ إن العقيدة التي جاءت بها الأديان السماوية واحدة. ولكن الشرائع مختلفة. . والشرعة هي الطريقة والسبيل. . وكذلك المنهاج. . ومن الطبيعي أن تختلف الشرائع في بعض جوانبها لأن كل شريعة نزلت لأناس معينين في زمن معين. . وجاء الإسلام في الختام فثبت أشياء وحذف أشياء فات أوانها. . ووضع قواعد وأسس مرنة تستوعب اجتهادات جديدة لأحوال جديدة إلى يوم القيامة. . ورغم أن التفكير العلمي يقتضي اتباع المنهج الأخير لأنه أحدث وأصلح. . ولكن الإسلام لا يجبر أحداً على هذا الاتباع وإنما يعرض ما عنده من خير ويمنع الفتنة والإكراه في الدين. . والناس أحرار في اختيار الدين الذي يشاؤون. . وكأن الآيات تتناول نفوس المسلمين بالعلاج فتوسع صدورهم وتهدىء بالهم:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ بفرض دين واحد على الجميع وسلبهم حرية الاختيار. . لكن الله لا يريد هذا. .

﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ إذ أنه لا معنى للفوز بالجنة بدون امتحان وابتلاء. . ولا معنى للابتلاء بدون قدرة على الاختيار. . فلا يحزنكم اختلاف

الأمم والشرائع.. ولا تستعجلوا الأمور فإن الوحدة العالمية تتحقق بشكل أفضل إن بقيت للإنسان حرية الاختيار.. لأن كل مكره يتربص الفرص للانفلات.. وكل مكره متذمر عاجز عن العطاء..

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فقد أعطاكم: ١ـ الإرادة الحرة. ٢ـ القدرة الفكرية والمادية. ٣ـ الشريعة. وهو يمتحنكم فيما أعطاكم.. كيف ستتصرفون في هذه العطايا ؟!

﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ فهو الهدف الذي يمكن أن تشترك فيه كل الأمم.. فإذا سبقت إحدى الأمم إلى الخير أثبتت أن إيمانها ومنهاجها أفضل.. فتصبح قدوة لغيرها.. وهذا الذي يمكن أن يؤدي إلى الوحدة العالمية.

﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ تذكروا هذه العودة إلى الله.. فإن هذا يساعدكم على الحماس والاستمرار في التسابق إلى الخيرات.. واترك الحكم على الناس إلى الله.. فإنه سيجمع الأمم كلها في الآخرة ويحكم بينها بعلمه وحكمته.. إن القرآن والسنة يربيان المسلم على سعة الصدر وأن يتقبل الخلاف بينه وبين الناس بهدوء واحترام.. فلكل إنسان حقه في التفكير والاختيار.. والحكم والجزاء على الله.. فإذا وعد الله المجتهد المخطىء بالأجر.. فكيف نستخف بجهود الآخرين.. ؟!

وإن مراقبة عواقب الأمور هي التي ستسدد خطى البشرية.. فأد واجبك أيها المسلم واجتهد في تحصيل ما هو خير وأبقى والالتزام به ولا تنزعج ولا تستعجل.. فإن الزبد سيذهب جفاء ويبقى الأنفع والأصلح كما وعد الله.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]. فبدلاً من نقد الآخرين انشغل بالتسابق للخير.

﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ نلاحظ التكرار للتأكيد.. إنك لا ترغمهم على شيء لقد جاؤوا إليك بمحض اختيارهم لتحكم بينهم.. فلا

---

(١) الرعد: ١٧.

تجارِ أهواءهم واحكم بينهم بما أنزل الله . .

﴿ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ سبب النزول : أخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل : عن ابن عباس في الآية : أن ثلاثة من اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه . فأتوا إليه فقالوا : يا محمد إنك قد عرفت أنا أشراف اليهود وسادتهم وإنا إن اتبعناك تبعتك اليهود ولم يخالفونا . وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنتحاكم إليك فإن تحاكمنا إليك تقضي لنا عليهم ونؤمن لك ونصدقك . فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل عرضهم وعرف أنهم يريدون فتنته . . ونزلت الآية .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴾ . . لا تحزن فإن اعراضهم عن الحق سترجع عواقبه عليهم . . وإن كل إنسان يجني عاقبة ذنوبه وخروجه عن أمر الله .

إن الخبثاء لن يتوقفوا عن سعيهم لزحلقة أصحاب الحق عن بعض ما أنزل الله . . فكونوا على حذر لأن الانزلاق سيستمر فمن أفلت منه بعض الحق . . فإنه يوشك تدريجياً أن يفقد الباقي . . إلا إذا انتبه واستدرك . . ولو كان عندهم بعض العلم واليقين بالله لما فضلوا على حكم الله حكم أحد سواه :

﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ . . هذه الآية تحتاج إلى دراسات وأبحاث تقدم لتشهد بصدقها . . فإن آيات الآفاق والأنفس تنكشف باستمرار للدارسين والباحثين . . وهي التي تستطيع الآن أن تقدم شهادة صدق لهذا الدين .

٦ـ تحذير المؤمنين من مولاة أهل الكتاب (٥١ـ٨٦)

١ـ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة انقسم اليهود إلى ثلاثة أقسام في التعامل معه: قسم صالحه وقسم حاربه وقسم لم يصالحه ولم يحاربه وإنما كانوا ينتظرون النتائج ـ وهؤلاء منافقو أهل الكتاب ـ وكان بين الأنصار واليهود أحلاف قبل الإسلام.. فيذكر في نزول الآية أنه لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي بن سلول وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم وقال: يارسول الله، أبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم وأتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف الكفار وولايتهم. ففيه ـ أي عبادة ـ وفي عبد الله بن أبي بن سلول نزلت الآيات في المائدة[1].

والموالاة هي المناصرة والثقة.. وهي العلاقة التي لا تكون إلا بين أصحاب المبدأ الواحد. وهي شيء غير العدل والمودة والإحسان. بدليل أن الإسلام أباح الزواج من الكتابية والزواج مودة ورحمة. وقال في آية أخرى موضحاً ﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2]. فما هي عاقبة من يوالي ويناصر من يحارب المسلمين ظلماً.. ؟

﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ ﴾ وهو حكم خطير تُضيف إليه الآية وصف الظلم.. والحرمان من الهداية

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فمن ناصر ظالماً أصبح مثله.. وحرم من

---

(١) ذكره محمد بن اسحاق.

(٢) الممتحنة: ٩.

هداية ربه. ومن أضل ممن تولى أعداءه فظلم نفسه وإخوانه وخان عقيدته. وإن عقاب الله وحرمانه يأتي ثمرة لمن حرم نفسه من الخير.

٢ـ ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ﴾. . ومرض القلب هو عدم الاطمئنان إلى الحق. وهو النفاق وإن نقطة من الشك تغير بحراً من الثقة. . والمنافقون عندهم شك في انتصار الحق ولهذا يسارعون ويستبقون الأحداث ويحاولون أن يهيئوا لأنفسهم مكاناً في كل طرف. ويبررون موقفهم بقولهم إنهم يخشون دورة الدوائر. . فربما ظفر الكافرون بالمسلمين وعند ذلك تكون للمنافقين أيادٍ عند أهل الكتاب تنفعهم. . ويمثل هذا الموقف قول عبد الله بن أُبي بن سلول لرسول الله ﷺ عندما تشفع في بني قينقاع: (أحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ؟! إني امرؤ أخشى الدوائر. .) فالمسألة بالنسبة للمنافق ليست نصرة حق. . بل ولا نخوة جاهلية لأناس يحبهم. .

وإنما هي الرغبة في حماية نفسه ومصالحة العاجلة.

﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ يقول المفسرون إن عسى تدل على الرجاء ولكنها في القرآن تفيد التحقيق. . فهو وعد من الله بالفتح للمسلمين.

﴿أو أمر من عنده﴾ يحصل فيه التمكين للمؤمنين وينكشف فيه نفاق هؤلاء وعمالتهم للأعداء. . وعندها يندم المنافقون على تآمرهم. . فهل يكون ندمهم هذا ندم التوبة. . ؟ أم لأن حساباتهم كانت خاطئة ؟ فالندم إن كان لوماً للنفس على الخطأ ورجوعاً إلى الصواب فهو التوبة التي تمحو ما قبلها. . وإلا فلا فائدة. .

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ ﴾ إن مصير العملاء هو أوخم مصير. . لأنهم حين ينكشف أمرهم يتخلى عنهم الجميع. . وعندها يخسرون كل شيء. .

﴿ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴾ وحبطت الناقة أكلت نباتاً ساماً فانتفخت

فظن صاحبها أنها سمنت.. ثم هلكت.. وهكذا هؤلاء كانوا يظنون أنهم قد ضمنوا الربح لأنفسهم بأن تكون لهم مكانة عند الطرفين.. ولكنهم انكشفوا فخسروا المكانة عند الطرفين لأن الكل يعلم أن المنافق لا يعتمد عليه ولا على ولائه في الأزمات.. وهكذا خسروا الدنيا والآخرة.

ولا بد أن نشير إلى أن الآيات نهت عن موالاة اليهود والنصارى.. مع أنه في ذلك العصر لم تكن هناك موالاة مع النصارى.. وذلك لأن الآيات تحدد علاقة عامة يجب الانتباه إليها في كل زمان. ففي عالمنا الذي نعيش فيه تقدمت العلاقات الدولية شوطاً كبيراً.. وفي منظمة الأمم المتحدة تعرض المشاكل العالمية والنزاعات ويجري التصويت على القرارات الدولية.. والعالم الإسلامي مطالب أمام الله بأن يصوت مع الحق والخير والسلام.. لا أن يعطي صوته بناء على ولاء لإحدى الدول المتقدمة رغبة في تحقيق مساعدات ومصالح عاجلة.. ويجب إيقاف هذه المواقف الهزيلة التي حفل بها الماضي القريب.. من مثل دخول تركيا المسلمة غمار الحرب العالمية الأولى والثانية ولاء لإحدى الدول الغربية.. وما حدث من سكوت بعض الدول الإسلامية عن أخطاء الاتحادالسوفياتي واعتداءاته في أفغانستان وبعض دول أوربا الشرقية...

٣ـ من يرتد يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ كأن الآيات تتابع في بيان خطورة موالاة أهل الكتاب.. إن الوقوع في هذا الأمر يعتبر ردة عن الدين فاحذروا.. وإن من يرتد عن الإسلام فلن يضر الإسلام والمسلمين بشيء.. لأن الله يسخر لدينه في كل عصر من يخدمه بإخلاص.. وأما المرتدون فلا يضرون إلا أنفسهم.. ومشكلة الردة التي حصلت في زمن أبي بكر لم تزد الإسلام والمسلمين إلا قوة وثباتاً.. ودارت الدائرة على المرتدين.. وحتى جبلة بن الأيهم الذي ارتد إلى النصرانية وهرب ولجأ إلى الروم.

نقل عنه أنه ندم وبكى وأنشد قائلاً:

تنصرت بعد الحق عاراً للطمة ... ولم يك فيها لو صبرت لها ضرر
فأدركني منها لجاج حمية ... فبعت لها العين الصحيحة بالعور
فياليت أمي لم تلدني وليتني ... صبرت على القول الذي قاله عمر

وينبغي للمسلم أن يحذر فإن من يُفرق بين فريضة وأخرى ـ فيقبل ما يريد ويرفض ما يريد ـ يعتبر مرتداً. . وقد كان قسم من المرتدين في زمن أبي بكر قد رفض الزكاة. وليس الإسلام أن تأخذ ما يعجبك من الدين وتترك مالا تريد. . صحيح أنه لا يحق لأحد أن يرغمك على الدخول في الإسلام. . ولكنك إن اخترت الإسلام وأعلنت انتسابك إليه ـ كما يفعل المسلمون الآن ـ فإنك مطالب بأداء فرائض. فإن كان المسلم جاهلاً بأحكام الإسلام والحكمة منها. . فعليه أن يتعلم ويجتهد في العلم والعمل وإلا فإنه معرض لخطر الوقوع في الردة.

والمرتدون لا وزن لهم ولا خطر في بقاء الإسلام. . فإن الله سيأتي بمن ينصر هذا الدين من أوليائه. . ﴿فسوف يأتي الله بقوم﴾ يصفهم الله تعالى هنا بأوصاف:

١ـ ﴿يحبهم ويحبونه﴾ والحب يأتي متبادلاً. . وإن كان حب الله ليس كحب البشر ﴿ليس كمثله شيء﴾ والطريق مفتوح للوصول إلى حب الله. ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1] فاتباع الرسول ﷺ هو الطريق للحصول على حب الله. وأما حب المؤمنين لله. . فهو أحب إليهم من أهلهم وأموالهم بل وأنفسهم. ولهذا يبذلون أنفسهم في سبيله. ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[2] . . ولا يكتمل إيمان المرء حتى يكون حبه لله أقوى من أي حب آخر. ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[3] . . ويمتحن هذا الحب بتعارض

---

(١) آل عمران: ٣١.
(٢) البقرة: ١٦٥.
(٣) التوبة: ٢٤

أمر الله مع رغبة أحد هؤلاء الذين ذكرتهم الآية أو تعرض الأموال والمساكن للخسارة من جراء القيام بالدعوة والجهاد.. وعندها تنكشف الحقيقة ويبطل الإدعاء.

وللإنسان مع ربه مراتب.. وقد يرتقي الإيمان عبر مراحل ـ ذكرها الغزالي ـ الأولى: الصبر.. فهو يكره نفسه على بعض أوامر الله.. والثانية: مرحلة الرضا: فلا يشعر بمعاناة عند تطبيق أمر الله. والثالثة: الحب وعندها يجد راحته وسعادته في تطبيق أمر الله ولو كان في ذلك مشقة.. وصور جلال الدين الرومي ذلك بقوله:

لطفه والقهر عندي مطرب ... أعشق الضدين هذا عجب
عجباً لبلبل قد جشعا ... يأكل البستان والشوك معا

وحب الله أمر لا يوصف وإنما يحتاج إلى تذوق وعندها يمكن فهمه. وفهم معنى حلاوة الإيمان.. «ثلاث من كنَّ فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[1].

والمؤمن يستطيع أن يستزيد من هذا الغذاء النفسي الممتع.. كما ورد في الحديث القدسي: «ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها. وإن سألني أعطيته ولئن استعاذني لأعيذنه»[2]. كما ورد في الصحيحين «المرء مع من أحب».

٢ـ ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمن هين لين سمح ودود في معاشرة إخوانه.. ورباط الأخوة في الله ضروري ومهم لتماسك الأمة.. وهو يحتاج إلى سماحة في التعامل وقدرة على تجاوز الأخطاء والعفو عنها.. لأن البشر من طبيعتهم الخطأ.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

وتبالغ الآية في وصف هذه السماحة إلى حد أنها (ذُلٌّ). . فلا كرامة بين الإخوان. . وحتى رسول الله ﷺ - الذي يشغل مركز القيادة والقدوة - يوجه في آية أخرى ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1] . وهذا قريب مما أمر به المؤمن مع والديه.

٣- ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ مثل قوله في وصف أصحاب محمد ﷺ ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾[2] .

٤- ﴿ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ فيبذلون أموالهم وأنفسهم في طريق الحق والخير.

٥- ﴿ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٍۚ ﴾ مطمئنون إلى الدين الذي يتمسكون به وأنه الحق والخير للبشر. . فلا يخافون أن يُلاموا. . ولو لامَهُم الناس فإن هذا لا يثنيهم عن جهادهم لأنهم على يقين من أمرهم.

يقول ﷺ «ألا لا يمنعنَّ أحدَكم رهبةُ الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم»[3] . وقد يحدث أن يشعر الإنسان في موقف ما بأنه أقل من أن يؤثر اعتراضه. . فيهمل أداء دور إيجابي في ذلك. . ولكنه بذلك قد ساهم في نصرة الباطل ولم ينقص الإجماع عليه. وفي ذلك مسؤولية أمام الله. «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال فلا يقول فيه. . فيقال له يوم القيامة ما منعك أن تكون قلت في كذا وكذا. . ؟ فيقول: مخافة الناس. فيقول: إياي أحق أن تخاف»[4] .

ومن يقوم بدور الشهادة والتبليغ طلباً لرضى الله لا يؤثر فيه مدح الناس ولا لومهم فيدفعونه إلى الكف. . ولا بد من مراعاة وضع الأمور في مواضعها. ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾[5] ولا

---

(١) الشعراء: ٢١٥.
(٢) الفتح: ٢٩.
(٣) رواه الإمام أحمد.
(٤) رواه الإمام أحمد.
(٥) النحل: ١٢٥.

ننسى ما قاله ابن تيمية من أن إنكارك للمنكر إذا أدى إلى منكر أكبر فليس لك أن تنكر.. ولا بد من التفكير في كل أمر وتدبر العواقب ووزن ما ينتج من مصالح ومفاسد.. تلك هي الحكمة.. ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.[1]

وأتذكر في هذا المجال حديث أبي هريرة عندما أعطاه رسول الله ﷺ نعليه وقال له: «اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة» فكان أول من لقيه عمر رضي الله عنه فأخبره بالخبر.. فضرب عمر بيده بين ثديي.. فقال: ارجع يا أبا هريرة. فرجعت إلى رسول الله ﷺ.. ولحق به عمر.. فقال ﷺ «يا عمر ما حملك على ما صنعتَ ؟» قال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي أبعثت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه بشره بالجنة ؟ قال ﷺ: «نعم» قال: فلا تفعل فإني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملون. فقال ﷺ «فخلهم»[2].

ألا تعجب أيها القارىء معي من جرأة عمر في الاجتهاد حتى مع أمر رسول الله!! ومن إقرار رسول الله ﷺ وقبوله لجرأة عمر واجتهاده وعدوله عن رأيه.. ؟! إنها التربية النبوية الفذة أنشأت عقولاً تتحرك وتتدبر ولا تتجمد أمام النصوص.. بل إنها تعيش المصالح والمفاسد وتتصرف بما تمليه المصالح لأنها تدرك أن النصوص جاءت من أجل مصالح البشر. حقاً إن هؤلاء كانوا هم عباد الرحمن الذين وصفهم بأنهم ﴿إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[3]. بل أعملوا عقولهم لكشف كيف تستخدم آيات الله ؟ وأين توضع ؟.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ فمن اتصف بهذه الصفات فعليه أن يحمد الله ويرد الأمر إلى فضله لأنه سبحانه هو الذي أعطاه القدرة والامكانيات للوصول إلى هذا المرتقى.. وإن عطاء الله لا ينقطع ولا ينتهي ولكن الناس هم الذين

---

(١) البقرة: ٢٦٩.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الفرقان: ٧٣.

يعرضون عن عطائه.. ولا ينتفعون من هباته.. أما المنتفعون فينالون التوفيق والعون.. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يزيد في العطاء لمن يستحق.. وهو العليم بمن يستحق..

٤ـ وليكم الله ورسوله والذين آمنوا:

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ بعد أن نهى عن موالاة اليهود والنصارى يبين من تجب موالاتهم.

وكلمة (وليكم) تأتي بصيغة المفرد مع أن ما بعدها عدد كثير.. فلمَ لَمْ تأت بصيغة الجمع ؟! إن في ذلك إشارة هامة وهي أن الله وحده هو الولي ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ أما الرسول والمؤمنون فهم أولياء لكم بالتبعية.. وولايتهم نابعة من ولاية الله. ويحدد صفات ﴿الذين آمنوا﴾ حتى لا يختلط الأمر. ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ فيؤدونها على أحسن وجه من حيث الحركات والتلاوة والأذكار والخشوع.. وليس كل من صلى يوصف بأنه يقيم الصلاة.. لأن إقامة الصلاة تؤدي دوراً كبيراً فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر.. إنها انسلاخ من الدنيا وأعمالها.. وشتان بين من ينسلخ وقلبه مشغول بالدنيا.. وبين من ينسلخ عن الدنيا بجسمه ونفسه. وحفظ النفس من الشرود في الصلاة عملية تحتاج إلى مجاهدة يومية.

فلنتذكر أننا بين يدي الله تعالى نناجيه.. ولنفكر في معاني ما نقرأ من آيات وأذكار.

سألتني إحداهن: أصحيح أن من تصلي ولا تلتزم بالحجاب فصلاتها غير مقبولة.. ؟

تألمت من هذا السؤال وهذا الموقف.. فلقد أصبح المسلمون يفرقون في التطبيق بين أوامر الله.. فيأخذون ويتركون.. وهذا ذنب كبير لا شك فيه.. ولكن علاج الأمر باعطاء فتوى بأن الصلاة غير مقبولة.. أمر عجيب.. إن القبول وعدمه من عمل الله.. وليس للبشر أن يطلقوا أحكاماً فيه.. ثم إن

قولهم: صلاته غير مقبولة.. قد يقطع البقية الباقية من الخير في هذا الإنسان.. فيترك الصلاة أيضاً.. أليس من الأفضل أن يؤخذ بالموعظة الحسنة ويمدح على مثابرته على صلاته.. وأن هذا سيعينه على التكامل وتزكية النفس أكثر.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ التي تطهر القلب من الشح.. والأمة من الفقر والحقد والحسد.

وكم من الأهداف العظمى تحققها العبادات المفروضة في الفرد والمجتمع؟ وكثيراً ما تتحقق دون شعور منا. ﴿وهم راكعون﴾ أي خاضعون معظمون لله مستسلمون لأمره.

٥ـ حزب الله هم الغالبون:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ والآية تذكر نتيجة حتمية لأسباب يحققها المؤمنون بكسبهم وجهدهم.. وعندها تأتي النتيجة ثمرة من الله. وإن الذين يحرصون على زيادة الإخلاص لله والصواب في أعمالهم.. أولئك هم حزب الله وسينتصرون ولو بعد حين.. ولا بد من الصبر حتى يتوفر العدد الكافي ويمضي الزمن الكافي لنضج الثمار.. ألم يقل رسول الله ﷺ لخباب «قد كان مَنْ قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده عن دينه. والله ليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[1].

وإن كثيراً من المتحمسين للدين يستعجلون ويريدون أن يقفزوا فوق القوانين.. ولكن هذا لا يثمر إلا مزيداً من الحطام.

٦ـ النهي عن اتخاذ المستهزئين أولياء:

جاء النداء الأول وفيه نهي مباشر عن الولاية مع أهل الكتاب وتخويف من

---

(١) رواه البخاري.

العواقب.

ثم جاء النداء الثاني وفيه تحذير من الردة بموالاة أعداء الله.

والآن يأتي النداء الثالث ليثير في نفوسهم الحمية لدينهم ولصلاتهم من الذين يسخرون منهم.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ﴾ والآية تسوي بين المستهزئين من أهل الكتاب والكفار. بينما القرآن في مواضع أخرى يعطي ميزة لأهل الكتاب على الكفار.. وقد مر معنا في هذه السورة إباحة الزواج من الكتابية والأكل من طعامهم.. ولا يكون ذلك مع المشركين.. مما يوحي بأن صنفاً معيناً من أهل الكتاب تجب الشدة معهم.. وهم الذين يستهزئون بدينكم شأنهم في ذلك شأن الكفار.

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن المؤمن هو الذي يحذر وينتبه حتى لا يقع في الحرام..

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ أي إذا سمعوا الأذان يضحكون منه.. وقد ذكر السدي أن رجلاً من النصارى في المدينة كان إذا سمع المنادي يقول: أشهد أن محمداً رسول الله.. قال: حَرَّق الكذاب.. فاحترق هو وبيته بشرارة سقطت من خادم.

ولا بد من اختيار المؤذنين من أصحاب الأصوات الندية.. فكثيرون دخلوا في الإسلام تأثراً بحلاوة الأذان.. وبعض المؤذنين يروعون الناس بأصواتهم المنكرة.. ويدفعون الناس إلى الاستهزاء منهم..

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ والعقل لغة الربط.. وهؤلاء يستهزئون بالصلاة ولا يدركون قيمتها لأنهم لا يعقلون.. أي لا يربطون الأسباب بنتائجها.. وكثير من الباحثين القدماء والمحدثين نظروا إلى العبادات في الإسلام على أنها أمر لا دخل للعقل فيه.. بينما القرآن هنا يذكر بوضوح سبب استخفاف هؤلاء بالصلاة.. أنهم لا يعقلون.. ولهذا يقول المفكر جودت سعيد إن مهمة العقل

هي أن يربط السبب بنتيجته.. وليست مهمته أن يعطي الإجابة عن لماذا يؤدي هذا السبب إلى هذه النتيجة بالذات.. وذلك في العلوم كلها.. والأمر على ذلك في الأوامر الشرعية والعبادات.. فإن تأمل أحوال المسلمين وربط الأسباب بالنتائج يجعلنا نرى كيف أن العبادات استطاعت أن تحافظ على وحدة العالم الإسلامي رغم انحطاطه وفساد أموره.. إنها ما زالت تحفظ عليه بقاءه.. وتعطيه الإمكانية لأن يبعث من جديد من رقاده.

ولو نظروا بعقولهم إلى آثار الصلاة لما استهزؤا.. إذ أن النتائج يمكن قياسها في الفرد والمجتمع.

إن في الآية لفتة هامة إلى ضرورة إعمال الفكر.. فإن بقاء أجهزة المعرفة معطلة عند الإنسان تجعله يتردى إلى مستوى أحط من الحيوان.. ومن المؤسف أن الإنسان كثيراً ما يترك مهمة التعقل لغيره ويكتفي هو بالاتباع.. كما قال عمرو بن العاص لما سئل: لم تأخرت في دخول الإسلام؟ فقال: كنا نفكر بعقول سادتنا ـ أبي جهل وسواه ـ فلما ماتوا اضطررنا أن نفكر بعقولنا.. فعرفنا الحق.

٧ـ ما تنقمون منا: والخطاب الآن لرسول الله ﷺ:

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾.. وميزة المسلم الكبرى أنه عالمي لا يفرق بين الرسل. وكل من يدخل الإسلام لا يفقد حبه وولاءه لنبيه في دينه السابق.

والنقمة هي كراهية تصل إلى السخط.. فما هو السبب وراء كل هذه الكراهية.. ؟!

إنها الغيرة والحسد.. فهم فاسقون متخاذلون عن الاستقامة والطاعة.. وإن المنحرف لا يطيق أن يرى المستقيمين لأنهم يفضحون ضعفه وهوانه.. ونلاحظ دقة القرآن وعدله حين لا يعمم ﴿أكثركم فاسقون﴾.

٨ـ التذكير بلمحات من تاريخهم:

لا تستغربوا ـ أيها المؤمنون ـ من مواقفهم ففي تاريخهم مواقف أفظع.. ويوجه البني لتذكيرهم ببعضها:

﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ أخبركم بمن هم شر عقاباً عند الله من هؤلاء؟ وكلمة مثوبة تستعمل للخير.. فإن استعملت في موضع العقاب فإن ذلك من باب التهكم والسخرية بهم.. ويعدد أنواعاً من العذاب نزلت بآبائهم عقاباً لهم:

١ـ ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ٢ـ ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾ بمسخ مادي أو معنوي.. ٣ـ ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ والطاغوت: اسم لكل من جاوز حده وقدره.. ويمكن أن تطلق على الشيطان وعلى الطغاة من الحكام.. وعلى الكهنة الذين يتلاعبون بالناس.. وقد عبد اليهود عجل السامري.. وكلمة (عبد) قد تعني: عبدة ـ وعباد.. وقد تكون فعلاً.. وبهذا تجمع الآية بين عمل الإنسان الذي هو سبب العقاب.. والنتيجة التي هي الاستعباد للطواغيت.. وكل عمل يكون نتيجة لما قبله وسبباً لما بعده.. فتخاذلهم في تطبيق أمر الله أوصلهم إلى غضب الله حتى ضلوا فعبدوا الطاغوت.. وسينتج عن ذلك عقاب أليم..

﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ سواء السبيل: وسط الطريق.

هذا هو مكانهم الفكري (الضلال) ومكانهم بين الناس (شر مكاناً). والآيات تتحدث عن عقوبات دنيوية يلمسونها ويرونها في حياتهم كنتائج مباشرة لأعمالهم.. وذلك لأنهم يعطون الأولوية للدنيا.

٩ـ ينافقون لكم:

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ إنهم يتظاهرون بالإيمان ويدخلون على النبي وهم على الكفر ويخرجون على نفس الحال لم يتغير كفرهم ولم تتأثر قلوبهم مثل كثيرين ممن كانوا إذا دخلوا على رسول الله وسمعوا منه الحق أذعنت له نفوسهم واهتدوا.. إن من كان عنده سوء ظن.. قد يتغير

ظنه عندما يرى الحق.. ولكن سيء القصد لا يتغير موقفه ولو تبين له الحق.. وكثير من اليهود كانوا يعرفون أنّ محمداً هو النبي الذي حدثتهم عنه كتبهم.. ومع ذلك ناصبوه العداء.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ﴾ من حسد ومكر وعداء وتآمر..

١٠ـ يسارعون في الإثم:

﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ﴾ وكعهدنا بالقرآن لا يعمم الأحكام حتى على اليهود الذين عرفوا بكيدهم.. وإنما يتوخى الدقة والعدل في الحكم.. فكثير من هؤلاء ـ وليس كلهم ـ يسارعون في الشر.. ومن المؤلم أننا كثيراً ما نرى فعالية الأشرار مقابل عطالة في الأخيار.. هل هذا ناتج من سهولة الهدم وصعوبة البناء.. ؟ «حجبت الجنة بالمكاره وحجبت النار بالشهوات»[1]. أم أنه ضعف اليقين بالخير.. ؟ إن هذا لجدير بالدراسة[2].

﴿يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وكأن الإثم هو ما يضر فاعله في دينه ودنياه وأما العدوان فهو ما يضر بالآخرين وفيه اعتداء على حقوقهم. وقوله ﴿يسارعون في الإثم﴾ ولم يقل (إلى) للإشعار بأنهم غارقون في الإثم.. ﴿وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وقد عرف اليهود عبر التاريخ بأكل الربا. فهي وصمة لا تفارقهم.

١١ـ مهمة الربانيين والأحبار:

﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ﴾ والعباد والفقهاء.. الصالحون والعلماء يحملون مسؤولية كبرى.. إنهم حراس وأطباء المجتمع يحملون مسؤولية علاجه ورده إلى الخير فإن فرطوا وأهملوا ضاع

---

(١) متفق عليه.

(٢) قدم كتاب الإنسان حين يكون كلاً، لجودت سعيد خطوات في هذا المجال. وآمل أن يظهر من يتابع..

المجتمع.. إن موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كبير في القرآن.. وهو ميزة الأمة القوية الرائدة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1]. بينما قال عن أهل الكتاب بأنهم لعنوا لأنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾[2] وكل فرد في المجتمع مسؤول عن أداء هذا الدور كل بحسب سلطانه ودائرة نفوذه.. وأدنى فرد في المجتمع يملك دائرة معينة يستطيع أن يأمر وينهى ويغير فيها.. بينما يملك العلماء سلطاناً على جماهير، ويحكم الحكام على أمة ومما لاشك فيه أن مسؤولية التلميذ غير مسؤولية الاستاذ وغير مسؤولية المشرف على برامج التربية.. فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

﴿قولهم الإثم﴾ كأن تخصيص القول هنا إشارة إلى خطورة الكلام والخوض في إشاعة المنكرات والافتراء ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ من هم المقصودون هنا ؟ أهم سواد الناس ؟ أم الربانيون والأحبار ؟ لا شك بأن الطرفين مقصودان.. وذنب العلماء أكبر لأنهم مراكز الاشعاع والتغيير..

وهكذا يتكرر التعقيب.. وإن كانت (يصنعون) أكثر خصوصية من (يعملون) المهم بئست النتائج. قال صاحب المنار (وما ترك العلماء النهي عن المنكر.. إلا تكلفاً لإرضاء الناس.. فهو إيثار لرضاهم على رضوان الله وثوابه.. والأقرب أن يكون ـ أي لفظ يصنعون ـ من الصنع لا الصناعة. وهو العمل الذي يقدمه المرء لغيره يرضيه به)[3] فكأن هذا التعقيب خاص بالربانيين والأحبار ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾ وأما التعقيب الأول فهو لعامة الناس الذين يرتكبون المعاصي (يعملون).

١٢ـ عقاب الله لهم جزاء افترائهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وهذا نموذج لقول الإثم الذي يمارسونه.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) المائدة: ٧٩.

(٣) ويقال عن العمل: صنيع.

يقول ابن عباس (ليس يعنون بذلك أن يد الله موثقة. ولكنهم يقولون إنه بخيل أمسك ما عنده)[1]. وقد روي عن بعض اليهود أنهم قالوا: إن الله بخيل لا ينفق.. وهو شبيه بقول المشركين والجاهلين الذي حكاه الله في موضع آخر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾[2]. ويبقى قول اليهود أكثر وقاحة.. وتأتي العقوبة من جنس العمل.. وهي نتيجة لإثمهم ووقاحتهم.. ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أصيبوا بالبخل.. وعرفوا به بين الأمم..

﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ طردوا من رحمة الله.. وليس هذا خاصاً بهم.. بل إنه النتيجة الطبيعية لكل من وقع بهذه الأعمال.. ويرد على افترائهم:

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾.. يعطي بكلتا يديه.. ولا يقبضهما عن أحد.. حتى الذين يجعلون له أنداداً.. يطعمهم ويسقيهم.. وأبسط ما في الوجود: الماء والهواء والتراب.. من رزقه سبحانه.. موفور للجميع.. ومنها تستخلص معظم الأرزاق..

ونحن أمام صفات الله الواردة في القرآن ـ وقد ذكر منها هنا اليد واليدان ـ نؤمن بها دون تمثيل ولا تعطيل أو تأويل.. علماً بأن ابن عباس رضي الله عنه نفسه قد جعل الآية هنا من باب الكناية عن البخل والجود كما هو معروف في بلاغة اللغة العربية.

وفي قوله سبحانه ﴿ينفق كيف يشاء﴾ تنبيه إلى سنن الله في تقسيم الأرزاق للأمم.. فهو ينفق عن حكمة وعلم بمن يستحق.. وعطاء الدنيا يأتي لمن بذل الأسباب وسعى في مناكب الأرض وإن لم يكن من العبّاد الأتقياء.. لأن للرزق سنناً وأسباباً خلقها الله ابتلاء لهذا الإنسان.. ولكي تنمو طاقاته وقدراته..

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾.. وإنه لعجيب أن

---

(١) راجع تفسير الآية في تفسير المنار.

(٢) يس: ٤٧.

يكون القرآن سبباً في الهداية والرحمة للمؤمنين.. بينما هو زيادة في الطغيان والكفر لهؤلاء.. ؟! وهذا بيان واضح لخطورة دور الإنسان وموقفه.. فالحق موجود أمام الجميع.. ولكن الإنسان ـ لخلل فيه ـ لا يقبله.. والخلل في هؤلاء أنهم حسدوا النبي والمؤمنين على ما آتاهم الله.. ونقموا على المؤمنين هدايتهم فزادهم حقدهم مكابرة وعناداً ورفضاً للحق..

ومن دقة القرآن وعدله في الحكم أنه لا يعمم على الجميع بل يقول ﴿كثيراً منهم﴾ وفي ذلك استثناء منصف.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ بعض المفسرين قالوا أن الضمير ﴿بينهم﴾ يرجع إلى اليهود والنصارى.. لأننا نرى اليهود الآن متحدين على باطلهم.. وربما يكون نظرنا هذا ليس دقيقاً.. فنحن لا نعلم ما يجري من خلاف بين اليهود في العالم بل إننا لا نعلم ما يجري بينهم من تناقض داخل الأرض المحتلة..

ومع ذلك فإن الأمر كله يجري وفق سنن.. ويمكن أن ننظر إلى هذه الآية ﴿وألقينا بينهم العداوة﴾ على أنها نتيجة مترتبة عما سبقها من أسباب.. من قولهم الإثم وأكلهم السحت.. والطغيان والكفر.. وكل أمة وقعت في هذه المعاصي.. وصلت إلى نفس النتيجة: العداوة والبغضاء والتقاتل.

﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ وليس القصد بالحرب هو القتال فقط.. بل الحرب الفكرية وإشاعة الفتنة والبلبلة.. وقد حمى الله رسوله ﷺ والمؤمنين من كيدهم.. فقد دبروا لهم وحرضوا المشركين عليهم ولكن الله أطفأ كيدهم.. وهذا شبيه بقوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]. وهذا الوعد مشروط بوجود الأمة المؤمنة القائمة بأمر الله فهي منتصرة بسنن الله والله يخذل أعداءها بفسادهم في الأرض..

﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ والسعي هو التوجه كلياً إلى الأمر وبذل الجهد فيه. فما هي الدوافع التي تدفعهم لهذا السعي ؟! إن من يسعى إلى الفساد يدفعه

---

(١) الصف: ٨.

الحسد والبغض وظنه أن هذا يعود عليه بمصالح وهو في ذلك لا ينظر إلا إلى مصالحه العاجلة. وأما من يسعى إلى الصلاح فهو مدفوع بالحب والرغبة في الخير للناس وهو يرجو في ذلك حسن العاقبة لنفسه.. فهو يتطلع إلى ما هو خير وأبقى. ولهذا يأتي التعقيب:

﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ فقد تنجح خططهم لأول وهلة.. وقد يطغى إفسادهم لفترة.. ولكن لا بقاء لهم في الأرض ـ ولا نجاة لهم في الآخرة ـ لأن الله خلق الحياة واستخلف الإنسان للصلاح والإصلاح.. وجعل من سنن هذه الحياة أن البقاء للأنفع ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1].. ولهذا فإن الحياة الإنسانية تنمو وترتقي.. وقد تخلصت عبر التاريخ من كثير من الفساد وما لا نفع فيه من العقائد ـ كالوثنية ـ والعادت ـ مثل أكل لحوم البشر وتقديم القرابين البشرية و.. ـ وهي تحاول الآن أن تتخلص من القوميات والحروب..

إن خط الحياة الإنسانية يرتقي في الصلاح والإصلاح.. ولو تأمل هؤلاء في العواقب البعيدة المدى لما سلكوا طريق الفساد والإفساد.. ولهذا يتوجه الله إليهم بالنصح والترغيب.

١٣ـ لو آمنوا واتقوا لحصلوا على الآخرة والدنيا:

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ الأولوية للآخرة.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾ تأمل كيف تصف الآية نتائج الإيمان والتقوى.. إنه فيضان في الرزق.. من الأعلى ومن الأسفل.. وفي الآية الثانية فسر الإيمان والتقوى بإقامة أوامر الله التي جاءت في كتبه المنزلة وتحقيقها في الحياة.. ولا عجب فإن الله قد أمر الناس أن يأخذوا بسنن الكون.. فإن الكون مسخر لهم إن عرفوا مفاتيحه

---

(١) الرعد: ١٧.

ـ سننه ـ واستعملوها . . فمن قام بأمر الله . . حقق عبادة الله ونال ثمرات الدنيا . . وأما من سار في التسخير معرضاً عن عبادة ربه فإنه محروم من الآخرة . . ومنغص عليه في الدنيا فلا يستقيم له النعيم. وكيف ينعم من حرم من إدراك سر وجوده ؟! . . وكيف تحلو الحياة لمن حرم من مناجاة ربه . . ؟!

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

والله سبحانه . . لا يطلق حكم الفساد على الجميع . . وإنما يقول:

﴿ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ﴾ وهو المستوى المعتدل المتوسط في الطاعات . . وذلك أنه صنف الأمة المسلمة في موضع آخر إلى ثلاثة أصناف: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾[1] . .

(والمعتدلون لا تخلو منهم أمة. ولكنهم يكثرون في طور صلاح الأمة وارتقائها ويقلون في طور فسادها وانحطاطها)[2] وينبغي لنا أن نستفيد من ذكر القرآن للطائفة المعتدلة من أهل الكتاب . . فنتعلم كيف نعترف بمحاسن عدونا . . فإن العداوة كثيراً ما تعمي البصيرة. و لاتزال التربية القرآنية تأخذ بأيدينا وتخفف من غلوائنا حتى لا نقدس من نحب ونرفعهم عن الخطأ . . ولا نحقر من نكره حتى لا نرى فيهم خيراً . .

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ ونتائج الدنيا تأتي بحسب الأكثرية (جماعية) أما في الآخرة فهي فردية .

١٤ـ بلغ ما أنزل إليك:

﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ هل هذا من الأوامر الخاصة بالرسول ﷺ ؟

يجب أن تكون لنا القدرة على التمييز بين خصوصيات الرسول ﷺ وبين

---

(١) فاطر: ٣٢.

(٢) تفسير الأية في الجزء السادس من تفسير المنار.

الأوامر الموجهة إلى الرسول وتطالب بها أمته أيضاً. . وأتذكر هنا قول محمد إقبال أن أشد ما أثر فيه في صغره قول أبيه له عندما رآه يقرأ القرآن: (يا بني اقرأ القرآن وكأنه يتنزل عليك). . يخاطبك ويتوجه إليك بالتكليف.

ومما يدل على مسؤولية كل مسلم عن التبليغ ما سبق أن وقفنا عنده في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[1].

والآية الثانية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

ومعنى التبليغ: إيصال الموضوع. . وعكسه الكتمان. ويتضمن تبليغ كل الآيات لكل الناس. وأما البيان فيتضمن التبليغ مع التوضيح والشرح. وهو مطلوب من أتباع الأنبياء كلهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ ﴾[3]. تأسياً بالأنبياء والرسل: ﴿فهل على الرسل إلا البلاغ المبين﴾ فلا بد للبلاغ أن يكون مبيناً حتى تقوم الحجة على الناس.

وقد تكلم المفسرون عن هذه الآية فمنهم من قال أنها نزلت في أول الإسلام. . أمراً للنبي بإعلان الدعوة. . فلم وُضعت ضمن هذه السورة ـ التي فيها آيات من أواخر ما نزل ـ ؟! وضمن الحديث عن أهل الكتاب ؟! بعضهم قال: للتأكيد على تبليغ أهل الكتاب. . وقد تكون الآية مدينة. . نزلت وقد تكوَّن مجتمع إسلامي يتحاور مع أهل الكتاب. . ويجاور أمماً أخرى لم تبلغها دعوة الحق بعد. . فهو أمر بالبلاغ العام لأكبر عدد من الناس. . وتأكيد على أهمية البلاغ والاستمرار فيه فإنه ضروري في كل المراحل. . وحتى لا يظن أحد أن

---

(١) البقرة: ١٥٩.

(٢) البقرة: ١٧٤.

(٣) آل عمران: ١٨٧.

المجتمع يصل إلى درجة من القوة والعلم يستغنى فيها عن البلاغ.. فالعلم في ازدياد مستمر ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[1].. وتبليغ العلم ضروري كضرورة الدورة الدموية التي تنقل الهواء والغذاء إلى سائر أنحاء الجسم.

والأمر يأتي بهذا التأكيد والإلحاح ﴿بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ مع أن النبي ﷺ قام بالتبليغ على أحسن وجه.. حتى روي عن عائشة وأنس رضي الله عنهما أنهما قالا: (لو كتم النبي ﷺ من القرآن شيئاً لكتم هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾[2]..) .. ومع أن النبي ﷺ بلغ كل من استطاع أن يراه في زمنه ولم يخص أحداً بزيادة لم يعممها على الجميع.. كما قال علي رضي الله عنه لما سئل: هل خصكم - يقصد أهل البيت - رسول الله ﷺ بشيء من الوحي أو علم الدين؟ قال: (لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة - وفيها العقل وفكاك الأسير -)[3].. فما هو المغزى من هذا التوجيه في هذه الآية؟! إنه التأكيد على أهمية البلاغ في حياة الأمة وإنقاذ العالم.. فيا أتباع الأنبياء لا تفرطوا في هذا الأمر خاصة وأن أساليب البلاغ والبيان قد تطورت وتوسعت حتى أصبح بالإمكان أن يعلم أهل الشرق خلال دقائق - بل ويروا - تفاصيل ما يجري في أهل الغرب.. فلم لا يستغل هذا التطور لتبليغ الحق.. ؟!

وهذا التكليف لا يتوجه إلى العلماء وحدهم. بل لكل مسلم بحسب علمه وقدرته.. ألم يقل رسول الله ﷺ «بلغوا عني ولو آية»[4].. ؟ وفي ذلك حث للمسلم على الشعور بالمسؤولية والاجتهاد في تحصيل الفنية اللازمة للقيام بالتبليغ.. فمن أراد أن يبلغ اضطر أن يرفع نفسه حتى لا يخالف فعله قوله.. واهتم بأن يحيط بالموضوع - الذي يبلغه - علماً.. وحاول أن يبلغ الآخرين بالحسنى مراعياً في ذلك مستوى فهمهم.. وبهذا تظهر ميزة الإسلام الذي يضع

---

(١) طه: ١١٤.

(٢) الأحزاب: ٣٧.

(٣) ثبت في الصحيحين.

(٤) رواه البخاري.

كل فرد على عتبة الارتقاء ويدفعه فيه..

والأمة المسلمة مسؤولة عن تبليغ كل ما أنزل الله في الكتاب.. لكل الناس.. ويمكن أن نقول إن هذا فرض كفاية.. إن لم تقم به النخبة ـ التي خصصت نفسها للدعوة والتبليغ ـ أثمت كل الأمة.. ولن أنسى ما رواه أحد الدعاة المسلمين.. من أنه كان في مجلس مع إخوان مؤمنين في إحدى دول الغرب فدخل عليهم رجل غربي اعتنق الإسلام وحياهم بقوله: السلام على القوم المجرمين.. فاستهجنوا ذلك واحتجوا.. فقال: أنتم مجرمون لم تبلغونا الإسلام.. ولولا تقصيركم في البلاغ لما مات أبواي على الكفر.. من أجل ذلك اعتبرت جريمة كتمان الحق من الجرائم الكبرى. وتوعد الله عليها بأشد العذاب.

﴿ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ وقد تعهد الله بحماية رسوله وعصمه من الناس حتى بلغ رسالة ربه.. وفي ذلك تثبيت للرسول وتطمين له.. وهو أمر خاص بالرسول ﷺ.. وقد يتعرض غيره للهلاك إن اهتم بالتبليغ.. ولكن المؤمن مستيقن بأن الأعمار بيد الله.. ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾[1]. وفي الحديث: « إن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»[2].

وموضوع العصمة والحماية ليس شرطاً أن يتم بمعجزة من الله ـ وإن كان يمكن أن يكون الرسول ﷺ قد عصم بمعجزة من الله ـ وإنما يمكن النظر إلى الموضوع من جانب سنني.. فالبلاغ المبين له شروطه التي إن تحققت.. أعطت للمبلِّغ العصمة والحماية.. وهذا الأمر غامض وملتبس على الناس.. حتى أنهم يظنون أن من يبلغ يجب أن تكون له قوة تحميه وتدعمه.. ولكن الحق والخير يحمل قوته في ذاته.. فمن جهر بالحق وبلغ الآيات بشكل سلمي دون أن يتورط في العنف وأعمال العنف.. ودون أن تكون له تهمة أخرى غير التبليغ.. فإنه يتمتع بحصانة تجعل القضاء عليه عسيراً.. ولهذا رأينا المسلمين في مكة عندما

---

(١) ال عمران: ١٤٥.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

أدوا دور البلاغ المبين بشروطه فإن خسائرهم كانت قليلة جداً. . اقتصرت على سمية وياسر. مع أن الهجوم كان عنيفاً والتعذيب ضارباً. . ولكن السر يكمن في أنهم لم تكن لهم تهمة أخرى غير الإيمان والبلاغ المبين.

لقد حقق البلاغ المبين أحسن ما يمكن من المكاسب بأقل ما يمكن من الخسائر. . وتلك ميزة الفنية في الأعمال. . وهو ما سميناه في مواضع أخرى: الصراط المستقيم. . لأنه يوصل إلى الهدف بأقل وقت وجهد ممكن. . وإن مراقبة ما يجري في العالم من حركات وثورات ودراسة عواقبها. . يجعلنا ندرك ميزة البلاغ المبين بشروطه. . ويمكن أن نذكر كمثال معاصر: عمل أبي الأعلى المودودي الذي التزم بشروط البلاغ المبين وكانت الخسائر في جماعته أقل ما يمكن بالنسبة لجماعات أخرى.

والموضوع الآن ينمو أكثر في عالم ينادي باحترام الحريات ويسعى إلى السلام. . وليس في الدنيا قانون يبيح إسكات من ينادي بفكرة ـ مهما كانت غريبة أو خاطئة ـ فكيف بقتله. . ؟! صحيح أن كثيراً من الدول ما زالت تسجن المعارضين لها. . ولكن هذا أصبح يعتبر وصمة عار للنظام الحاكم ويندد به عالمياً وقد تتدخل المنظمات العالمية للإفراج عنهم.

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ ألا نستطيع أن نقول إن القيام بالبلاغ المبين سيكون مصدر عصمة وحماية للانسان من ظلم الناس. . ؟ ففي مجتمع يجهر الناس فيه بالحق لا يستطيع الطاغية فيه أن يبطش ويخرس الألسنة. . إن الجهر بالحق ونشرهُ هو دواء الجهل ولقاح للأمة ضد الظلم.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في سعيهم للقضاء على الحق. . فإن الحق هو الذي يبقى وينتصر. وفي الآية علاقة وثيقة بين عمل الله وعمل العبد. . فعمل الله يأتي كنتيجة وثمرة لعمل العبد. . فالإنسان هو المسؤول الأول عن مصيره. . ومن أعرض وأغلق قلبه دون الإيمان. . كيف يهتدى ؟!

ورغم أن هداية الناس مشروطة بإرادتهم. . فإن منهم من يحتاج إلى التذكير

والموعظة أكثر من مرة كي تنزاح الحجب عن عينيه.. وركام الباطل في البيئات المتخلفة يحتاج إلى تهديم مستمر.. ولهذا بلغ ولا تيأس..

١٥ـ لستم على شيء حتى تتبعوا ما أنزل الله:

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ هذا من جملة ما أمر النبي أن يبلغ أهل الكتاب به.. فلقد كانوا يتحججّون بأنهم أبناء الله وأحباؤه.. قل لهم: لا تظنوا أنكم على شيء من الهداية إن لم تقيموا التوراة والإنجيل وتلتزموا بأحكامهما في حياتكم.. ولو اتبعوا التوراة والإنجيل حق الاتباع لآمنوا بمحمد ﷺ وما أنزل عليه. إذ أن فيهما البشارة بمحمد ﷺ وأوصافه.. وفيهما الأسس التي دعا إليها القرآن ورسخها.. كما شهد بذلك نجاشي الحبشة.. ولا يزال المنصفون من أهل الكتاب يشهدون في كل عصر بأن روح القرآن توافق الكتب السماوية السابقة.. من أمثال اللورد هيدلي الذي قال عندما أسلم (لم أغير ديني بل صرت مسيحياً أفضل).

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴾ وتتكرر هذه الفقرة لبيان خطورة ما بالنفس واثره في الإعراض عن الحق.. إن أمراض القلب كالحسد والكبر تلعب دوراً كبيراً في صد الإنسان عن الحق ودفعه إلى المكابرة.. حتى تأخذه العزة بالإثم.. وكلما كان الإنسان أوعى وأبعد نظراً.. كلما استطاع أن يتحرر من الحسد.. لأن العقل السليم يدرك الارتباط بين الأسباب ونتائجها.. فإذا تفوق عليه أحدهم لم يستسلم للكيد والحسد.. بل سعى للقيام بأسباب التفوق ليتدارك تقصيره.. وكما يأكل المرض جسم الإنسان.. فإن مرض القلب ومنه الحسد يأكل قلب الإنسان فيحول بينه وبين السعادة والهناء.. ولهذا ينبه القرآن إلى خطورة الكيد والحسد ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[1].

---

(١) فاطر: ٤٣.

﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أدِ واجبك في التبليغ ثم لا تحزن عليهم فقد قامت عليهم الحجة.

١٦ـ من آمن وعمل فلا خوف عليهم:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وقد وردت الآية قبل ذلك في سورة البقرة (رقم: ٦٢) مع اختلاف بسيط إذ كانت هناك بلفظ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ وقد وقف صاحب تفسير المنار عند كلمة (الصابئون) ومخالفتها في الإعراب لما قبلها.. فهي مرفوعة مع أنها في الظاهر معطوفة على منصوب. فقال (إن العرب تغير في إعراب كلمة في سياق معين إذا أرادت أن تلفت النظر إلى معنى خاص في الكلمة.. فيمكن أن تُعرب على أنها مبتدأ وخبره محذوف بتقدير (والصابئون كذلك).. وذلك أن الصابئين هم الذين فارقوا دين أقوامهم وبحثوا عن الحق باجتهادهم ولم تكن لهم ملة معينة.. فهم مظنة لعدم القبول لأنهم ليسوا من أتباع الديانات السماوية الثلاثة المنصوص عليها)[1]. وقد يكون القصد إبراز شأنهم حيث أنهم كانوا أحرار الفكر في بحثهم عن الحق ولم يستسلموا للعقائد السائدة.

ونقف هنا عند تكرار هذه الآية في سورة البقرة وفي المائدة.. وفي ذلك رد على من قال بنسخ الآية في سورة البقرة ـ لأن الدين عند الله الإسلام ـ فسورة المائدة فيها أحكام نهائية ولم يرد أنه نسخ منها شيء.. وفي ذلك أيضاً إبراز لأهمية هذا الموضوع.. فالدين عند الله ليس أسماء وشعارات ومصطلحات.. ولكن مضمون وجوهر معين.. من استطاع أن يأتي به كان مقبولاً عند الله

ولو حمل اسماً مخالفاً.. فلا عبرة بالأسماء واختلاف المذاهب والأديان فإن الجوهر المطلوب واحد.. ومن شأن هذا النظر أن يقضي على التعصب والتفرق

---

(١) الكلام مختصر عما جاء في المنار فهو بما معناه.

والنزاعات المذهبية والطائفية بين البشر.. فإن الإنسان لا يوزن بالأسماء والشعارات.. وإنما يوزن بما في نفسه من فكر وبأعماله:

﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وقد جاءت هذه الآية بعد الأمر بالبلاغ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك..﴾ وكأنها تحذير للداعي المبلغ من أن يقع في تكفير الآخرين.. فإن تبليغ الحق ينبغي أن يصاحبه الاحترام والتقدير للآخرين.. فإنهم على الحق إن التزموا بأسس دينهم.. ولن يرفضوا القرآن إن وصل إليهم بهذا الاسلوب المليء بالاحترام والانصاف.

إن الآية تمثل انفتاحاً عالمياً جديداً.. وتبشر بعالم جديد قد تطهر من العصبيات والمنازعات.. عالم كان يحلم به المؤرخ ويلز ـ وقد ذكر ذلك في آخر تاريخه: معالم تاريخ البشرية ـ يعبد رباً واحداً ويتعاون على الخير بعيداً عن أوثان القوميات وعصبية المذاهب..

وعلى المسلم أن يستعيد هذه المعاني الكبيرة إلى وعيه ويتحرر من عدوى ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ كي يستعيد دوره الرائد في العهود المقبلة التي تتطلع إليها آمال البشرية راجية أن تتخلص من الخوف والحزن.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وأي مطمح للإنسان أكثر من أن يتحرر من الخوف والحزن.. ؟! ووعد الله قائم بتحقيق ذلك في الدنيا والآخرة لكل من: ١ـ آمن بالله. ٢ـ واليوم الآخر. ٣ـ وعمل صالحاً.. فجربوا هذا الترياق وراقبوا النتائج.. إن من آمن بالله وحكمته وعدله.. وأيقن بتحقيق الجزاء في اليوم الآخر فلا يُظْلَمُ أحدٌ مثقال ذرة.. ماذا يهمه بعد ذلك ؟! وأي شيء يمكن أن يخيفه أو يحزنه ؟! حتى إن تعرض لجحود الناس وظلمهم.. فإنه مطمئن إلى عدل ربه في الآخرة وإحسانه.

١٧ـ لمحات من تاريخ بني إسرائيل:

١ـ أخذ الميثاق وإرسال الرسل:

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا

﴿لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾. والهوى: هو الشيء الذي يميل إليه الإنسان دون مقياس أو قاعدة.. وربما يحقق له منفعة أو لذة عاجلة. ولقد كانوا يكذبون الرسل لا لأنهم لا يوافقونهم على مبادئهم.. ولكن لأن ما جاؤوا به يتعارض مع هواهم..

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[1] فالحياة والكون لا يمكن أن يقوما على الأهواء المتضاربة.. وإنما الحق ما كان فيه خير لأكثر الناس في أطول مدة ممكنة.. وليس عيباً أن يفكر الإنسان فيما ينفعه.. وليس خطأً أن تراعي الأمة منافعها ومصالحها.. ولكن النفعية إن لم توضع لها شروط بحيث تستوعب أكبر عدد ممكن من الناس.. وأطول زمن ممكن.. أصبحت فوضى وخراباً للإنسانية..

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ قال صاحب المنار: (والتعبير عن القتل بالمضارع مع كونه كالتكذيب وقع في الماضي نكتته تصوير جرم القتل الشنيع واستحضار هيئته المنكرة كأنه واقع في الحال. للمبالغة في النعي عليهم والتوبيخ لهم).

٢ـ الغفلة ونسيان الامتحان:

﴿وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾.. ظنوا أنهم لن يحصدوا ثمرة أعمالهم وإفسادهم وغفلوا عن سنن الله في الأرض.. وفيها الفتنة والامتحان ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾[2]. وحالة الغفلة تجعل الإنسان نائم العقل ينساق وراء دنياه وكأنه لا يسمع التحذير ولا يرى عواقب المكذبين..

﴿فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ولكنهم لم يستفيدوا.. بل عادوا إلى غفلتهم وفسادهم في الأرض:

﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ والقرآن يحكم على الأكثرية فلا يظلم الأقلية المُصْلِحَة التي لا تكاد تخلو منها أمة.. وقد تكون الإشارة في الآية هنا إلى ما

---

(١) المؤمنون: ٧١.

(٢) العنكبوت: ٢.

حدث في تارخ بني إسرائيل من الإفساد مرتين وهو ما ذكر في سورة الإسراء ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾[1]. يقول صاحب المنار (فلما عموا وصموا وانهمكوا في الظلم والفساد سلط الله تعالى عليهم البابليين فجاسوا خلال الديار وأحرقوا المسجد الأقصى ونهبوا الأموال وسبوا الأمة.. ثم رحمهم الله تعالى وتاب عليهم وأعاد إليهم ملكهم وعزهم ثم عموا وصموا وعادوا إلى ظلمهم وإفسادهم في الأرض.. فسلط الله عليهم الفرس ثم الروم..).

﴿ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ﴾ والنتائج في الدنيا جماعية.. تأتي بحسب أعمال الأكثرية.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ وإن تذكر رقابة الله دواء للغفلة.. لأن من يتذكر رقابة الله لا يتهاون في أمر ويقدم على عمل حتى يطمئن أنه موافق لرضى الله.. بل إنه يهتم باتقان عمله على أحسن وجه (وهو الإحسان).

١٨ـ في النصارى:

١ـ كفر الذين قالوا: الله هو المسيح:

﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ﴾ للمرة الثانية في هذه السورة تتكرر الآية ـ فقد سبق أن قال ذلك في الآية ١٧ منها ـ وفي هذا تحذير من الوقوع في الغلو والمبالغة في الإطراء.. وكل شيء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده.. ولهذا حذر الرسول ﷺ أمته من المبالغة في مديحه وقال «إنما أنا عبد الله

---

(١) الإسراء: ٤ـ٨.

ورسوله». . ومن المؤسف أن المسلمين بالغوا في تقديس بعض الأولياء حتى جعلوا قبورهم مزارات وموضعاً لنزول البركات. . وقصدوها لطلب الحاجات. . وإنما ذكرت أخطاء الأمم السابقة في القرآن كي تكون لنا عبرة. . فلا نسقط كما سقطوا. . وإن القضية الأولى التي جاء من أجلها الأنبياء هي تحرير الإنسان من العبودية لإنسان مثله. . وأن يكون الخلق كلهم عباد الله. . وهو ما قاله المسيح:

٢ـ المسيح قال: اعبدوا الله ربي وربكم:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ فلا بد من توحيد الله في العبادة والطاعة كي تستقيم الحياة ويستقيم الدين. . ورغم التبديل والتحريف الذي وقع في الإنجيل. . فإن من يطلع على الأناجيل يجد بعض العبارات التي تطالب بعبادة الله الواحد. من مثل ما جاء في انجيل يوحنا (٧: ٣) (وهذه هي الحياة الأبدية: أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته)

﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ فلقد حذرهم عيسى من الشرك وبين عاقبته الوخيمة. . والآية تشبه قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1] . . وحين نذكر قول لقمان ﴿ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[2] . . نحس بفداحة جرم الشرك. . فهو ظلم للنفس وظلم في حق الله. . فالمشرك يحرم نفسه من الرؤية السليمة للأمور وهذا يؤدي به إلى الارتطام بسنة الله في الدنيا وحبوط العمل في الآخرة. ولهذا يأتي التعقيب ﴿وما للظالمين من أنصار﴾ فقد يخدعون بنتائج عاجلة ولكن العاقبة للمتقين الموحدين.

(إن فكرة التوحيد خروج من الآبائية وعبادة الآباء. وهذه الفكرة ـ الخروج من تقليد الآباء ـ هي الأرضية التي بنيت فيها كل الانجازات البشرية. حتى التي

---

(١) النساء: ٤٨.

(٢) لقمان: ١٣.

كانت في صورة معارضة للدين إنها لم تكن معارضة لجوهر الدين وإنما كانت معارضة بكل وضوح لفكرة الآبائية. والآباء كانوا حريصين دائماً على صب الأبناء في قوالب تسدّ عليهم المنافذ، والإنسان عنده مرونة كبيرة في تقبل القوالب التي يمكن أن يُشكَّل عليها، كما أن له توقاً وتطلعاً إلى الحق. إن هذه الطبيعة المزدوجة للإنسان تُمكِّن الاستفادة منها بفنية كاملة لايجاد الإنسان الذي يلتزم بالجماعة، ولكن لا يسكت عن قول الحق.. وعند هذه النقطة يبدو صراع الحضارة مع التخلف وصراع التوحيد مع الوثنية. الحضارة والتوحيد يقولان للإنسان: عليك أن تمارس هذا الحق[1] فأنت مسؤول أمام الحق وحده، أمام الله الذي خلق بالحق وأمام نفسك. أنت الذي تحمل الحق وتلتزم به، وهذا الحق لك ومن ينازعك فهو المتخلف المشرك)[2].

أي أن التوحيد هو الذي يجدد الحضارة وينميها.. والشرك هو الذي يقضي عليها.. ومن أفسد الحضارة في الدنيا حرم من جنة الله في الآخرة ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾.

٣ـ كفر الذين قالوا: الله ثالث ثلاثة.

﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ وهي عقيدة الأقانيم الثلاثة التي يعتنقها كثير من النصارى (الأب والابن وروح القدس).. وبعض المؤرخين يقول إن النصارى قد اقتبسوا هذه العقيدة من الأمم الوثنية القديمة.. وهي عقيدة محيرة يعترف عقلاؤهم بغموضها ويقول كثيرون: نؤمن بها وإن لم نفهمها. ويسوق صاحب المنار قصة طريفة ـ نقلها عن صاحب إظهار الحق ـ عن ثلاثة تنصروا وعلمهم أحد القسيسين عقيدة التثليث.. ثم سألهم عنها فقال الأول: الآلهة ثلاثة أحدهم الذي في السماء والثاني تولد من بطن مريم.. والثالث الذي نزل في صورة الحمامة على الإله الثاني بعدما صار ابن ثلاثين سنة. فغضب القسيس وطرده.. وقال الثاني: الآلهة كانوا ثلاثة وصلب واحد منهم فالباقي

---

(١) أي الحق في الخروج عن مفاهيم الآباء إن كشف مخالفتها للحق.. وفي ذلك تصحيح ونمو للحضارة.

(٢) صفحة: ١٨٢ـ١٨٤ من كتاب إقرأ وربك الأكرم للأستاذ جودت سعيد.

إلهان. . فطرده. وقال الثالث: حفظت ما علمتني حفظاً جيداً وفهمت فهماً كاملاً. . إن الواحد ثلاثة والثلاثة واحد وصلب واحد منهم ومات فمات الكل لأجل الاتحاد ولا إله الآن وإلا يلزم نفي الاتحاد. .

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ يكرر التأكيد على التوحيد بأساليب مختلفة لأهمية آثاره في الحياة.

﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنَّ الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ وهو تهديد بعذاب الآخرة لأنه فردي أما عذاب الدنيا فيعم الكافرين وغيرهم (جماعي) لأن نتائج الدنيا تأتي جماعية. .

على أن العقائد الفاسدة عند أكثرية النصارى قد أثمرت في الدنيا عذاباً وفتناً. . فكم تنازعت الفئات المتعددة منهم بسبب اختلافهم في هذه العقائد الفاسدة الغامضة. . وكم من الاقتتال حدث بينهم. . وكم أعدمت وأحرقت محاكم التفتيش من أناس. . منذ القرون الوسطى وإلى أواخر عصر النهضة

٤ـ ترغيبهم بالتوبة: وفي القرآن غالباً ما يترافق الترهيب بالترغيب.

﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ورغم أن الخطأ الذي وقعوا فيه جسيم ولكن الله يفتح أمامهم أبواب التوبة ويرغبهم فهو الغفور الرحيم. . سبحانه. وحين نتأمل كيف عرضت الآيات هذا الموضوع نرى تسلسلاً جميلاً: فقد بدأ بإعلان أن ما قاله النصارى خطأ وكفر. ثم بيان ما أعلنه المسيح. ثم بيان أن التوحيد هو الحقيقة. . ثم تهديد من استمر في شركه. . ثم ترغيب بالتوبة. .

ويتابع في بيان الحقيقة وتجليه أمر المسيح.

٥ـ المسيح رسول وأمه صديقة يأكلان الطعام:

﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ فقد أرسله الله بحسب سنته في إرسال الرسل لانقاذ الناس. ولكل رسول خصوصيته ومعجزته التي تلائم عصره. .

﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ من فضليات النساء ومرتبتها في الفضل والكمال تلي مرتبة الأنبياء (صديقة) وفي ذلك رد على اليهود الذين اتهموا مريم بالفاحشة. ولئن وقع النصارى في الإفراط في تعظيم عيسى ومريم فقد وقع اليهود في التفريط بمكانتهما والمبالغة في عدائهما..

﴿ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ فهما من البشر يأكلان الطعام وبالتالي يطرحان الفضلات.. ومن أكل الطعام فهو مفتقر إلى غيره فلا يمكن أن يكون رباً خالقاً.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يتعجب منهم كيف يُصرفون عن الحق وهو ظاهر بيِّن ؟!

٦ـ كيف تعبدون ما لا يضر ولا ينفع ؟

﴿ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ وهي نفس الحجة التي واجه إبراهيم قومه بها ﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾ ؟ إن من الطبيعي أن يميل الإنسان إلى الأخذ بما ينفعه.. ولكن ينبغي النظر إلى المنفعة من خلال الجماعة.. أي أن ما يحقق النفع لأكبر عدد ممكن من الناس ولأطول مدى هو الجدير بأن يتبع.. وإن الذين يعرضون عن منهج الله ويتبعون سبلاً أخرى.. قد خدعوا بمنفعة فردية ـ أو جماعية ـ عاجلة سرعان ما تتلاشى ليجد الإنسان نفسه واقفاً صفر اليدين وقد ضاعت منه الفرصة. ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[1].

﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فهو يسمع دعاءكم ويعلم حوائجكم وما يصلح لكم من الأخلاق والنظم. وهنا وأمام أخطاء اليهود والنصارى يتوجه النداء إلى الجميع أن لا ينساقوا وراء الهوى.

---

(١) النور: ٣٩.

٧ـ النهي عن الغلو في الدين واتباع الهوى.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ والغلو هو المبالغة في التعظيم أو في التحقير.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ﴾ فقد كان أهل الوثنية يعظمون ملوكهم لفائدة عاجلة ـ هي الأهواء التي تشير إليها الآية ـ يتوقعونها وهي المكانة عند الملوك. فالآية تنهى أهل الكتاب عن تقليد الوثنيين الذين ضلوا من قبل عيسى.

﴿قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ بالتثليث والطقوس الكنسية المستحدثة من بعدهم.

﴿وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وكأنها إشارة إلى عدم اتباعهم لمحمد ﷺ. وذكر الضلال في الآية ثلاث مرات يلفت النظر ويوحي باستمرار الضلال من جيل إلى جيل.. فالضلال الأول كان سبباً لضلال كثير بعده.. وهكذا تأتي الوراثة الثقافية.. ودراسة التاريخ مهمة لأنها تكشف كيف بدأ الضلال.. ومن لم يعرف كيف بدأت الأمور.. لا يعرف كيف يمكن إيقافها. وعقيدة التثليث لا توجد حتى في الأناجيل الأربعة المحرفة المعتبرة عندهم.. وإنما اقتبسوها من الأمم الوثنية من قبلهم.. كما اقتبسوا كثيراً من الطقوس الباطلة وجعلوها من صلب دينهم ـ مثل شعيرة العشاء الرباني وتحول الخبز إلى لحم المسيح ـ وحين يهتم الأطباء والعلماء بدراسة الوراثة العضوية ليكشفوا أساليب جديدة تمنع انتقال بعض الصفات السيئة إلى الأجيال.. فإن من واجب علماء الإنسانيات أن يراقبوا الوراثة الثقافية كي يحدوا من انتقال الضلال إلى أحفادنا. وإلى أن يرتقي العلم إلى هذا المستوى فإن الآية تعطي بعض الحماية.. فهي تمثل دعوة للمعاصرين لمحمد ﷺ ولكل جيل يأتي من بعد.. أن يفكروا بحرية ولا ينساقوا في تقليد السابقين.. فإن الهوى قد جرفهم إلى الضلال.. اجتهدوا ولا تظنوا أن الراحة في ترك إعمال الفكر والاكتفاء بتقليد الآخرين.. على العكس.. إن النشاط الفكري والاجتهاد هو الذي يحقق الراحة للفرد ويحل مشاكل المجتمع.. ويثمر

الفلاح في الآخرة.

١٩ـ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل بما عصوا واعتدوا:

﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ . . ﴾ واللعن هو أشد ما يعبر الله به عن مقته وغضبه. والملعون هو المحروم من رحمة الله ولطفه. وفي الآية تحديد دقيق للذين حقت عليهم اللعنة ﴿الذين كفروا من بني إسرائيل﴾. . وهؤلاء تاريخهم في الكفر واللعنة عريق فقد لعنوا على لسان الأنبياء. . قيل أن داوود لعنهم لاعتدائهم في السبت. ولعنهم عيسى وهو آخر أنبيائهم لعصيانهم واعتدائهم.

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ والعلاقة وثيقة بين عمل الله وعمل الإنسان. . فعمل الله يأتي ثمرة لعمل الإنسان. . «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١] ولقد شاعت المعصية والاعتداء فيهم حتى أصبحت طابع الجماعة وانتهىٰ بهم الأمر إلى ترك الأمر بالمعروف. .

﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ عن ابن مسعود قال قال ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك. ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب يعضهم ببعض. ثم قال: ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل. .﴾ ثم قال ﷺ «كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ثم لتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم يلعنكم كما لعنهم»[٢] . . إن ترك التناهي عن المنكر معناه أن جهاز التدقيق والتصحيح في المجتمع قد تعطل. . فكيف ستكون النتائج. . ؟! ماالذي يحدث

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه.

لو تعطلت صفارة الإنذار ـ من الحريق أو من تسرب غاز سام ـ في أحد المصانع.. ؟! حتى القدر البخاري لا يمكن التعامل معه بسلامة دون صافرة الإنذار فيه.. وهكذا ينبغي أن يكون دور هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في المجتمع..

وقد يقول قائل: إن هذا يتعاكس مع قول الله تعالى: ﴿لا إكراه في الدين﴾ فإن الإنسان حر في فكره وتصرفاته.. ؟!

ومما لا شك فيه ابتداء أن الأمر بالمعروف ينبغي أن يؤدى بشروط ـ وقد تحدثت عنها في تفسير سورة لقمان وآل عمران ـ وكما قال ابن تيمية: إنه يحتاج إلى علم قبل الأمر ورفق مع الأمر وصبر بعد الأمر. ولكن التساؤل يحمل التباساً لا بد من توضيحه. فالآية ﴿لا إكراه في الدين﴾ أعطت الحرية والكرامة للإنسان فليس لأحد أن يمارس القهر الفكري على أحد ولا يجوز لأحد أن يعذب أحداً من أجل أفكاره.. ولا يحق لأحد أن يكره أحداً على ترك دينه وتغييره ولو إلى الإسلام.. وفي ظل المجتمع المسلم كل فرد حر في اختيار دينه.. وفي تبني الأفكار التي يشاء.. ولكن ليس معنى ذلك أن للفرد أن يخرج على نظام المجتمع ويخالف قوانينه..! لأنه لا قيام للمجتمع إلا بوجود قوانين تنظم حياته ونوع الحقوق والواجبات فيه.. وما من مجتمع على الأرض إلا ويلزم أفراده كلهم على اختلاف أديانهم باحترام قوانينه وكل من يخالفها يتعرض للعقاب.. وإلا تمزق المجتمع بجموح الحريات الفردية المتضاربة..

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو مراقبة السلوك الفردي ومنعه من التعدي على قانون المجتمع وأخلاقه التي لا قيام له بدونها.. وبعد ذلك فكر كما تشاء واختر من الأديان ما تشاء.. طالما أنك لا تنتهك الحرمات ولا تجرح الشعور العام بالتصرفات النابية.. وحديث السفينة[1] مشهور في بيان مخاطر ترك النهي عن المنكر.. لأن أي تساهل أو تسيب سيؤدي إلى إشاعة المنكر بين الناس.. وعندها انتظروا العواقب.. ويمكن أن نضرب مثلاً بالنباتات الضارة

---

(١) رواه البخاري.

التي تنمو حول الزرع.. إنها إن لم تراقب وتستأصل منذ البداية استفحل أمرها حتى أهلكت الزرع الطيب وحرمته من الغذاء والنمو.

أعود فأقول إن موضوع الأمر بالمعروف يحتاج إلى ذوق وإدراك كبير.. ونحن بأمس الحاجة إلى إنشاء كليات لتخريج الآمرين بالمعروف بعد أن ينالوا العلم الكافي بآيات الله في الكتاب وآياته في الآفاق والأنفس.

والعالم من حولنا يتطور في هذا المجال.. فقد تبين له أن الكلام وحده لا يجدي في منع تعاطي المخدرات فأنشأوا المصحّات ومراكز مكافحة ومعالجة المدمنين على الخمر أو المخدرات.. وحتى التدخين أنشأوا له مراكز لمساعدة المدخن على الإقلاع عن هذا المرض.. فكم نحن بحاجة إلى العلم والتطوير في أساليب الأمر والنهي التي نمارسها في عالمنا.

والمجتمع الصالح يحدث فيه المنكر ـ أو الخطأ أو حتى الجريمة ـ ولكنه يقمعه ويتغلب عليه فلا ينمو حتى يصبح عرفاً عاماً يجترىء عليه الناس. ووصف النبي ﷺ لما حصل في بني إسرائيل يستحق التأمل لأن الإنسان لا يستطيع أن يجالس ويؤاكل من لا ينسجم معه في أخلاقه وتصرفاته.. وهذا دليل على أن المنكرات كانت قد اكتسحت النفوس.. فلم تعد تحس بقبحها.. ولهذا يأتي التعقيب:

﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ وحتى عواقب الدنيا تأتي مليئة بالبؤس والشقاء لهؤلاء.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مشركي العرب ويحرضونهم على قتالك مع أنك تؤمن بما أنزل على أنبيائهم وتشهد لهم بالأفضلية على المشركين لأنهم أتباع دين..

﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فلقد قدمت لهم أنفسهم سخط الله وزينت لهم عصيانه والاعتداء على أنبيائه.. ﴿وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ إن استمروا في هذا الطريق. ولقد ذكر من أسباب لعنهم حتى الآن: ١ـ المعصية والعدوان. ٢ـ ترك التناهي عن المنكر. ٣ـ يتولون الذين

كفروا. . وتعود الآيات لتبين السبب الرئيسي لهذه الأعمال:

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ فلو كانوا يؤمنون حقاً بالله ونبيهم موسى ـ الذين يدعون أنهم أتباعه ـ لما اتخذوا عبدة الأصنام أولياء لهم وأنصاراً. . فالولاية بين اليهود والمشركين ليس لها إلا تفسير واحد وهو اتفاقهم على الكفر.

وقد يكون في الآية تعريض بالمنافقين أيضاً الذين كانوا يتولون اليهود ويناصرونهم.

﴿ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ خارجون من دين الله متجاوزون، لأوامره. وتأمل الدقة في ﴿كثيراً﴾.

٢٠ـ أشد الناس عداوة للمؤمنين:

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴾ وقد بدأ باليهود. . ثم المشركين. . وهذا معروف في عصر محمد ﷺ. . فلقد قابلوا المسلمين بالعداوة والبغضاء سراً وعلانية. . ولم يتركوا فرصة للكيد والمكر إلا وانتهزوها. . فلقد هموا بقتل الرسول ﷺ مراراً. . وألبوا المشركين على المسلمين ودفعوهم إلى حربهم. . وأثاروا الفتن داخل المجتمع الإسلامي عن طريق أوليائهم المنافقين. . وهم حتى الآن كما قال الله فيهم ـ أشد الناس عداوة للمؤمنين. . وهذا لا يعني عدم وجود المنصفين فيهم. . فكل أمة فيها الخبثاء والطيبون. ولقد أسلم منهم عدد عبر التاريخ وإن كانوا أقل بكثير ممن أسلم من النصارى والأقوام الأخرى. .

حين أقف أمام هذا الموضوع تنتابني حيرة. . وتلح علي تساؤلات:

لماذا يحملون كل هذا العداء للمسلمين ؟

وهل يمكن محو هذا العداء من قلوبهم حتى يتحرروا من الكراهية والحقد ؟

ولا شك بأن السؤال الأول هو الأهم لأن جوابه هو الذي يحدد جواباً للسؤال الثاني. .

ومع اعترافي بأن الموضوع يحتاج إلى بحث منهجي تاريخي من قبل علماء اجتماع وعلماء أجناس.. فإنني سأقف معه عند بعض التأملات:

١ـ من الناس من يقول: الله خلقهم بهذه الطبيعة الحاقدة الماكرة.. وسيحافظون على طبيعتهم هذه إلى آخر الدنيا.. وبالتالي لا أمل في علاج حقدهم.. ولا أمل للإنسانية بالسلام إلا بإبادتهم.. أما أنا فأستبعد هذه النظرة لأنها:

١ـ تخالف الإيمان بالله العادل في حكمه الذي لا يعاقب إلا إذا كان الإنسان قادراً على الاختيار بين الخير والشر. ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

٢ـ تخالف ما جاء في القرآن ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[2]. وأنهم في زمن من الأزمان كانوا هم الأمة المختارة المستخلفة في الأرض لأنهم موحدون: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3].

٣ـ ليس في القرآن أو السنة نص يأمر بإبادتهم.. بل إنهم عاشوا في ظل المجتمع الإسلامي يتمتعون بحريتهم الدينية وحقوقهم الإنسانية. وكانوا من (أهل الذمة) الذين أوصى بهم ﷺ.

٢ـ من الباحثين من يرد الأمر إلى الظروف التي عاشها اليهود والاضطهاد الذي تعرضوا له من الأمم. مثلاً ول ديورانت في تاريخه (قصة الحضارة) يتحدث عن اليهود ويعقد فصلاً كاملاً بعنوان (كراهية اليهود) يتساءل في أوله عن منشأ العداء القائم بين اليهود وغيرهم؟ ويعترف بأنهم مكروهين عالمياً وإن مدحهم وأقر بميزاتهم وتفوقهم في العلوم والمهارات ـ وديورانت يعترف بأن كثيراً منها من تأثير حياتهم مع المسلمين ومعايشتهم لحضارتهم ـ ويقول بأن اليهودي لأنه كان معرضاً للاضطهاد والأذى في العالم المسيحي خاصة قد لجأ كما يلجأ الضعيف

---

(١) آل عمران: ١١٧.

(٢) الأعراف: ١٥٩.

(٣) البقرة: ٤٧ و١٢٢.

الجسم في كل مكان إلى الدهاء يتقي به الأذى.. بل إلى الغدر.. وبأنه لجأ إلى التعامل بالربا مع غير اليهود كي يعوض النكبات المالية التي كانت تلحق به. ويمكن لدارس تاريخ أوربا عبر القرون الماضية أن يرى كيف لجأ كثير من الملوك والحكام إلى مصادرة أموالهم وطردهم.. ففي الأندلس مثلاً كانوا يتمتعون بالحياة في ظل الحكم العربي الإسلامي.. فلما انقضَّ الاسبان على الأندلس نال اليهود مثل ما نال المسلمين من الاضطهاد والتقتيل والإجبار على النصرانية.. أو الرحيل بعد تجريدهم من أملاكهم أو اضطرارهم لبيعها بأبخس الأثمان..

ولكن السؤال ما زال قائماً.. لماذا يكرهون المسلمين ويحقدون عليهم ـ وربما الآن نراهم حاقدين على المسلمين أكثر من حقدهم على النصارى ـ مع أنه لم يثبت تاريخياً أن المسلمين اضطهدوهم.. ولم نسمع بمؤرخ تحدث عن اضطهاد المسلمين لليهود.. !! فالمعارك مع اليهود اقتصرت على زمن رسول الله ﷺ حين نقض اليهود المواثيق مع المسلمين واستمروا في الكيد والتآمر.. حتى أمر الرسول ﷺ بإخراجهم من الجزيرة العربية ـ ومن الواضح أنه إجراء سياسي لحماية كيان الأمة ـ ولكنهم عاشوا بعد ذلك في سائر أقطار العالم الإسلامي وكان منهم الأغنياء والأطباء والعلماء بل والوزراء أحياناً.. ولم يتعرضوا لأي أذى بسبب دينهم.. ولم يفكروا بأن تكون لهم دولة خاصة في أرض الميعاد ـ بزعمهم ـ إلا مع بداية هذا القرن عندما ظهر فيهم هرتزل ونادى بالصهيونية والوطن القومي لليهود..

ومع ذلك فقد أعترف بأن المسلمين عبر العصور لم يكونوا دائماً في نفس المستوى الأخلاقي المطلوب منهم في التعامل مع أهل الذمة: اليهود والنصارى.. أو مع الأقليات الأخرى.. وكل أقلية في كل مجتمع لا بد أن تعاني من الشعور (بالدونية). وقد يلعب هذا الشعور دوراً هاماً في تحريك الفئة لاثبات ذاتها فتظهر التفوق في مجالات عدة.. كما حدث لليهود والأرمن ـ مثلاً ـ في بلاد الشام فقد برعوا في الطب وصياغة الذهب وصناعة الأحذية و..

كل ذلك لا يكفي لتبرير عداوتهم الشديدة للمسلمين.. وإن أعطيناه جزءاً

من الإجابة.

٣ـ هل السبب هو الحسد ؟ فلقد كانوا يطمعون أن يكون محمد ﷺ منهم.. وأن يظلوا هم الأمة المفضلة على الناس وشعب الله المختار.. وهذا جانب يستحق النظر..

٤ـ ولكن أليس الحسد مرضاً نفسياً ناتجاً عن سوء الفهم والتصور.. فمن الطبيعي أن يرغب الفرد والأمة بالتفوق.. ولكن أن يتصور أن الله قد خصّه وحده بالذكاء والتفوق.. أو لا يدرك أن للتفوق أسباباً كل من قام بها حصل على التفوق.. فهذه هي لب المشكلة..

٥ـ صاحب المنار له تأملات في هذا المجال جديرة بالنظر.. فاليهود لم يدركوا أن دين الله على ألسنة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم واحد ولكنه جرى مع البشر على سنة الارتقاء إلى أن بلغ سن الكمال. وحين نتأمل في تاريخ اليهود والظروف التي نزلت فيها شريعة موسى عليهم نرى أن (شريعة اليهود نفسها تربي في نفسهم الأثرة الجنسية لأنها خاصة بشعب إسرائيل وكل أحكامها ونصوصها مبنية على ذلك. وحكمة ذلك أن المراد منها تربية أمة موحدة بين أمم الوثنية الكثيرة بعد إنقاذها من استعباد الفراعنة.. ولو أذن الله لبني إسرائيل بعد إنجائهم من مصر إلى الأرض المقدسة أن يخالطوا الأمم التي كانت فيها وجعل شريعتهم عامة مبنية على قواعد المساواة بين الإسرائيليين وغيرهم ـ كالشريعة الإسلامية ـ لغلبت تعاليم أولئك الوثنين وشرورهم على الإسرائيليين لقرب عهدهم بالتوحيد.. مع استعدادهم لقبول تقاليد غيرهم..)[1]. فشريعتهم كانت مؤقتة ولكنهم جعلوها دائمة.. واحتفظوا بعنصريتهم وانغلاقهم.. وحافظوا على هذا الميراث الثقافي من جيل إلى جيل.. فكيف يمكن فتح القلوب وغسلها من الكراهية إن لم تتغير النفوس والثقافة المسيطرة عليها.. ؟!

وبعد فإن من واجب علماء الإنسانيات أن يدرسوا مثل هذه القضايا وجذورها التاريخية والنفسية إن كانوا يطمعون بمستقبل للإنسانية أفضل في ظل

---

(١) صفحة ٧ من الجزء ٧ من تفسير المنار.

حد أدنى من السلام العالمي.

٢١ـ أقربهم مودة للمؤمنين: النصارى:

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ..﴾ بهذا التأكيد (لتجدنَّ) يثبت ميزة النصارى على اليهود والمشركين في رقة القلوب والاستعداد لقبول الحق. ولقد ظهرت منهم هذه المودة في زمن رسول الله ﷺ.. من ذلك أن رسول الله ﷺ لما أرسل كتب الدعوة الإسلامية إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسنهم رداً.. بينما مزق كسرى كتاب النبي ﷺ.. ثم لما فتحت مصر والشام وكان أهلهما من النصارى سارعوا إلى الدخول في دين الله أفواجاً.. ومعروف في السيرة موقف النجاشي العادل مع المؤمنين الذين هاجروا إليه.. ثم دخوله في الإسلام..

ويذكر الله هنا سبب هذه المودة: ﴿ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ والقسيسون هم الرعاة المعلمون (من قس الإبل: إذا أحسن رعيها وساقها) والرهبان هم العباد والزهاد (من الرهبة بمعنى الخوف).. فوجود المعلمين والعباد الزهاد فيهم وأداؤهم لدورهم في التعليم والوعظ ينشر جواً من الرقة والخشوع.

﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ عن الإذعان للحق. بسبب وصايا دينهم بالتواضع والوداعة حتى مع العدو.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ وهكذا حصل مع النجاشي وبطارقته عندما قرأ عليهم جعفر آيات من القرآن الكريم.. بكوا وخشعوا وهكذا حصل مع ورقة بن نوفل.. وحتى هرقل كاد أن يسلم لولا خوفه على ملكه..

﴿ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾ و (من): للتبعيض.

فهم عرفوا بعض الحق وليس كله.. ومع ذلك فإن هذا البعض الذي عرفوه كان كافياً لخشوعهم وإيمانهم:

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ ولم يكن إيمانهم مجرد قول باللسان بل كانت دموعهم هي الدليل.. وتوجههم إلى الله وشهادتهم للحق ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والآيات تذكر هؤلاء في مقابل الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم.. وقال عنهم قبل آيات (٧٢ـ٧٥) ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون﴾. فالقرآن يتصف بالدقة العلمية والانصاف فهو يذكر الصالحين والمعرضين من كل قوم.. ومع ذلك يبقى الحكم العام قائماً وهو أن النصارى هم أقرب مودة من اليهود والمشركين وضلالهم ناتج عن جهلهم فإذا تبين لهم الحق انحاز أكثرهم إليه. وهذا ما حصل تاريخياً.. ويحصل الآن كلما قدم لهم الإسلام مجرداً عن أخطاء المسلمين وتشويه الآخرين. وقد يعترض الإنسان ويتساءل: كيف يكونون أقرب إلى المسلمين من اليهود وعندهم عقيدة التثليث بينما اليهود موحدون ؟!

يرد صاحب المنار على ذلك بأن (عقيدة التثليث الدخيلة في المسيحية لما كانت لا تفهم ولا تعقل.. لم يكن لها تأثير في أنفس أهلها يبعدهم عن الإسلام بل ربما كانت من أسباب قبول دعوة الإسلام. وإنما التأثير الأعظم في تقريب الناس بعضهم من بعض أو ضده.. الأخلاق والآداب)[1].

أي أن عقيدة التثليث بما أنها غير مفهومة فقد أصبحت عند عامة النصارى مجرد رموز وكلمات ليس لها صدى كبير في أنفسهم.. فهم يتوجهون بدعائهم إلى الله الذي في السماء (أبانا الذي في السماء).. وجوهر الدين عندهم هو المحبة والرحمة ومساعدة الآخرين.. وهذا ما يقربهم من المسلمين.

ويأتي اعتراض آخر: فما بال الحروب الصليبية ؟ وهل نسيتم ما خلفته حتى الآن من حقد صليبي ؟! وما زلنا مع صاحب المنار الذي يتأمل هذا الموضوع

---

(١) صفحة ١١ من الجزء ٧ من المنار.

ويقول إن سبب العداء بين المسلمين والنصارى هو بعد أحد الفريقين أو كل منهما عن هداية دينه. أو جهالة وسوء فهم وقع بينهم. وبذلك يمكن النظر إلى جوانب ثلاثة:

١ـ إن ما في الإنجيل من روح السلام لم تنتصر في أوربا على روح الحرب والأثرة وحب السيادة. بل إن البابوية نفسها ـ وهي أعلى هيئة دينية عند النصارى ـ مارست شن الحروب من أجل السيادة وجباية المال للكنيسة.. ولا ننسى حروب الإبادة ضد الوثنيين في أوروبا عند نشر المسيحية فيها.. ثم حروب الدول الأوربية فيما بينها لخلاف مذهبي أو تسلط سياسي..

٢ـ والمسلمون أيضاً كان الإسلام يتفلت من أيديهم وتطغى عليهم النزاعات الدنيوية. فالدولة. العثمانية مثلاً كانت قد فتحت كثيراً من بلاد النصارى بالقوة القاهرة.. فلما دالت القوة لهم ثاروا لأنفسهم ـ وما زالوا يثأرون في يوغوسلافيا وغيرها ـ منها وارتبط ذلك بكراهية المسلمين.

٣ـ في بداية الحروب الصليبية كانت للمسلمين صورة في مخيلة النصارى تخالف الصورة الصحيحة التي يطلبها الإسلام.. فلقد صوروا على أنهم ناس وثنيون متوحشون سفكوا الدماء ودنسوا المقدسات. انظر في الخطاب الملتهب الذي ألقاه أربان الثاني ـ وكان هو البابا في عام ١٠٩٥ م ـ في جموع النصارى: (يا شعب الفرنجة.. شعب الله المحبوب المختار!! لقد جاءت من تخوم فلسطين ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة تعلن أنّ جنساً لعيناً أبعد ما يكون عن الله قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين وخربها.. وهم يهدمون المذابح في الكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم!! على من إذن تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم واستعادة تلك الأصقاع إذا لم تقع عليكم.. ؟! أنتم يا من حباكم الله بالمجد في القتال والبسالة.. فليثر همتكم ضريح المسيح ربنا ومنقذنا.. الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة..!! ذلك أن هذه الأرض التي تسكنونها الآن.. ضيقة لا تتسع لسكانها.. تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيهم من الطعام.. ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضاً.. وتتحاربون.. اقضوا على ما بينكم من نزاع..

وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث. . إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها هي فردوس المباهج. . إن المدينة العظمى تستغيث بكم. . وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجداً لا يفنى في ملكوت السموات). فهتفوا: (تلك إرادة الله) ودعاهم أن يجعلوه نداءهم في الحرب. . وأن يضعوا علامة الصليب على جباههم أو صدورهم[1].

والمؤرخ ديورانت يذكر في (قصة الحضارة) ثلاثة أسباب مباشرة للحروب الصليبية:

١ـ زحف الأتراك السلاجقة. وكان العالم قبل زحفهم قد كيف نفسه لقبول سيطرة المسلمين. . وحكم الفاطميون فلسطين حكماً سمحاً رحيماً استمتعت فيه الطوائف المسيحية بحرية واسعة. . إذا استثنينا فترات قصيرة مثل حكم الحاكم بأمر الله الخليفة المجنون الذي دمر كنيسة الضريح المقدس ١٠١٠ ولكن المسلمين أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها. . لكن الأتراك انتزعوا بيت المقدس من الفاطميين في عام ١٠٧٠. وأخذ الحجاج النصارى بعد عودتهم إلى أوطانهم يتحدثون عما يلقونه فيها من ظلم وتحقير.

٢ـ ما حاق بالامبراطورية البيزنطية من ضعف شديد الخطورة بعد أن مرت عليها سبعة قرون وهي تصد جيوش آسيا وجحافل السهوب. واستنجد امبراطورها بإربان الثاني واستحث أوربا اللاتينية لتساعده على صدّ هجمات الترك. وقال (إن من الحكمة أن يحارب الأتراك في أرض آسيا بدل أن ننتظرهم حتى يقتحموا بجحافلهم بلاد البلقان إلى عواصم أوربا).

٣ـ رغبة المدن الإيطالية بيزا وجنوى والبندقية وأملفي في توسيع سلطانها التجاري الآخذ في الازدياد ويقول ديورانت عن اربان أنه (كان يتوق إلى توجيه ما في طبائع أمراء الإقطاع والقراصنة النورمان من حب القتال إلى حرب مقدسة تصد المسلمين عن أوربا وبيزنطة. وكان يحلم بإعادة الكنيسة الشرقية إلى حظيرة

---

(١) صفحة ١٥ من الجزء ١٥ من قصة الحضارة. والكلام هنا مختصر عن الأصل الذي فيه إسهاب في تصوير وحشية المسلمين.

الحكم البابوي. ويرى بعين الخيال عالماً مسيحياً عظيم القوة متحداً تحت حكم البابوات الديني. وكان هذا تفكيراً أملته رغبة في الحكم لا تعلو عليها رغبة)[1].

نعود إلى صاحب المنار الذي يتفق مع ديورانت حين يستنتج: (ما زال أئمة السياسة المضلين من الفريقين يتخذون الدين أخدوعة يخدعون بها العامة لتأييد سياستهم حتى في الجناية على الدين وأهله)[2]. و(لولا التنازع السياسي الدنيوي بين دولنا ودولهم لكانت المودة بين الفريقين أتم وانتشار الإسلام أعم..)[3]. ولنتأمل في التاريخ أيضاً: فتح العثمانيون القسطنطينية في عام ١٤٥٢ م ويقول ديورانت أنه حصلت مجازر فظيعة واعتدي حتى على الراهبات.. وقد يكون ديورانت مبالغاً ولكن من الواضح أن العثمانيين كانوا يتوسعون في البلاد وينتزعونها من النصارى ولم تكن حروبهم تلتزم بشروط الجهاد في الإسلام دائماً.. لقد تميزت فتوحات الصحابة في مصر والشام والعراق بأنها تحمل روح الإنقاذ للإنسان وتحريره.. لقد زرعت الحب في الأرض وحصدت الحب.. وأما حروب الأتراك فكانت فتوح بلدان وسيطرة وسلطان..

ولهذا نجد الاسبان يقتحمون الأندلس بعد أربعين عاماً ـ أي في عام ١٤٩٢ م ـ ويرتكبون الفظائع بالمسلمين باسم المسيح والانتصار لدينه.. ولا ننسى أن دخول المسلمين إلى الأندلس كان للسيطرة والحكم بالدرجة الأولى وإن رفعت هذه الحملات شعار الدعوة للإسلام..

هذه المعارك في التاريخ كانت تذكي نار الحقد بين الطرفين.. وما زال دخان هذه النار يلفح وجوهنا.. أما آن الأوان للعقلاء أن يفكروا في إطفاء هذه النار.. ؟!

إن دراسة التاريخ تجعلنا ندرك كيف تبدأ الأمور.. وهي الخطوة الأولى لإيجاد الحلول لمشاكل العالم الذي نعيش فيه.. والموضوع بحاجة إلى علم وإخلاص

---

(١) صفحة ١٤ من الجزء ١٥ من قصة الحضارة.

(٢) صفحة ١٠ من الجزء ٧ من المنار.

(٣) صفحة ٩ من الجزء ٧ من المنار.

وصبر طويل. . وأتذكر قول المسيح عليه السلام (كل الذين يرفعون السيف به يهلكون). ولن نطمع في عودة المودة والتفاهم حتى تنبذ الأسلحة عالمياً. .

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ ﴾ وذلك حين يدركون أن محمداً ﷺ هو النبي الذي بشرهم به نبيهم ووصفه لهم. . وأن هذه الآيات التي تتلى عليهم قد جاءت من نفس المشكاة التي جاء منها دينهم.

﴿ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴾ وهم أتباع الأنبياء في كل زمان. . يشهد لهم صلاح أعمالهم ويكونون للناس مصابيح هداية. . وموضع قدوة.

﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ إنه كرم الله مع كل الذين رغبوا في معيّة الصالحين. . ولم يغتروا بأصحاب اللهو وأهل الدنيا. . بل بذلوا جهدهم ليكونوا في صحبة الصالحين في الدنيا. متمثلين قول الله: ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾[1].

﴿ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا ﴾. . إن القول وحده لا يدخل صاحبه الجنة. . ولا بد أن يكون معه الدليل العملي ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[2]. ولقد حصل هؤلاء على الثواب لأن قولهم كان قول صدق. . تشهد له دموعهم وصلاحهم ولجوءهم إلى الله أن يجعلهم من الشهداء للحق. ولم يبالوا في ذلك بمخالفة قومهم. . وربما عرضهم ذلك للأذى والتعذيب. . ولقد شهد الله لهم أنهم بلغوا مرتبة عليا: ﴿وذلك جزاء المحسنين﴾. . الإحسان وهي أعلى مراتب الإيمان. . أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. . الإحسان: هو الزيادة على الفرائض. . حتى أن المحسن يتتبع كل عمل يزيده قرباً من الله «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه. . » والله يحب المحسنين.

وبحسب سنة القرآن التي هي الجمع بين الوعد والوعيد كي يبقى العبد في

---

(١) الكهف: ٢٨.

(٢) العمكبوت: ٢.

حالة يقظة وتوتر إيجابي فعال. . يقول:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ فالكفر بالقلب يؤكده القول والعمل بالتكذيب بالآيات. . وعندها يحق العقاب بالجحيم.

وهكذا يختم القسم السادس الذي حذر من موالاة أهل الكتاب ببيان طبيعة اليهود والنصارى ومقدار القرب والبعد بينهم وبين المسلمين. . وهذا له أثره في إعطاء الأولويات في التعامل. . مع التعقيب بالترغيب والترهيب. فكل إنسان لا بد أن يحصد ثمار زرعه.

٧ـ مجموعة ثانية من الأحكام للمؤمنين (٨٧ـ١٠٨)

وكانت المجموعة الأولى من الأحكام هي التي افتتحت بها السورة. . ثم تنوعت المواضيع وجاء هذا الحديث الطويل عن أهل الكتاب وأخطائهم وكيفية التعامل معهم. . ثم تأتي الآن مجموعة أخرى من الأحكام يليها حديث عن أهل الكتاب. . وكما قلت قبل الآن إن القرآن كتاب الحياة. . لم يبوب بحسب المواضيع. . ولم ينزل للناس ليكون كتاباً مفهرساً في القانون أو في علم الاجتماع مثلاً. . أو في الفقه والعبادات. . وإنما هو كتاب للحياة اليومية. . يقرأ منه المسلم في كل يوم فيزوده بمواضيع شتى ويقدم له غذاء منوعاً. . مما يمنحه ـ حتى للقارىء العادي البسيط ـ حداً أدنى من العلم بدينه وبجوانب الحياة وبتاريخ الأمم. . ولو أنه بوب بحسب المواضيع. . فلربما اقتصر كثير من المسلمين في القراءة على مجال اختصاصهم. . فحرموا من بركات كثيرة منها شمولية النظر. . ووجود الحد الأدنى من العلم بكل الجوانب.

وفي ذلك إشعار للمسلم بالتكامل بين جوانب الحياة. . فالقرآن معه في بيته وفي سوقه وفي علاقته مع جاره وفي اسلوب سيره في الشارع. . في المسجد وفي المحكمة. . في ميدان القتال والعلاقات الدولية. . ومع قراءته اليومية في القرآن تلتحم الدنيا بنظره مع الآخرة. . فلا تتمزق النفس ولا تتشتت المقاصد. . فكل عمل من أعمال الدنيا يمكن أن يكون أكثر إمتاعاً لأنه يطلب به رضى الله. .

فيصبح له رصيداً في الآخره. تلك كلمات سريعة أقولها في هذا المجال الذي يمكن أن يقال ويكتب فيه الكثير.. وهو ترتيب القرآن.

١ـ النهي عن تحريم الطيبات والعدوان:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ وذلك أن الآيات السابقة امتدحت رقة النصارى وذكرت القسيسين والرهبان بالخير.. وقد عرف عنهم الزهد والتقشف حتى حرموا على أنفسهم كثيراً من الطيبات.. فاقتضى الأمر سرعة البيان لحرمة هذا الانحراف.

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ سيتكرر هذا النداء في هذا المقطع سبع مرات.. عند كل حكم تقريباً.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ فالله هو الذي يحلل ويحرم وكل من يحرم ما أحل الله يعتدي على حق الألوهية ـ الحاكمية لله ـ وكأنه يدعي لنفسه هذا الحق.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ وما أشنع الأمر الذي يحرم المؤمن من محبة الله له.

وإن الله بأحكامه قد رسم للإنسان حدوداً.. بعضها حذره الله من مجرد الاقتراب منها ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾[1] وبعضها أمره الله أن يقف عندها فلا يتعداها يميناً أو شمالاً. ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾[2]. فالتعدي والاعتداء يكون بتجاوز حدود الشريعة بالاسراف واستباحة ما حرم الله.. أو بالزهد وتحريم ما أحل الله.

وقد ذكر في نزول الآية روايات كثيرة منها ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: إن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم: لا آكل اللحم. وقال بعضهم: لا أتزوج النساء.

---

(١) البقرة: ١٨٧.

(٢) البقرة: ٢٢٩.

وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ما بال أقوام بقول أحدهم كذا وكذا.. لكني أصوم وأفطر وأنام وأقوم وآكل اللحم وأتزوج النساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال لي رسول الله ﷺ «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: فلا تفعل. صم وأفطر. وقم ونم. فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً. وإن لزوجك عليك حقاً. وإن لزورك ـ أي الزائرون ـ عليك حقاً. وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام. فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها.. قلت: إني أجد قوة. قال: فصم صيام نبي الله داود ولا تزد عليه. قلت وما كان صيام نبي الله داود؟ قال نصف الدهر». (أي يصوم يوماً ويفطر يوماً).

فمن حرم على نفسه شيئاً من الطيبات ثم أدرك خطأه فماذا يفعل؟.. قالوا يعود عن ما حرم على نفسه دون كفارة. وقال الإمام أحمد بن حنبل أن عليه أن يعود ويكفر عن يمينه ـ إذا حلف على ذلك ـ واستدل بالآية ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[1] عندما حرم النبي على نفسه العسل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ وحقاً إن ترك الاعتدال ـ وكل زيادة أو نقصان ـ فيه اعتداء على الصحة[2].. واعتداء على حقوق الناس.. فلنذكر قول الله ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[3].. والمؤمن يمكن أن يزيده التنعم بالطيبات قرباً من الله إن أحس بحلاوة ما أنعم الله عليه فشكر ربه وجاد بها على إخوانه ثم أن العبادات المفروضة عليه تجعله سيد شهواته ـ لا عبداً لها ـ فهو قادر على الصيام والترفع معتدل في حرمانه أو تنعمه.. وتجعله يتذوق حلاوة النعم أكثر لأنه يجرب الحرمان منها (الصيام والقيام من الليل).

ذكر أن رجلاً دعا آخر إلى حلوى فقال: لا أقدر على شكرها. فقال الرجل:

---

(١) التحريم: ٢.

(٢) الصحة الجسمية والنفسية.

(٣) طه: ٢.

يا أحمق فهل تقدر على شكر الماء البارد ؟! (وهل هناك ألذ من الماء البارد عند العطش ؟!).

وقد فتن كثير من المتصوفة في هذا المجال فحرموا الطيبات.. وانطبق عليهم قول رسول الله ﷺ «لتتبعن سنن من قبلكم». فكانوا مقلدين لرهبانية النصارى.. والنصارى لم تكن من أصل دينهم وإنما ابتدعوها وأخذوها عن البراهمة الهنود. فكان ذلك أحد أسباب انسلاخ الغرب من الدين.

﴿ وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ بعد النهي عن التحريم.. يأتي الأمر بالأكل من الطيبات. وليس في ذلك تكرار بل إنه بيان لدليل عدم التحريم.. الدليل على أنك لا تحرم أن تأكل.. وكان رسول الله ﷺ رغم زهده بالدنيا وكراهته للانغماس في الملذات.. يأكل من الطيبات حين يتيسير له ذلك ويلبس من الجيد إن تيسر له.. ولا تنسوا أن هذه المآكل والمناعم كلها من رزق الله «كلوا مما رزقكم الله».. ولكن بشرط أن يكون ﴿حلالاً طيباً﴾ حلالاً في ذاته.. أي ليس مما نص القرآن على تحريمه كالميتة والدم و.. وحلالاً في كسبه.. فلم يأت من مال حرام. والطيب هو اللذيذ الذي لم يفسد.. ولا يسبب فساداً. وفي الآية إشارة واضحة إلى أن الحلال هو الطيب.. وأن الله لم يحرم عليكم إلا الخبيث الذي فيه فساد الفرد أو المجتمع.. فلا يمكن أن يكون طيباً ولو كان لذيذاً.

وإن الله يحب من عباده أن يقبلوا نعمه ويستمتعوا بها شاكرين له.. ويكره أن يستبيحوا ما حرمه عليهم لأنهم بذلك يظهرون ضعف إيمانهم بربهم العليم بما يصلح لهم.. ولهذا يأتي التعقيب:

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ فأين الدليل على إيمانكم إن لم تسلِّموا لأمر ربكم.. ؟! فاتقوا الله في تحري الحلال والبعد عن الحرام.. واتقوا الله فلا تسرفوا.. وتذكروا حاجة المحرومين.. اتقوا الله في أنفسكم فلا تحرموها من حقوقها.. وفي أهلكم وعيالكم فإن الزهد والحرمان قد يفسدهم.. تلك مزالق تنحرف بالمسلم عن وسطية الإسلام.. وما أسهل أن تنحرف إلى الإفراط أو

التفريط أما البقاء في الوسط والتمسك بالاعتدال فهو الذي يحتاج إلى جهد.. والآيات هنا تدرب المسلم على أن يتمتع بالدنيا دون أن تستولي على قلبه فتشغله عن أمر ربه. بل هو يتمتع بها طاعة لله وشكراً له.

قارن رسول الله ﷺ بين هذه الآية في خطاب المؤمنين وما في معناها من خطاب المرسلين فقال: (إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً. وإن الله أمر المؤمنين بما أمربه المرسلين فقال ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ وقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يارب يارب. ومطعمه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام.. فأنى يستجاب له)[1].. فالعبادة والزهد والسياحة لا تنفع العبد شيئاً إن لم يكن عالماً بالحلال والحرام مجتنباً للحرام.. وفي الحديث فوائد كثيرة.. منها خطورة الأكل من الحرام.. فهو سبب لإغلاق أبواب الله في وجهه.. والدعاء وحده لا يكفي للوصول للأهداف.. بل لا بد من البحث عن الأسباب والقيام بها.. فمن لم يكشف أسباب الوصول ولم يلتزم بأمر الله واكتفى بالدعاء فأنى يستجاب له.. كالذي يرفع يديه إلى الله ضارعاً: يارب اهد أولادي.. وأولاده يتغذون بالفسق والفجور على موائد (التلفزيون والفيديو).. وهو لا يكلف نفسه بأن يقدم لهم الغذاء الطيب الحلال..!!

٢ـ يمين اللغو وكفارة اليمين المنعقدة: أو حكم الأيمان

وفي الآيات أربع نقاط رئيسية:

١ـ عدم المؤاخذة في يمين اللغو.

٢ـ المؤاخذة في اليمين الذي عقد عليه.

٣ـ كفارة اليمين المعقودة.

٤ـ أمر بحفظ الأيمان.

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ قيل في

---

(١) رواه الترمذي.

نزول الآية: أنه لما نزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ في القوم الذين كانوا حرموا النساء واللحم على أنفسهم قالوا: يارسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها ؟! فأنزل الله تعالى الآية[1]. وقد سبق أن شرحت موضوع الأيمان في كتابي (من هدي سورة البقرة)عند آية تشبه هذه[2]. ولهذا أوجز في تناوله هنا.

﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾. ومختصر الكلام في يمين اللغو أنه ما جاء في الكلام دون قصد.. وقيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. المهم أنه يمين يجري على اللسان دون قصد من صاحبه. وإن الله من رحمته بعباده أسقط المؤاخذة عنهم في ذلك.. ولكن يجدر بالمؤمن أن يعود لسانه على تجنب الحلف.. فإن اسم الله أعظم من أن نلغو فيه وإن الأدب مع الله يقتضي منا أن نتعود على اجتناب ذلك ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾[3]. وفي مجال التربية يتعلم الصغار من الكبار.. ولا جدوى من توجيه الصغار ما لم نغير ـ نحن الكبار ـ أنفسنا. فكيف نفلح ونحن لم نرب أنفسنا بعد.. ؟!

إن الآباء لا يصدقون كلام أبنائهم حتى يستحلفوهم..!! وهذا التصرف يعتبر مساهمة كبيرة في صناعة الشخصية المهزوزة التي وصفها الله ﴿حلاف مهين﴾. فهو مهان بين الناس لأنه لا يثق بنفسه. فيلجأ إلى الأيمان ليرقع بها ذاته المهلهة.

﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي بما قصدتم وصممتم عليه منها. وهذه هي التي تجب فيها الكفارة عند الحنث بها ـ خلافاً ليمين اللغو ـ وكل يمين يرى صاحبها أنها تحول بينه وبين عمل أفضل فعليه أن يفعل الأفضل ويتحلل منها بالكفارة.

﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ ومعنى الكفارة

---

(١) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس.

(٢) راجع صفحة ٤٦٥ من الكتاب المذكور عند شرح الآية ٢٢٥ من البقرة.

(٣) البقرة: ٢٢٤.

مأخوذة من الكفر: وهو الستر والتغطية. والكفارة صارت اسماً لأعمال تغطي الذنوب وتسترها في الدنيا والآخرة فلا يكون لها أثر. واليمين في غير محله ذنب ينبغي التكفير عنه أي ستره.. والكفارة أدناها إطعام عشرة مساكين وأعلاها عتق رقبة. أما عند الإطعام فقد جاء التفصيل:

﴿ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴾ والأوسط فسره عطاء على أنه الأمثل والأفضل ـ والعرب تستعمل الأوسط للأشرف والأفضل ـ وفسره ابن عباس ـ وأكثر المفسرين ـ على أنه الأعدل أي المعتدل بين العسر واليسر. وأجاز أبو حنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيام.

﴿ أَوْ كِسْوَتُهُمْ ﴾ ولم تحدد الآية نوعها ومقدارها. ولكن نلاحظ أن الكفارة ترتقي من الأدنى إلى الأعلى ـ بين الإطعام والعتق ـ وقد وردت أقوال للعلماء في تحديدها من أجلها قول الإمامين مالك وأحمد: (يدفع لكل مسكين ما يصح أن يصلي فيه إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه). لأن الكسوة تختلف بحسب الظروف والزمان والمكان.

﴿ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾. وكثير من الذنوب جعل الله كفارتها تحرير رقبة.. وهي خطة لإلغاء الرق مع الأيام.. فالقرآن سبق التاريخ في ذلك.. حيث أن الناس لم يستطيعوا التخلص من نظام الرق حتى جاء القرن العشرون بآلاته ونظمه وأفكاره الجديدة.

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ﴾ فمن لم يستطع أن يفعل شيئاً من الكفارات السابقة فعليه الصيام. وبعضهم اشترط في صيام الثلاثة أيام أن تكون متتالية.. ولكن أكثر العلماء قالوا لا حرج في تفريقها. فمن لم يقدر على الصيام أيضاً لمرضه أو ضعف صحته فعليه التوبة والاستغفار ويرجى له عفو الله بحسن نيته.

﴿ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ فلا تحنثوا بها إلا إذا توخيتم الأفضل.. واحفظوا أيمانكم فلا تكثروا من الحلف.. فالصادق لا يحتاج إلى الحلف. واحفظوا أيمانكم فلا تتركوها دون تكفير.. كي لا تظلموا

أنفسكم وتحرموها من الارتقاء والتزكية.. وتبعدوها عن رضى الله.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ففي هذه الآيات والأحكام بيان لكم كي تهتدوا إلى طرق الارتقاء الإنساني.. وأساليب التحرر من الذنوب والتقرب إلى الله.. لعلكم تتذوقون نعمة الله عليكم في ذلك كله.. وتشكرونه على بيانه.. وعلى رحمته بكم إذ يفتح لكم الأبواب ويعلمكم الارتقاء..

ولا بد من التنبيه في ختام هذا الموضوع إلى أنه لا يجوز في الإسلام الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته قال ﷺ «من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله»[1]. والعبرة في اليمين بنية الحالف لا بظاهر لفظه. إلا عند التقاضي بين الناس فالعبرة بنية المستحلِف «اليمين على نية المستحلِف»[2].

٣ـ تحريم الخمر والميسر والأنصاب والأزلام:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾ وموضوع تحريم الخمر سبق أن تحدثت فيه في كتابيَّ (من هذي سورة البقرة)[3] و (من هدي سورة النساء)[4] فلقد جاء تحريمها على ثلاثة مراحل والآية هنا هي التي نصت على التحريم النهائي. ولهذا أوجز في الموضوع:

١ـ لم يبدأ الإسلام في علاج رذائل الجاهلية من هذه الرذائل بل اقتلع جذورها وأصلح التربة وغذاها بالغذاء الطيب.. فلقد ملأ النفوس بالإيمان بالله وحمل المسلمين رسالة كبرى تستغرق جهدهم ووقتهم.. وحرر العقول من الجهل والضلال والتقليد.. لقد شعر المسلم بكرامته كمخلوق متميز بعقله وإدراكه فكيف يضيع عقله وكرامته بالخمر.. ؟! وفتح الإسلام فرص العمل والرزق للجميع وأوجد حلولاً عادلة للفرد والأسرة في ظل المجتمع..

---

(١) رواه الشيخان في صحيحيهما.

(٢) رواه مسلم وابن ماجة. ولصاحب المنار تفصيلات مفيدة في الأيمان يرجع إليها.

(٣) راجع تفسير الآية ٢١٩ من البقرة.

(٤) راجع تفسير الآية ٤٣ من النساء.

فسقطت مبررات الخمر ودواعيها.. ثم جاء التحريم القاطع.

٢ـ جاء التحريم على دفعات.. وقد تبين الآن ميزة هذا الإسلوب في العلاج بشكل واضح.. لأن مادة (الكحول) تؤثر في جسم المدمن والانقطاع عنها فجأة يعرض الجسم لخلل مفاجيء..

ولهذا ينشئون المصحات والمراكز لمساعدة المدمنين على الخمر أو المخدرات ـ وحتى المدخنين ـ على الشفاء من هذه العلل.

وروي في سبب نزول الآيات أن سعد بن أبي وقاص قال: فيَّ نزل تحريم الخمر. صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فأتاه ناس فأكلوا وشربوا حتى انتشوا من الخمر وذلك قبل تحريم الخمر فتفاخروا فقالت الأنصار: الأنصار خير وقالت قريش: قريش خير فأهوى رجل بلحي جزور ـ أي ضربه بفك رأس بعير (أو ما يذبح للأكل) ـ فضرب على أنفي ففزره ـ فكان سعد مفزور الأنف ـ قال فأتيت النبي ﷺ فذكرت له ذلك فنزلت هذه الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر...﴾[١].

والآية هنا تقرن بين الخمر والأنصاب والأزلام.. فهي حرام كحرمة الشرك والدجل والخرافة.. ولقد عبر عن ذلك عمر رضي الله عنه ـ وكان يدعو قبل نزول هذه الآية: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً ـ حين نزلت الآية فقال: أقرنت بالميسر والأنصاب والأزلام ؟ بعداً لك وسحقاً[٢].

والخمر: كل ما خامر العقل وغطاه من الشراب. وقد عرفها عمر بأنها من خمسة أشياء: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير. ويبدو أن هذا ما كانت تعرفه العرب من الخمر.. وأما الآن فتصنع الخمر من مواد أخرى.. ولهذا يأتي تحديد النبي ﷺ دقيقاً وشاملاً بقوله: «كل مسكر خمر وكل مسكر حرام»[٣].

---

(١) رواجه ابن جرير وابن المنذر و..

(٢) راجع صفحة ٥٩ من الجزء ٧ من تفسير المنار.

(٣) رواه مسلم.

والميسر: هو القمار بكل أساليبه القديمة والمبتكرة: كل لعب يعتمد على الحظ (الصدفة) يراهن عليه بمال.

والأنصاب: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها. ويمكن أن يقاس عليه في عالمنا.. فكل شيء يعطيه الناس قداسة ويذبحون عنده وينذرون له.. فهو من الأنصاب.. والرسول ﷺ قال «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد..» ولكن الناس ما زالت تشد الرحال ـ تعظيماً وتقديساً ـ إلى قبور ومزارات ومقامات.. ما أنزل الله بها من سلطان. وفرق كبير طبعاً بين من يرحل للدراسة والإطلاع كما أمره الله (سيروا في الأرض) وبين من يرحل حاجاً ومعظماً..

والأزلام: سبق أن شرحناها في بداية السورة. وهي قداح وسهام كانوا يستقسمون بها في الجاهلية ـ فهي كالقمار في تحديد النصيب بدون عدل ـ ويمكن أن يقاس عليها ما يقال له (اليانصيب) الآن. كذلك كانوا إذا هموا بسفر أو أي شأن من شؤون حياتهم لجأوا إلى الأزلام يستفتونها.. وهو نوع من الدجل وتعطيل الفكر أنهاه الإسلام وشرع للناس الاستخارة الشرعية بعد الاجتهاد في الأمر. وقد ابتدع العامة طرقاً كثيرة تشبه الأزلام يرجعون إليها.. حتى أن منهم من يستعمل الآيات في المصحف وكأنها (أزلام جديدة).. يفتح المصحف فإن خرجت له آية من مثل ﴿أقبل ولا تخف﴾ أقبل على الأمر الذي هو فيه وكأنه أخذ جواباً من الله.. وإن خرجت ﴿يوسف أعرض عن هذا﴾ أعرض.!!.

هذه الأمور كلها وصفها الله بأنها ﴿رجس من عمل الشيطان﴾ فهي دنسة وليست من الطيبات. والرجس: هو المستقذر حساً ومعنى. وقد وردت في القرآن تسع مرات ليس فيها موضع يظهر فيه معنى القذارة الحسية إلا قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ﴾[1]. والباقي فسر على أنه قذارة معنوية.

---

(١) الأنعام: ١٤٥.

ولهذا اختلفوا في مادة (الغول أو الكحول) ـ وهي أساس الخمر ـ هل هي نجسة.. ؟ فالأرجح أنها غير نجسة والله أعلم. وهذه الأمور من عمل الشيطان ومن وسائله يحقق فيها مآرب كثيرة دنيئة ستذكر الآيات بعضها..

﴿فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن شارب الخمر يغيب عقله الذي يكفه عن كل معصية أو قبيح.

والاجتناب ليس مجرد الترك وإنما البعد وعدم الاقتراب.. مثل قوله ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾ فكأنك أنت في جانب مغاير وبعيد عن الجانب الذي فيه الخمر وشاربوها. كل ذلك رجاء أن تفلحوا في تزكية أنفسكم.. فإن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه.

وبعض الأتقياء يفهم من ذلك حرمة وجود مادة (الغول) في البلد الإسلامي.. ولا حرج في هذا النظر إن كان فيه مزيد من السلامة للمجتمع المسلم.. ولكن على الأطباء والعلماء أن يوجدوا بديلاً لهذه المادة في التعقيم.. وفي مزج عناصر الأدوية.. فكثير من الأدوية تستخدم فيها هذه المادة في مزج العناصر.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ولا تكتفي الآيات بالتحريم بل تمضي في بيان الأضرار من الخمر والميسر بالذات.. وشتان بين إرادة الشيطان بكم وإرادة الله سبحانه وتعالى التي بينها لكم في مواضع أخرى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[1] ..

فالله يريد أن يبين لكم ويهديكم ويتوب عليكم ويخفف عنكم..

والشيطان يريد أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة.

---

(١) سورة النساء: ٢٦ـ٢٨.

إن دراسة عواقب الخمر والميسر في الفرد والأسرة والمجتمع أمر مهم.. وقد بدأت الأمم تدرك الآن العواقب الوخيمة للخمر والمخدرات.. وأخذت تسخر وسائل الإعلام لصد الناس عنها وبيان أضرارها.

وينبغي الانتباه إلى كل الألعاب التي من شأنها أن تؤدي إلى هذه الأضرار: فساد العلاقة مع الناس وإهمال العلاقة مع الله.. فحكمها الكراهية وقد يصل إلى الحرمة بحسب الضرر. ولصاحب المنار كلام لطيف علق به على آراء العلماء في الشطرنج ـ إذ أن منهم من حرمه ـ يقول (وإنما عيب الشطرنج من أنه أشد الألعاب إغراء بإضاعة الوقت الطويل، ولعل الشافعي كرهه لأجل هذا. ونحمد الله الذي عافانا من اللعب به وبغيره. كما نحمده حمداً كثيراً أن عافانا من الجرأة على التحريم والتحليل بغير حجة ولا دليل)[1].

وصدق رسول الله ﷺ حين قال: «إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في أرض العرب ولكنه رضي بالتحريش بينهم». وهو يستخدم في ذلك أحدث الوسائل.. وفي الوقت الذي نتقاعس فيه نحن عن الاستغلال الإيجابي لما يجد من وسائل.. فإن الشيطان يكتسح الساحة ويسيطر على الموقف وتبقى الوسائل في خدمة أغراضه.

وهكذا تتمكن الآيات من الدخول إلى قلوب المؤمنين لتحدث التغيير المطلوب بشأن هذه الأمور الضارة فتبدأ بالتحريم وربط هذا المحرم بتخطيط الشيطان.. ثم تبين عواقبه الاجتماعية والدينية. ثم تختم ببلاغة مؤثرة:

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ ؟ وهو أعظم وقعاً على النفس العاقلة المؤمنة من أن يقال لهم: انتهوا.. وهكذا هتف المؤمنون عندما سمعوا الآيات تتلى عليهم في سكك المدينة: انتهينا.. انتهينا.. يقول أنس: كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة.. فإذا منادٍ ينادي. قال: اخرج فانظر. فإذا منادٍ ينادي: ألا إن الخمر قد حرمت. فجرت في سكك المدينة. قال: فقال

---

(١) صفحة ٦٣ من الجزء ٧ من المنار.

أبو طلحة: اخرج فأهرقها فهرقتها. فقالوا أو قال بعضهم: قتل فلان وفلان وهي في بطونهم ؟ قال فأنزل الله ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا..﴾[1].

هذا مع العلم بأن العرب كانوا في جاهليتهم مولعين بالخمر.. وحتى عندما نزلت آية التحريم قال بعضهم ما حرم علينا شيء أشد من الخمر[2]. وقد مر معنا أن عمر رضي الله عنه نفسه لم يكتف بما نزل فيها في سورتي البقرة والنساء وكان يقول: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً. فلما قرئت عليه آية المائدة ﴿فهل أنتم منتهون﴾ ؟ قال: انتهينا انتهينا[3].

وعن أبي سعيد الخدري قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «يا أيها الناس إن الله قد عرض بالخمر (أي لمح بأنه سيحرمها وذلك في آية البقرة وآية النساء) فمن كان عنده منها شيء فليبعه ولينتفع به» فلم نلبث إلا يسيراً حتى قال: «إن الله قد حرم الخمر فمن أدركته هذه الآية وعنده منها شيء فلا يشرب ولا يبيع» قال: فاستقبل الناس بما كان عندهم منها فسفكوها في طرق المدينة[4].

إن الأمر لم يحتج إلى أكثر من مناد ينادي: ألا أيها الناس إن الخمر قد حرمت.. بينما فشلت أمريكا في منعها رغم ما استخدمته من وسائل في حربها. وهنا يبدو الفارق بين سلطان الشريعة وسلطان القانون البشري.. وما زالت الشريحة العامة للبشر تذعن لسلطان الدين ـ بغض النظر عن صحته أو صحة فهمها له ـ أكثر مما تذعن لسلطان القانون البشري.. انظر مثلاً إلى مشاعر الناس تجاه الأعياد الدينية.. وقارن ذلك بشعورهم نحو الأعياد السياسية التي تروج لها وسائل الإعلام..!!

---

(١) ورد في الصحيحين.
(٢) أخرجه ابن المنذر عن سعيد بن جبير.
(٣) ورد في مسند الإمام أحمد وغيره.
(٤) أخرجه مسلم.

ومن المؤسف أن الذين يتولون توجيه الناس لم يستخدموا هذا الجانب بالشكل الذي يحقق ارتقاء الإنسان.. ويضمن السعادة والتراحم للانسانية.. بل لعلهم يستخدمون الشعور الديني للافساد والتفريق بين الناس حتى الآن. ويأتي التعقيب الداعم للحكم:

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أطيعوا الله فيما أنزل إليكم من آيات. وأطيعوا الرسول بما أضاف وشرح وبين لكم من أمر الله.. واحذروا.. احذروا الانزلاق وراء المعصية فإن عاقبتها وخيمة في الدنيا والآخرة. وهذا مثل قوله تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

إن المتأمل في هذه الآية يشعر بأنه يحمل المسؤولية وحده.. لأن الله أمر وبين العواقب والرسول قد بلغ.. والإنسان هنا هو صاحب الموقف.. وبيده تحديد مصيره.

وقد يلتبس على المسلم أن يسمع أثراً يفيد بأن رسول الله ﷺ كان يشرب النبيذ.. !!وهنا ينبغي أن ندرك أن النبيذ عند العرب كان هو النقيع. ورسول الله ﷺ كان ينبذ له الزبيب فيشرب منه ثلاثة أيام فقط[2].. ثم يأمر بأن يشربه الخادم أو يهراق.. لأنه يصبح مظنة للتخمر والإسكار بعد ثلاثة أيام.

وأما عقوبة شارب الخمر: فإن من يستعرض الآثار الواردة في ذلك يرى أنه ليس هناك حد واحد لكل حالة.. وإنما وردت أنواع متعددة من العقوبات ابتداء من التوبيخ إلى أن تصل إلى القتل.

وقد ثبت في أحاديث الصحيحين أنه كان يؤتى بالشارب في عهد النبي ﷺ فيضرب بالأيدي والجريد (أي أوراق النخل) والثياب والنعال. وعن أنس أن النبي ﷺ أتي برجل قد شرب الخمر فجلد بجريدتين نحو أربعين[3]. قال

---

(١) النور: ٦٣.

(٢) ورد ذلك في صحيح مسلم.

(٣) رواه مسلم.

وفعله أبو بكر. وفي عهد عمر استشار أصحابه في ذلك فقال عبد الرحمن: أخف الحدود ثمانين. أما علي رضي الله عنه فقال: إن هذا الحد لم يسن (أي لم يحدده رسول الله ﷺ).

يفهم من ذلك أن الحاكم المسلم يجتهد لكل حالة بما يناسبها.. فهناك فرق بين من غرر به فشربها.. وبين الشارب المدمن.. وهل يتخفى بمعصيته أم يجاهر بها..

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ وقد مر معنا أن الصحابة تساءلوا عن الذين ماتوا قبل التحريم.. وخاصة من استشهد في غزوتي بدر وأحد ـ مثل حمزة رضي الله عنه ـ وكانوا يشربون الخمر ويأكلون من الميسر. ولا بد أن المنافقين وجدوها فرصة لترديد هذا التساؤل تشكيكاً للمؤمنين بدينهم. فنزلت هذه الآية لتبين أنه لا مؤاخذة على المؤمن فيما أكل وشرب قبل نزول آيات التحريم.. وطالما أن المؤمنين في حالة تقوى والتزام لأمر ربهم فلا حرج ولا إثم عليهم فيما أكلوا وشربوا قبل نزول الحكم.. لأنهم التزموا بما أنزل عليهم قبل ذلك.. ولو أدركوا نزول الأحكام التالية لالتزموا بها.

والآية لا تعطي إباحة لمن شرب بعد التحريم.. ولا تتساهل في شرب القليل الذي لا يصل بالشارب إلى السكر.. فالقليل يؤدي إلى الكثير.. والآثار في السنة تدل على التشديد في أمر الخمر.. أذكر منها:

عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أتاني جبريل فقال: يا محمد إن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها والمحمولة إليه وبائعها ومبتاعها وساقيها ومسقاها»[1].

وقال ﷺ: «ما أسكر كثيره فقليله حرام»[2].

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح وابن حبان والحاكم.

(٢) رواه أحمد وابن ماجه.

وسأل طارق بن سويد الجعفي النبي عن الخمر وكان يصنعها فنهاه عنها. فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال ﷺ «إنه ليس بدواء ولكنه داء»[1].

والآية تلفت النظر بتأكيدها على التقوى ثلاث مرات والإيمان مرتين ثم الإحسان..!! فما هو القصد ؟! صاحب تفسير الظلال يقول أنه لم يطمئن إلى تعليل كافٍ في تكرار التقوى مع الإيمان ثم العمل الصالح ثم الإحسان..

وفي المنار جال في الموضوع من عدة جوانب. وقال: (إن الله تعالى كان قد عرض بتحريم الخمر قبل نزول آيات المائدة بما بينه في سورتي البقرة والنساء. واللبيب تكفيه الإشارة. فكان من لم يفطن لذلك مقصراً في اجتهاده. وربما كان ذلك لايثار الهوى أو الشهوة)[2]. فكأن الآية فيها عتاب ملفوف وبيان لرحمة الله في أنه لم يؤاخذهم بذلك إلى أن جاءهم التحريم القاطع والبيان الشافي في آية المائدة..

﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ وعليهم أن يراقبوا أنفسهم ويتعهدوا إيمانهم بالرعاية.. كي تزداد التقوى ـ وهي الالتزام بالحلال والحرام ـ ويزداد الإيمان ﴿ثم اتقوا وآمنوا﴾ فإن محاسبة الذات وتنمية الإيمان ستوصلهم إلى أعلى المراتب عند الله ﴿ثم اتقوا وأحسنوا﴾ وهي مرتبة الإحسان ـ أن تعبد الله كأنك تراه ـ وعندها يصبح العبد محبوباً من الله ﴿والله يحب المحسنين﴾ فاجتهدوا في التقوى والإيمان حتى تصلوا إلى مرتبة هؤلاء المختارين المحسنين. فكأنها إشارة إلى أن الله قد عفا عن ما مضى من أعمالكم ـ وما أكلتم وشربتم ـ طالما أنكم تجتهدون في طريق الإيمان والتقوى وتبذلون جهدكم للارتقاء.. فإن الله يأخذ بأيديكم ويرحمكم.. والله أعلم.

---

(١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود.

(٢) صفحة ٧٢ من الجزء ٧ من المنار.

٤ـ أحكام في الصيد:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾.

١ـ الابتلاء بالصيد: ويفتتح الحكم بنداء للمؤمنين ثم يخبرهم بأن الله سيمتحنهم في هذا الأمر.. وفي ذلك تقوية وتعزيز للإيمان في قلوبهم بحيث يواجهون الامتحان بتماسك أكبر وعن علم مسبق. وقد سبق أن بين في أول السورة عدم جواز الصيد للمحرم. وهنا يخبرهم الله بأنه سيبلوهم بالصيد السهل.

﴿ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ وأنتم حرم ـ كما ابتلي بنو إسرائيل بالحيتان تأتيهم في يوم السبت شرعاً ـ وترك ما يمكن تناوله بسهولة يدل على التقوى أكثر من ترك مالا يحصل عليه إلا بمشقة. ولئن فشل اليهود في هذا الإمتحان فإن المسلمين قد فازوا فيه فلم تقع منهم إلا مخالفات فردية نادرة. والغاية من ذلك:

﴿ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وعلم الله واسع: يعلم الغيب والشهادة.. ولكنه سبحانه لا يؤاخذ الناس بعلمه فيهم ـ بالغيب ـ حتى يتحقق ذلك في واقع أعمالهم وبذلك تقوم الحجة عليهم وتزول كل شبهة في عدل الله سبحانه وتعالى مع عباده.

والخوف الحقيقي من الله أن تخافه بالغيب ولو لم يطلع عليك أحد.. (أن تعبد الله كأنك تراه) وأن تستيقن أنه سبحانه يراك وإن لم تكن تراه. ومخافة الله بالغيب هي الضمان الأساسي للتمسك بأمر الله. وهو المحك الذي يمتحن فيه الإخلاص لله.. فمن كان يعمل رياء فإنه لا يلتزم إلا لشهود الناس.

﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ من اعتدى بالصيد وهو محرم بعد هذا الإعلام والبيان فله عذاب أليم في الآخرة.. وقيل في الدنيا بالتعزير والضرب لأنه لم يبالِ بحدود الله.

٢ـ الجزاء أو الكفارة لمن اعتدى بالصيد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ ﴾ قد يعجب القارىء من التأكيد والتكرار في النهي في موضوع الصيد لأنه يعيش في عالم أصبح الصيد فيه قاصراً على ظروف معينة كالنزهات والاستجمام.. ومحدوداً بهواية يمارسها بعضهم أحياناً.. وينسى أن الآيات نزلت في زمان ومكان مختلف.. فلقد كانت الحياة الاقتصادية عند العرب في جزيرتهم تعتمد في معظمها على الرعي والصيد والغزو.. ولم يكن العربي قد انتقل إلى المرحلة الزراعية تماماً.. وهي أرقى في سلم الحضارة من مرحلة الصيد.. فكأن هذا التحريم المؤقت للصيد على المحرم ـ إضافة إلى تحريمه دائماً في الأرض الحرام (مكة والمدينة) ـ يأتي كتمهيد لكسر التعلق بنظام الصيد.. والانتقال إلى مرحلة أرقى[1].. والله أعلم.

﴿ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ متعمداً: قاصداً لقتلها لا أنها ماتت خطأ ـ ضربها أو صدمها فماتت ـ ومتعمداً غير نسيان. واختلفوا فيمن قتل الصيد غير متعمد هل عليه الجزاء (الكفارة) ؟

بعضهم قال: من قتل الصيد خطأ فلا إثم ولا كفارة عليه (ومنهم صاحب الظلال) و بعضهم قال: جاءت السنة بوجوب الجزاء في الخطأ. والفرق أن المتعمد آثم وعليه كفارة بينما الآخر غير آثم (ومنهم ابن كثير). وهو رأي أكثرهم.

والمحرم لا يجوز له ـ عدا عن الصيد ـ قتل شيء من الحيوانات إلا الحيوانات الضارة التي تقتل إتقاء ضررها فلا جزاء على المحرم إذا قتلها.. قياساً على حديث عائشة في الصحيحين وفيه الإذن بقتل الفواسق الخمسة في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور.

﴿ فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾.. ومالا مقابل له من البهيمة يجزىء عنه ما يوازي قيمته.

﴿ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ ﴾.. ذكر أن أعرابياً أتى أبا بكر فقال: قتلت صيداً

---

(١) وهذا شبيه بما جاء في سورة التوبة من التنفير من حياة البداوة (الآية ٩٧).

وأنا محرم فما ترى علي من الجزاء فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبيّ بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال الأعرابي ؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك وأنت تسأل غيرك!! فقال أبو بكر: وما تنكر ؟ يقول تعالى ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ فشاورت صاحبي إذا اتفقنا على أمر أمرناك به[1].

﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ إذا حكم الحكمان ببهيمة تعادله كانت هدياً للكعبة تذبح في الحرم ويفرق لحمها على مساكينه.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ هل هذه الأنواع الثلاثة من الكفارة تأتي هنا على الترتيب ـ أي من لم يجد الأول فعليه الثاني.. ـ أم على التخيير.. ؟ جمهور الفقهاء على أنها التخيير. لأن الآية لم تقل (فمن لم يجد) بل (أو).

وهل الحكمان (ذوي العدل) هما اللذان يحددان العقوبة الرادعة المناسبة لهذا الفاعل ولأحوال الناس من هذه الأنواع الثلاثة ؟ هذا جدير بالتأمل.

﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ تعادل ثمن الهدي المحدد على أنه مثل ما قتل، يطعم بها مساكين.

﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ عن كل مسكين يصوم يوماً. أو يوماً عن كل مسكينين.

وهذه الأنواع الثلاثة هي التي ذكرت في فدية الحلق للمحرم في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[2] والنسك بمعنى الهدي هنا. وقد أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بحلق رأسه لما آذته القمل وأن يطعم ستة مساكين أو يهدي شاة أو يصوم ثلاثة أيام[3].

﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ والوبال هو سوء العاقبة. والآية تعلل وجوب الجزاء

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) البقرة: ١٩٦.

(٣) ثبت في الصحيح راجع صفحة ١١١ من الجزء ٧ من المنار.

وتبين الحكمة من العقاب حتى لا يستهين الناس بالأحكام.

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ فمن فعل ذلك قبل التحريم وفرض الجزاء فلا مؤاخذة عليه.

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من عاد إلى قتل الصيد وكرر هذا الذنب متعمداً فإن الله ينتقم منه في الآخرة وبهذا حرم من فرصة التكفير عن ذنبه في الدنيا لأنه يستهتر بحكم الله.. والانتقام هو المبالغة في العقوبة.. والتهديد بذلك في الآية يلفت النظر.. وإنه لأمر عظيم أن تنتهك مناسك الإحرام والحرم.. ويخرق الأمان الذي أعطي للحيوانات في هذه الفترات..

هذا مع الحيوان.. فكيف بمن يروعون الإنسان وينتهكون حرمة الأمن والسلام بحق الإنسان ؟!

٣ـ صيد البحر حلال في كل حال:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أما صيد البحر فهو معروف ولكن ما هو ﴿طعامه﴾ ؟! عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قرأ الآية وقال: «ما لفظه ميتاً فهو طعامه»[1]. ولذا قال بعضهم: مالا عمل للانسان ولا كلفة في اصطياده.

وقال آخرون: الصيد ما يصطاد منه طرياً. وطعامه: ما يتزود منه مملحاً ومجففاً.

وفي المنار يقول: (أحل لكم أن تصطادوا من البحر وأن تأكلوا الطعام المتخذ من حيوانه سواء صدتموه أنتم أو صاده لكم غيركم أو ألقاه البحر إليكم وسواء كنتم حلالاً أو محرمين)[2].

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ متعكم الله به سواء كنتم مقيمين أو مسافرين.. فهي ليست رخصة للمسافر أو المضطر فقط. هذا ما فهمناه حتى الآن وقد تكشف

---

(١) رواه ابن جرير.

(٢) صفحة ١١٤ من الجزء ٧ من المنار.

الأيام مزيداً من الوضوح أو فهماً جديداً..

﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ والخلاف في: هل إذا صاده غير محرم وأهداه لمحرم هل يجوز له أن يأكل منه أم لا ؟

الأقوى أنه يجوز لحديث أبي قتادة في الصحيحين أن رسول الله ﷺ أكل من صيد أبي قتادة.

﴿وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ اتقوا الله فلا تحلوا ما حرم عليكم.. كي تحموا أنفسكم يوم الحشر.

٤ـ الكعبة قيام للناس:

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي قياماً لأمر الدين ولأمر المعيشة فهي قيام لهم في دينهم ودنياهم. وهي منة كبيرة من الله على الناس. وفي ذلك بيان لحكمة تحريمها.. وتحريم الصيد على المحرم الذي يقصدها متعبداً. وكان العرب يحتجون على محمد ﷺ ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] ؟! والآن هل علم الناس قيمة هذا الحرم الآمن الذي يجبى إليه ثمرات كل شيء.. والذي تقوم به مصالح الناس في معاشهم ومعادهم ؟! يكفي أنه أقيم للناس ليمثل واحة أمن في بيداء هذه الحياة الهمجية التي لم يتحرر منها الناس حتى الآن.

﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ (فكان الرجل لو جرَّ كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يُقرب وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقربه. وكان الرجل لو لقي الهدي مقلداً وهو يأكل العصب من الجوع لم يعرض له ولم يقربه.. وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فأحمته ومنعته من الناس. وكان إذا نفر ـ أي عاد من الحج ـ تقلد قلادة من الإذخر أو من السمر ـ من نبات الحرم ـ فمنعته من الناس حتى يأتي

---

(١) القصص: ٥٧.

أهله)[1].

﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

٥ـ التعقيب:

فتأملوا كيف أقام الله للناس واحة أمان في المكان والزمان عجز الناس عن إقامة مثلها في أي مكان أو زمان.. إن هذا لدليل على علم الله بمصالح العباد.. وعلم الله بحاجاتهم وبما يحنون إليه في فطرتهم.. وعليم بكيفية التأثير عليهم حتى ينصاعوا لهذا التحريم فلا يستبيحوا هذه الحرمات..

أقف قليلاً لأراجع السطور التي كتبتها.. ثم أعود إلى الآية فأجد أنني لم أكتب شيئاً.. ما زالت الآية أكبر وأعظم من إدراكنا.. وعسى أن تفهمها الأجيال في المستقبل بشكل أفضل..

﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يعقب على الأحكام بالترهيب والترغيب كي تبقى نفس المسلم في حالة توتر بين الخوف والرجاء فلا تيأس ولا تسترخي.. ولكن تبذل الجهد اللازم.

﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ ولقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح للأمة.. وأصبح كل مسلم مسؤولاً عن نفسه ودينه.. وليس له أن يقول أنا لا أعرف الأحكام.. فالقرآن والسنة بين يديه وعليه أن يقرأ ويتعلم فإن ذنب الجاهل في هذا الزمان لا يقل عن ذنب من يعرف ويحرف.

ولقد سبق أن تحدثت عن أهمية البلاغ المبين عند قوله تعالى في هذه السورة ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾.. والأمة المسلمة مسؤولة عن التبليغ العالمي للإسلام وحسن التمثيل له حتى لا تصد الناس عنه بفهمها السيء وتطبيقها المهلهل. والرسول ﷺ لم يكن مبلغاً فقط بل كان مطبقاً ومنفذاً للقرآن في سلوكه حتى وصف بأنه كان قرآناً يمشي على الأرض «كان خلقه القرآن».

---

(١) رواه بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾ . ولهذا تفرد سبحانه بالثواب والعقاب في الآخرة . . وعلى الإنسان أن يلزم حده فيقبل من الناس ظاهرهم ويوكل سرائرهم إلى الله . . وأن يهتم قبل كل شيء بمراقبة ذاته وتطهير نواياه فإن خلجات نفسه مرصودة عند الله الذي يعلم السر وأخفى .

٦ـ لا يستوي الخبيث والطيب :

﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ ما زالت الآيات تعقب على المواضيع السابقة فالتشريع والجزاء مبني على أساس التمييز بين الخبيث والطيب وقد فتن الناس في هذا الموضوع لأنهم أعطو الأولوية للكثرة وصرفتهم الكمية عن سبر النوعية . . وعن دراسة عواقب الخبيث والطيب . فالخبيث مهما كان كثيراً لا يمكن أن يساوي الطيب في حلاوته وعواقبه . والآية شاملة في الأشياء والأموال والأفكار والأعمال . فالخبيث هو : الضار ـ الفاسد ـ الحرام الإثم . والطيب هو : النافع ـ الصالح ـ الحلال ـ البر . والخبيث من الناس هو : الظالم ـ الجاهل ـ المفسد ـ الفاجر ـ الكافر . والطيب من الناس هو : العادل ـ العالم ـ المصلح ـ البرُّ ـ المؤمن .

فالمال القليل الحلال خير من مال كثير يأتي عن طريق الرشوة أو الخيانة أو أكل أموال الناس بالباطل والغذاء القليل الجيد خير من الكثير الخاوي الرديء . . (وإن أفراداً من أولي البصيرة والرأي ليأتون بما تعجز عنه الجماعات من أهل الغباوة والخرق . والعالم الحكيم يسخر لخدمته ألوفاً من الجاهلين ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾)[1] .

وكم كان المشركون يتباهون بكثرتهم وكثرة أموالهم . . ولكن الله رد عليهم ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾[2] . لأنها لم تسخر لما فيه صلاحكم وصلاح الناس من حولكم . فهي خبيثة كالزبد ينتفش في البداية ويحتل

---

(١) صفحة ١٢٣ من الجزء ٧ من المنار .

(٢) سبأ : ٣٧ .

مساحة كبيرة ولكنه لا يلبث أن ينطفىء فلا يبقى له أثر. . ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾[1] . ولو كان قليلاً. . فهو الذي يبقى. لقد اندثرت عبادة الأصنام. . وانتهى تقديم القرابين البشرية. . وعاف الإنسان أكل لحوم البشر. . وقضي على النازية. . ويتجه الناس الآن إلى القضاء على العنصرية والمخدرات والتدخين. .

وكل هذه الأمور السالفة كانت أكثرية الناس تؤمن بها أو تمارسها في يوم من الأيام. . ولكن الخبيث يطوى ويزاح غير مأسوف عليه ويبقى الطيب النافع لينمو ويزدهر.

ينبغي أن نتذكر هذا جيداً حتى لا نفقد التوازن في بعض اللحظات الحرجة عندما يتصدى لنا الناس قائلين: (كل الناس لا يفهمون ؟! وأنت وحدك تفهم ؟!). . ولقد كان إبراهيم عليه السلام وحده عندما دعا إلى التوحيد. . وكل الناس كانوا على الشرك والوثنية. . !!

ومع ذلك فإن الذي يتصدى للإصلاح ينبغي أن يحسب للأكثرية حساباً. . لأن النتائج في الدنيا تأتي جماعية. . والإصلاح يحتاج إلى العدد الكافي من النوعية الطيبة. . فكما أننا نحتاج إلى العدد الكافي ـ والمتناسب مع تعداد الأمة ـ من الأطباء المتخصصين لجعل المجتمع يتمتع بمستوى صحي جيد. . وكذلك نحتاج إلى العدد الكافي من أطباء النفس والمجتمع والعلماء لتحقيق السلامة الفكرية والثقافية والاجتماعية. وبهذا لا نقصر اهتمامنا على الكمية وحدها أو النوعية وحدها. . وحتى يكون لنا دور إيجابي في التشريع بإزاحة الخبيث من حياة الناس. . يجب أن نمارس البلاغ المبين ونخصص أحسن ما لدينا من إمكانيات ووسائل لبيان العواقب الوخيمة للخبائث.

﴿قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ إن الآية تمثل قاعدة عامة وهامة استخلصت من موضوع خاص يتعلق بالحلال والحرام في الطعام. . وهي إحدى ميزات القرآن الحكيم. . الذي ينقلنا من مشكلة صغيرة خاصة إلى

---

(١) الرعد: ١٧.

استنتاج قاعدة عامة من قواعد الحياة. . انظر مثلاً عندما تحدث عن القتال كيف قال: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾[1]. وعندما يتحدث عن مشاكل الأسرة: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[2].

فالقرآن ينتقل بنا من حوادث خاصة لنستخرج منها قاعدة عامة (قانوناً أو سنَّة) وأحياناً يذكر القاعدة العامة (السنَّة) ثم يذكر عليها مثالاً. مثل قوله: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾[3]. . ثم يأخذ في تفصيل المثال: موسى وبني إسرائيل.

وهي تدريبات عقلية. . تعلم القارىء كيف يعقل الأحداث ويربطها بأسبابها. . وكيف يستخرج من القواعد والسنن حلولاً لمشاكله الخاصة. . إنها التربية القرآنية التي أنشأت العقل السنني المنظم القادر على أداء دوره في الخلافة على الأرض.

﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ إن الخطاب لأصحاب العقول الراجحة. . فهم الذين يدركون أهمية هذه الأفكار. . وهم الذين يعرفون كيف يستفيدون من سنن الله ليحصلوا على الفلاح. والمعادلة التي تحددها الآية بسيطة في تركيبها:

أولوا الألباب + تقوى ← فلاح. .[4].

ولكن تحقيقها يحتاج إلى استنفار للعقول حتى تطلب العلم وتمحيص للنفس حتى تلتزم التقوى.

---

(١) البقرة: ٢١٦.

(٢) النساء: ١٩.

(٣) القصص: ٥.

(٤) وهو نفس القانون الذي كررته قبل الآن: صواب - إخلاص = نجاح في الدنيا والآخرة.

٥ـ النهي عن السؤال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ وصاحب المنار يربط الآية بما قبلها: إن هذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن وقد جاء في أولها أن الله قد أكمل الدين.. وقبل آيات أشار إلى أن الرسول ﷺ قد أدى ما عليه من التبلغ.. فكأن الآية هنا تحذر المؤمنين من كثرة الأسئلة حتى لا يكون ذلك سبباً في كثرة التكاليف التي قد يشق على الأمة التزامها فتكون عاقبتها الخروج عن أمر ربها.

وقد ورد في نزول الآية عدة أخبار. أذكر منها:

عن علي قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً﴾ قالوا: يارسول الله أفي كل عام؟ فسكت. فقالوا: أفي كل عام؟ فسكت ثم قالوا: أفي كل عام؟ فقال: «لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم» فأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا..﴾الآية[١].

وعن ابن عباس «لا تسألوا عن أشياء» قال: هي البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي. ألا ترى أنه يقول بعد ذلك «ما جعل الله من بحيرة..»[٢].

وعن أنس بن مالك: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط وقال فيها «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قال فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم خنين ـ صوت البكاء ـ فقال رجل: من أبي؟ قال ﷺ «فلان» فنزلت هذه الآية[٣].

أمام هذه الأخبار ـ وغيرها ـ نرى كيف ينزل القرآن ليربي أمة فيهذب اسلوبها في الفهم.. ويعلمها الحكمة حتى تعرف متى تسأل ومتى لا يليق بها أن تسأل.. ففي بعض الأحيان يصبح السؤال مأموراً به ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[٤]. وأهل الذكر هم أهل القرآن.. وعلى السائل أن يسأل كل عالم

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) ذكره ابن جرير.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) النحل: ٤٣.

ضمن اختصاصه . . فلا يسأل عالم الفقه بالفرعيات عن شيء يتعلق بعلوم الفلك مثلاً . . ولا يسأل المتخصص في الحضارات وعلم الاجتماع عن ما يحل من أكل الذبائح . . ولا ننسى أن كل علماء الشريعة وعلماء (الآفاق والأنفس) هم أهل الذكر . . لأنهم يدرسون آيات الله . .

وأما الأسئلة المنهي عنها فهي أسئلة الاستهزاء والتعجيز والتشدد في الدين . . ومالا حاجة لكم به ـ كأن يسأل عن أمور ليست واقعية ويفترض أموراً خيالية وهم الذين قال عنهم صاحب الظلال (أرأيتيون) لأنهم يقولون : أرأيت إن حصل كذا فما الحكم ؟ ـ

وقد وصف الإسلام بأنه الحنيفية السمحة . . «ما جعل عليكم في الدين من حرج» فلمَ التشدد ؟! والرسول ﷺ يوجه أمته قائلا «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»[1] . . ويقول: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحد حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»[2] . وأبرز مثال على مساوىء الأسئلة في الأمم السابقة قصة البقرة . . فلقد قال موسى لبني إسرائيل ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾[3] فلو أنهم ذبحوا أي بقرة لأجزأت عنهم . . ولكنهم ما زالوا يسألون عن أوصافها حتى شدد الله عليهم وأصبحت البقرة المطلوبة نادرة المثال . .

ولا بد أن نلاحظ أمراً هاماً هنا وهو أن السؤال ليس هو الطريق الحقيقي للوصول إلى العلم ـ وإن شغل مساحة من الطريق ـ وإنما يحصل العلم بالسير في الأرض والملاحظة والقراءة والدراسة المستمرة . . ونتذكر في هذا المجال قصة الرجل الصالح عندما اشترط على موسى ﴿ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾[4] . . إن النظر وإعمال الفكر وبذل الجهد لفهم الأمور . . هو

---

(١) جاء في الصحيح كما يقول ابن كثير .
(٢) جاء في الصحيح .
(٣) البقرة : ٦٧ .
(٤) الكهف : ٧٠

التعلم. وإنك حين تكتشف الموضوع بعد دراسة وبحث تحصل على فائدة لا يمكن الحصول عليها بالسؤال.. ولهذا ورد عن النبي ﷺ «يكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال..». إن من يريد أن يتعلم عن طريق طرح الأسئلة لا يمكن أن يرى إلا جزءاً بسيطاً جداً من الموضوع.. لأن من يتولى الإجابة يعبر عن وجهة نظره فقط ـ وهو جانب واحد من الحقيقة ـ ثم أنه يعبر عن ذلك بأقل مما في ذهنه من الفهم.. والسائل لا يلتقط إلا جزءاً من الإجابة أيضاً.. فتكون حصيلته ضئيلة ومشكلته كبيرة لأنه ظن أنه قد فهم وتعلم وهو لم يرَ من الصورة إلا جزءاً صغيراً.. أما من يقرأ عن الموضوع في عدة كتب ويطلع على وجهات النظر المتعددة فيه ويتأمل الأدلة المختلفة ثم يسأل عالماً ليطلع على رأيه ودليله فهذا الذي يمكن أن يستفيد.

ولهذا لا بد لنا من الصلة الدائمة بعالم الكتب.. وملاحقة ما يصدر منها حديثاً.. ولهذا كان الأمر الأول الذي نزل من السماء على الناس «إقرأ».. فهذا هو طريق العلم والارتقاء..

وقد يقال إن شراء الكتب مكلف خاصة إذا كانت من المراجع والمصادر في علوم متعددة.. ومع إقراري بضرورة وجود المكتبات العامة التي تضم أكبر عدد من المراجع والمصادر وسائر الكتب.. وأهمية تيسير القراءة والإعارة فيها.. ولكن لا بد أن يكون لكل بيت مسلم مكتبته التي تضم بعض الكتب الأساسية.. وحين يشعر المجتمع المسلم بأهميه ذلك فإنه يمكن أن يدخل بعض التعديلات في عاداته وتقاليده لخدمة هذا الغرض.. مثلاً.. درج الناس في عالمنا على توزيع تحف صغيرة معبأة بالحلوى كضيافة في الأفراح والأعراس.. ولكن بدأنا نرى ظاهرة طيبة في الشباب المؤمن إذ أخذوا يستبدلون هذه التحف في أفراحهم بتوزيع الكتب كضيافة.. ومع الأيام يمكن أن تصبح بعض المراجع في التفسير والحديث والفقه.. جزءاً من (جهاز) العرس الذي تأخذه الزوجة معها إلى بيت الزوجية.. ويمكن أن نبتكر أساليب كثيرة في هذا المجال.. إضافة إلى ما ابتكره الشباب المؤمن حتى الآن من جعل الكتاب هدية عند الزواج وعند استقبال مولود جديد وفي عيادة المريض.. وعند التخرج من الجامعة.. والانتقال إلى بيت جديد..

والخلاصة أن الحكمة هي وضع الأمور في مواضعها.. وهي التي تعطينا الموقف المتوازن في الأسئلة بحيث نعرف متى نسأل.. ومن نسأل.. وكيف نسأل.. ولن يستفيد من الإجابة إلا من كانت له دراسة مسبقة ـ أو لاحقة ـ في الموضوع. ذلك هو الدرس البليغ الذي يعلمه القرآن لأتباعه.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ ولفظ (أشياء) عام مطلق يشمل العقائد والأحكام والفتاوى وأمور الدنيا ومسائل الغيب.. ﴿إن تبد لكم تسؤكم﴾ يشرحها قول الرسول ﷺ «وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»

﴿ وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ إن تسألوا عنها حين ينزل القرآن في موضوعها لكي تفهموا حدود ما يريد الله منكم فإن الله سيبينها لكم في قرآنه أو على لسان رسوله.

﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾. عفا الله عنها إما بسكوته عنها في كتابه الكريم فلم يفصل فيها تخفيفاً عنكم. أو عفا الله عن أسئلتكم قبل الآن مثل قوله ﴿عفا الله عما سلف﴾.

﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾. فالذين سألوا رسلهم في الماضي أن يأتوهم بآية.. ولكنهم مع ذلك عندما جاءتهم الآيات ـ المعجزات ـ كفروا بها. والذين أكثروا في السؤال عن الأحكام التشريعية ـ من الأمم السابقة ـ لم يعملوا بما بين لهم فيما بعد واستثقلوا ذلك..

ألم يسأل بنو إسرائيل نبيهم ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1]. فلما بعث لهم طالوت ملكاً نكصوا على أعقابهم ؟!.

يقول صاحب المنار: (والعبرة في هذه الآية أن كثيراً من الفقهاء وسعوا بأَقْيِسَتِهِمْ دائرة التكاليف وانتهوا بها إلى العسر والحرج المرفوع بالنص القاطع فأفضى ذلك إلى ترك كثير من أفراد المسلمين وحكوماتهم للشريعة بجملتها وفتح

---

(١) البقرة: ٢٤٦.

لهم أبواب انتقادها والاعتراض عليها. فاتبعوا بذلك سنن من قبلهم)[1].

وقد توسع صاحب المنار في تأمل الموضوع من جوانب عدة.. وبحثه جدير بالنظر وقد رأيت أن ألتقط منه بعض النقاط الهامة التي تصلح أن تكون عناوين لأبحاث هامة ينبغي أن يتأملها المسلمون.:

١ـ إن الله قد أكمل دينه كما جاء في أول هذه السورة ولا مجال للزيادة.

٢ـ وصف الإسلام بأنه دين يسر «إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه»[2] ورسول الله ﷺ يقول: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[3] و «هلك المتنطعون»[4]. أي المتشددون.

٣ـ وأما الأحاديث فينظر إليها من خلال قوله ﷺ «إنما أنا بشر مثلكم إذا أمرتكم بشيء، من أمر دينكم فخذوا به وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر[5]. وقال «أنتم أعلم بأمر دنياكم»[6].

٤ـ جاء النص على طاعة أولي الأمر وهم أهل الحل والعقد ـ العلماء المتخصصون في الأمة ـ وضرورة العودة إليهم في معرفة الأحكام وإدراك الفتاوى لما جد من قضايا.

٥ـ إن حسن اختيار الكتب هو نصف العلم. ولا بد من معرفة الماضي والحاضر لتحسين المستقبل.

٦ـ ولهذا يختزل صاحب المنار الجهد علينا باستعراض أهم العلماء (والمراجع) في تاريخنا.. الذين حاولوا التخلص من الابتداع والتكلف في تناول الأحكام فيذكر:

---

(١) صفحة ١٣٨ من الجزء ٧ من المنار.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه الشيخان.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه مسلم.

ابن حزم وكتابه: المحلّى في القرن الخامس.. ثم ابن تيمية في القرن السابع ثم تلميذه ابن القيم. ثم العسقلاني وكتابه: فتح الباري في القرن التاسع.. ثم الشوكاني وكتابه: نيل الأوطار في القرن الثاني عشر.

٧ـ وتناول رأي الأئمة في القياس وما يجوز منه وما لا يجوز.. حتى صرح الإمام مالك: بالتزام النصوص في العبادات واعتبار المصالح في المعاملات.. وكيف نما موضوع النظر في المصالح المرسلة وأبرز من بحث فيه نجم الدين الطوفي الحنبلي (توفي عام ٧١٦) من المشارقة وإبراهيم الشاطبي الأندلسي (توفي في ٧٩٠) من المغاربة. حتى أن الطوفي جعل رعاية المصلحة مقدمة على النص والإجماع عند التعارض. معتمداً في ذلك على حديث «لا ضرر ولا ضرار».

وتوصل صاحب المنار إلى أن (المعاملات) فقط هي التي تقبل الاجتهاد بحسب رؤية المصالح لكل عصر.. على أن يقوم بذلك أهل الحل والعقد ـ العلماء ـ لا الحكام.

وأخيراً أقول: ألا توحي لنا الآية والتوجيهات النبوية بترك السؤال.. باسلوب جديد في تربية الإنسان.. كأنه يقول: لا تسأل واعتمد على نفسك في تحصيل المعرفة.. فقد أعطاك الله عقلاً ووضع بين يديك آيات الكتاب وآيات الآفاق والأنفس.. فانظر وادرس واجتهد وراقب العواقب واستعمل عقلك في الربط ـ لأن العقل هو الربط ـ بين العواقب والأسباب الحقيقية لها.. تصل إلى الحق.

٦ـ محرمات الجاهلية من الأنعام هي إفتراء:

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ والصلة بين الآية وما قبلها واضحة.. فقد سبق أن نهى عن تحريم ما أحل الله.. ثم بين بعض المحرمات ثم نهى عن السؤال عن أشياء سكت الله عنها ـ وقد يكون بعضهم قد سأل عن هذه الأنواع التي حرمها الجاهليون ـ فيأتي البيان ببطلان افتراء الجاهلية في هذه الأنواع.. وبطلان تقليدهم.

أما البحيرة: فهي الناقة تلد خمس مرات آخرها انثى فتشق أذنها شقاً واسعاً ليكون علامة على تحريم أكلها وركوبها واستثمارها. وقيل البحيرة من الإبل يمنع درها للطواغيت ـ أي يصبح لبنها للكهنة فقط ـ

والسائبة: الناقة التي تسيب بنذرها لآلهتهم فترعى حيث شاءت لا يحمل عليها شيء ولا يجز صوفها ولا يحلب لبنها إلا لضيف. وكان عمرو بن عامر الخزاعي هو أول من سيب السوائب.

والوصيلة: الناقة (أو الشاة) تبكر بالأنثى ثم تثني بأنثى أخرى. فكانوا يذبحونها للطواغيت.

والحامي: الفحل من الإبل إذا أتم تلقيح عشرة أبطن. فيقولون: حمى ظهره. أي يحرمونه على أنفسهم.

﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إن هذا الإفتراء وهذا التحريم لا يدل على استفادة من العقل الذي منحه الله لهم.. فإدراكهم للأمور ليس فيه تعقل.. أي ربط بين الأسباب ونتائجها الحقيقية.. وإلا فما هو سبب الحرمة في هذه الأنواع؟ هل أمرهم الله بذلك.. ؟ وفي أي شريعة؟ أم ثبت لهم ضرر لحوم هذه الأنواع.. ؟

ويقاس على ذلك كل ما يحرمه الناس الآن على أنفسهم بدون دليل شرعي أو برهان عقلي..

٧ـ التنديد بالتقليد:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ إن الإكتفاء بما كان عند الآباء من أفكار أو أحكام أو عادات.. يعني إيقاف تيار العلم وتجميد العقول وتعطيلها.. هذا عدا عن كونه شركاً بالله وإخلالاً بالتوحيد في جانب الحكم والتشريع وإن ترك كل ما عند الآباء هو عودة إلى الحياة في الكهوف.. والعودة بالعلم إلى نقطة الصفر كي نبدأ من جديد..

ولهذا لا بد أن يوضع الأمر بين حدين: تقديس التراث ـ وإلغاء التراث.

ومالك بن بني يعبر عن فقدان الوسطية عندنا بقوله: أننا نتعامل مع الآخرين من خلال نظرتين: إما طاهر مقدس ـ أو دنس حقير. وفي الحقيقة إن هذا يعتبر اختياراً منا للأسهل.. فمن السهل أن تأخذ كل شيء في التراث. ومن السهل أن ترفض كل شيء فيه.. أما التمييز والانتقاء فإنه يحتاج إلى جهد ودراسة.

ولقد ندد القرآن بالتقليد في صوره الثلاثة واعتبره نوع من الشرك.

١ـ تقليد الآباء ـ أو الخضوع لعادات الناس وتقاليدهم ـ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[1].

٢ـ تقليد العلماء و (شيوخ الطرق) ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[2].

٣ـ تقليد الحكام والكبراء ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[3].

ووجه القرآن المسلم إلى طلب الدليل ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[4]. لأن التقليد اتباع بدون علم ولا دليل.. أما من أخذ رأياً لأنه اقتنع بدليله فلا يعتبر مقلداً.

ولهذا فقد نقل عن الأئمة الأربعة كلام متشابه في نهي الناس عن أخذ آرائهم بدون علم. وقالوا (بما معناه) لا يحل لأحد أن يأخذ برأينا ما لم يعرف دليلنا. خلافاً لما درج عليه المسلمون في عصرنا.. حتى أن بعض المصلحين والمربين ينهى تلاميذه عن الاستماع إلى آراء الآخرين وحضور مجالسهم وقراءة كتبهم.. إن هذا الموقف يعتبر نكسة في الاصلاح ودعوة صريحة إلى التقليد وتحديد مجال الرؤية.. كيف يمكن أن يتفق هذا مع التوجيه والتكليف الرباني ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

---

(١) البقرة: ١٧٠.
(٢) التوبة: ٣١.
(٣) الأحزاب: ٦٧.
(٤) البقرة: ١١١.

﴿وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[1] . . فكيف تشهد على الناس وأنت لم تطلع على أفكارهم وأوضاعهم ؟!

إن من لا يعرف ما عند الآخرين من خطأ وصواب ولم يطلع على ما وقعوا فيه من أخطاء وجهالات وما جنوا من عواقب على خطئهم وصوابهم . . لا يمكن أن يعرف قدر الخير الذي بين يديه . . ويبقى تمسكه بالصواب ـ الذي أخذه تقليداً ـ ضعيفاً مهلهلاً ينهار عنه أي امتحان .

ولهذا يؤكد القرآن على أهمية دراسة التاريخ وذكر أخبار بعض الأمم السابقة . . لأن هذه الدراسة تجعلنا نتحرر من العبودية للآباء وتقديس التراث . . فالتاريخ يرينا بوضوح كيف ينمو العلم وكيف تتخلص الإنسانية جيلاً بعد جيل من الآراء السابقة التي كشفت عدم صلاحيتها . . وتحتفظ بالأفكار النافعة وتبني عليها . . إن السير في الأرض والنظر أمر قرآني جليل طالما غفل عنه المسلمون فحرموا من بركات دراسة التاريخ ومراقبة ما يجري في الواقع من أحوال الأمم . . ولهذا نحن (غائبون) عن عصرنا . . لا نستطيع أن نقدم شهادة . . ولا تقبل شهادتنا في العالم . . وكأن الشاعر وصفنا نحن بقوله :

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأمرون وهم شهود

﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ؟!﴾ وإذا أردنا أن نغير الصورة فعلينا أن نبدأ من أولادنا ـ جيل المستقبل ـ فنتعامل معهم منذ صغرهم على أن يفتحوا عقولهم ولا يقبلوا منا كل أفكارنا وعاداتنا فإننا بشر نخطىء ولا حرج أن يكشفوا أخطاءنا ويرفضوها ضمن حدود الخلق والأدب في التعامل . ولا أمل لنا إلا بإنشاء هذه العقلية الجديدة .

٨ـ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ نداء للمؤمنين أن يهتموا بإصلاح أنفسهم بالعلم

---

(١) البقرة: ١٤٣ .

والعمل فإنهم مسؤولون عن أنفسهم أمام الله قبل أي شيء آخر. فإن استقاموا فلن يضرهم في الآخرة ضلال الآخرين. كقوله ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾. ولا بد من محطات نقف عليها قليلاً حتى نصحح المسار ونتجنب إساءة فهم الآية:

١ـ إن الله يقول ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإن من أصول الهداية: الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمؤمن لا يكون مهتدياً بمجرد إصلاحه لنفسه ولا بد أن يهتم بإصلاح غيره.

ولقد اهتم أبو بكر الصديق بتوضيح ذلك حين قام رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنكم تضعونها على غير موضعها. وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»[1] . . وقد وردت أخبار أخرى تحدثنا عن تصدي الصحابة لمن أساء فهم الآية.

٢ـ نفهم من هذه الأخبار أن معنى هذه الآية قد تعرض للتشويه والإساءة منذ وقت مبكر. . ويذكرنا هذا بخطورة التحريف الذي تعرضت له بعض آيات القرآن. وهو تغيير المعنى مع بقاء اللفظ. وقد تعرض القرآن للتحريف والكتمان. . ولا بد للعلماء أن يضاعفوا جهودهم لمكافحة هاتين الآفتين.

٣ـ إن نتائج الأعمال تأتي في الدنيا جماعية وفي الآخرة فردية. ولهذا نجد الآية تتوجه إلى المؤمنين كجماعة ﴿عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ فإذا كان الضالون مجرد أفراد في جماعة مؤمنة مهتدية فإن النتائج في الدنيا تأتي بحسب أعمال هذه الجماعة. أما حين يصبح المهتدون أفراداً في مجتمع ضال فإنهم سيتضررون في الدنيا بنتائج أعمال المجتمع الضال. . ولو أدوا واجبهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. . لأن أمرهم ونهيهم سيعفيهم من المؤاخذة في الآخرة. أما الدنيا فقانونها جماعي. . وهذا ما أشارت إليه الآية ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2] .

---

(١) رواه الإمام أحمد.

(٢) الأنفال: ٢٥.

٤ـ صاحب الظلال ينتبه عند هذه الآية إلى واجب الأمة المسلمة بين الأمم. . فالأمة المسلمة مسؤولة عن نفسها ولكن هذا لا يعني أنها لن تحاسب عن التقصير في دعوة الأمم إلى الخير. فقد كلفت الأمة المسلمة بالشهادة على الناس. ولكن كيف تؤدي الأمة المسلمة دورها وهي تمثل التخلف والاستضعاف. . ؟! إن عليها في البداية أن تصلح أمر نفسها ثم تتمكن من الشهادة على غيرها. . إن مشاكل تلوث البيئة ـ مثلاً ـ تهدد العالم كله. . لأن النتائج في الدنيا جماعية. . ناهيك عن التلوث الفكري الذي نتجرع آثاره السيئة لأننا نستنشق هذه المفاهيم المسمومة وليست لدينا أقنعة واقية. . وأكثرنا سادر غافل لا يدرك أنه يتردى في الهاوية.

٥ـ إن الآية تشير بوضوح إلى أن طريق التغيير يبدأ من النفس. . ومن عجز عن تقويم نفسه فهو أعجز من أن يؤثر في الآخرين. . وهو منهج يعاكس أهواءنا التي تبحث عن القذى في عيون الآخرين وتغفل عن (الجذع) في عيوننا. . من المؤسف أننا دائماً مشغولون عن إصلاح أنفسنا بمراقبة عيوب الآخرين والإفاضة في الحديث عنها. . فهلا نعود إلى (أنانيتنا) قليلاً ؟!

٦ـ لا بد من القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولكن بشروطه التي ذكرها العلماء والتي أشرت إلى بعضها في كتبي السابقة. وأذكِّر هنا ـ بإيجاز ـ بأهمها:

١ـ لا بد من أن يتوفر: العلم قبل الأمر ـ والرفق مع الأمر ـ والصبر بعد الأمر.

٢ـ أن تبدأ بتغيير المنكر الأساسي قبل التصدي للمنكرات الفرعية.

٣ـ إذا كان نهيك عن المنكر سيؤدي إلى منكر أكبر فالأفضل تركه.

٤ـ لا بد من تحصيل أفضل ما يمكن من الفنية للقيام بهذا الأمر واستخدام ما جدَّ من الوسائل في الإعلام والتأثير على الناس.

٩ـ الشهادة عند الوصية:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء فمات السهمي بأرض ليس فيها مسلم فأوصى إليهما ـ ولم يسلما بعد ـ فلما قدما بتركته فقدوا جاماً[١] من فضة مخوصاً بالذهب فاحلفهما رسول الله ﷺ بالله ما كتمتماها ولا اطلعتما.. ثم وجدوا الجام بمكة فقيل اشتريناه من تميم وعدي، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وإن الجام لصاحبهم وأخذ الجام. وفيه نزلت الآية[٢].

وعن ابن عباس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ هذا لمن مات وعنده المسلمون، أمره الله أن يشهد على وصيته عدلين من المسلمين. ثم قال ﴿ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فهذا لمن مات وليس عنده أحد من المسلمين[٣] أمره الله بشهادة رجلين من غير المسلمين. فإن ارتيب بشهادتهما استحلفا بالله بعد الصلاة: ما اشترينا بشهادتنا ثمناً قليلاً. فإن اطلع الأولياء على أن الكافرين كذبا في شهادتهما.. قام رجلان من الأولياء فحلفا بالله إن شهادة الكافرين باطلة فذلك قوله تعالى ﴿فإن عثر على أنهما استحقا إثماً﴾ يقول إن اطلع على أن الكافرين كذبا قام الأولياء فحلفا أنهما كذبا. ذلك أدنى أن يأتي الكافران بالشهادة على وجهها أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم فتترك شهادة الكافرين ويحكم بشهادة الأولياء[٤]..

﴿ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي أن حكم ما يقع بينكم من الشهادة إذا حضرت أسباب الموت.. أن يوصي ويشهد اثنان من المسلمين ﴿ذوا عدل منكم﴾. فإن لم يوجد من المسلمين فآخران من غيرهم ـ وقد لا يحدث هذا إلا عند السفر ـ وفي ذلك دلالة على الاهتمام بأمر

---

(١) الجام: نوع من الآنية.

(٢) أخرجه البخاري في تاريخه والترمذي..

(٣) والآية تقول أن هذا يحدث في حالة سفر.

(٤) أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

المال وأن لا يهدر ولا يهمل حتى ولو كان المحتضر في مكان ناءٍ ولم يجد أحداً من المسلمين يعهد إليه. . إن الله يهتم بالتشريع لهذه الحالة ووضع ما يمكن من الضمانات لإحقاق الحق وإعادة المال إلى مستحقيه. . فيؤكد على المحتضر أن يقوم بالأسباب وهي: الوصية والاشهاد. . ثم يتابع الحاكم ـ أو القاضي ـ تتمة القضية.

﴿تحبسونهما من بعد الصلاة﴾ قيل أن المقصود صلاة العصر ـ وأن الرسول ﷺ استحلف الرجلين بعد صلاة العصر ـ ولصلاة العصر وقع خاص فهي الصلاة الوسطى. . وفيها تلتقي ملائكة الليل والنهار. . فيكون اختيار الوقت دقيقاً بحيث تجتمع فيه أسباب الخشوع.

فإن كان الشاهدان من غير المسلمين فالأولى أن يستحلفا في وقت بعد صلاة أهل دينهما ليكونا في حالة خشوع. . وقد ذكر عن ابن عباس أنه أشار بذلك على أبي موسى الأشعري ـ وكان والياً على الكوفة وحدثت عنده مثل هذه الحادثة ـ عندما أراد أن يستحلفهما بعد العصر فقال له: إنهما لا يباليان. ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما.

ونص القسم فيه تذكير ورهبة. . إذ عليهما أن يقولا:

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا﴾ لا نشتري بيمين الله ثمناً. . ولا نتاجر باسم الله. . ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ ولو كان ذلك في مصلحة أحد أقاربنا.

﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ﴾ وهكذا يوضع الشاهد في أحسن ظروف الخشوع. . فقد اختار الله للشهادة أقدس مكان (المسجد) وأخشع زمان (بعد الصلاة). . فالزمان والمكان والكلام المناسب لها تأثير على مشاعر التقوى والخشوع. . فاستخدموا ذلك كله لتزكية الإنسان وإحقاق الحق.

وإنه لموقف جميل نجده هنا. . حيث يعلمنا الله أن نقدر ونحترم ما عند أصحاب الديانات الأخرى من إيمان بالله وخوف من سخطه. . إن هذا الرصيد يمكن أن يستثمر في إحقاق الحق وفي إثراء العلاقات الإيجابية بين المسلمين وغيرهم. . فهل ندرك أهمية ذلك. . ؟!

﴿ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا﴾ بأن كشف أنهما أخفيا شيئاً. . ترد اليمين إلى الورثة الذين كشفوا. . ويقوم اثنان من أولياء الميت ليشهدا:

﴿ فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَـٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَـٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَـٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ظالمين بحقهم وبحق أنفسنا إن افترينا الكذب.

﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَـٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ﴾ إن اتخاذ هذه التدابير كلها يساعد على دفع الشهود على الشهادة بالحق.

﴿ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَـٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۗ﴾ أي يخافوا الفضيحة بأن يأتي من يشهد بخلاف شهادتهما. وذكر أن على الإمام أن يعظهما قبل أن يحلفا ويهددهما بالفضيحة إن كتما وأن لا تقبل لهما شهادة بعدها. . فيشعرهما ذلك بالرهبة والخوف من سقوط اعتبارهما وإلحاق الخزي بقومهما. .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ﴾ فإن التقوى هي الضمان الأول في إحقاق الحق رغم كل الاحتياطات التي اتخذت. . ووجودها أهم من أي شيء آخر. .

﴿واسمعوا﴾ سمع إجابة وقبول. . فإن من الناس من يقول بلسانه سمعنا وبأعماله: عصينا.

﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ فإن من أعرض عن السمع والطاعة يكون فاسقاً محروماً من عطاء الله وهدايته. والعلاقة واضحة ووثيقة بين عمل الله وعمل العبد.

(قال الرازي بعد تفسير الآية الثانية: اتفق المفسرون على أنها في غاية الصعوبة إعراباً ونظماً وحكماً. . وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: هذه الآية أعضل ما في السورة من الأحكام)[1] ويقصد بالعضل: التضييق على الشهداء بحيث يصعب عليهم الكتمان والاحتيال.

وقد يقال: إننا الآن صرنا نملك وسائل إثبات أو وسائل لحفظ الوصية والمال

---

(١) صفحة ٢٢٤ من الجزء ٧ من المنار.

غير ذلك.. ؟! لا حرج من استخدام ما جدَّ من وسائل.. ولكن لا ننسى أن شريعة الله قد أعطت حلولاً حتى لمثل هذه الحالات الخاصة.. وقد كانت واقعاً معاشاً في جزيرة العرب. ولا حرج في أن يتوقف العمل بالحكم إن فقدت الحالات التي شرع لها.. فلقد توقف العمل بأحكام الرقيق لانتهاء الرق في حياتنا.. ولا ننسى أن كتاب الله يمكن أن تنبثق منه صور متعددة من المجتمع الرباني لأن فيه الأسس الثابتة.. والقواعد المرنة.. والأحكام العامة والأحكام المرحلية.. ولا يكون القرآن صالحاً لكل زمان ومكان إلا إذا كان قادراً على استيعاب الحياة المتطورة المتغيرة في كل عصر.

وهكذا تختتم هذه المجموعة الثانية من الأحكام بهذا الحكم الذي يتعلق بتنظيم المال الذي هو عصب الحياة.. والتشديد على الوصية والشهادة والائتمان والتقوى في قضايا المال.. وهي من أخطر القضايا في المجتمع.. وفيها يمتحن المؤمن حق الامتحان..

ويعود السياق مرة أخرى إلى محاجة أهل الكتاب.. وهما الموضوعان الأساسيان الذان دارت حولهما السورة: الأحكام. ومحاجة أهل الكتاب.

٨ـ عيسى والحواريين والمائدة (١٠٩ـ١٢٠)

١ـ سؤال الرسل ماذا أجبتم:

والآية تعرض علينا مشهداً من القيامة يجمع الله فيه الرسل ويسألهم.

﴿۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾

والآية تعتبر همزة وصل بين ما سبقتها وما يأتي بعدها.. فهي مدخل للحديث عن عيسى ومساءلته.. وكأنها تتمة للجملة الأخيرة التي سبقتها ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ إلى النجاة يوم يجمع الرسل. والمشهد يجمع الله فيه الذين تفرقوا في الزمان والمكان فإذا هم في زمان ومكان واحد. وتواجه البشرية برسلها.. ويسأل الله الرسل: ماذا أجبتم ؟

والموقف شبيه بما جاء في سورة النساء ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴾ (١) .

هؤلاء هم رسل الله الذين اختارهم وشرفهم . . خاشعين يستشعرون هول الموقف والسؤال أمام الله . . بكى رسول الله ﷺ عندما سمع قارئاً يقرأ ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ . . هؤلاء الرسل في ذلك اليوم يقولون: لا علم لنا . . فعلمهم اقتصر على ظواهر الناس في عصر معين . . بينما الله يعلم المؤمن من المنافق . . علمهم لا يساوي قطرة في بحر علم الله الذي أحاط بالزمان والمكان وبأغوار النفوس وظواهرها . . أحاط بكل شيء علماً . . ولهذا يعتذر الرسل عن الإجابة ويعترفون بأنهم لا علم لهم ويردون العلم لله . . تأدباً وخشوعاً . .

﴿قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب﴾ إنهم يريدون أن يسمعوا حكم علام الغيوب .

٢ـ تخصيص عيسى بالسؤال :

وذلك لأن قومه فتنوا فيه . . وخاض الناس في أساطير وأوهام حول ذاته وولادته ونهايته .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ويفتتح السؤال مع عيسى بالتذكير بنعم الله عليه .

﴿اذكر نعمتي عليك﴾ باصطفائك وإعطائك المعجزات مما سيعدده الله . . وعلى والدتك باصطفائها وتطهيرها وإظهار براءتها من الفاحشة وجعلها في هذا المركز السامي من قلوب الناس في الدنيا . . ويعدد بعض النعم :

١ـ ﴿إذ أيدتك بروح القدس﴾ جبريل عليه السلام .

---

(١) النساء: ٤١ .

٢ـ ﴿ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ وكان كلامه في المهد أول معجزاته. . وجاء بمثابة البراءة لأمه عندما أنكروا عليها وقد جاءت بولدها تحمله. . ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا. . ﴾[١] .

٣ـ ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ قد يكون القصد بالكتاب: أي قراءة ما يكتب والكتابة بالقلم. وقد يكون الكتاب بمعنى الأوامر الإلهية التي جمعت في الكتب السماوية.

والحكمة: هي العلم الصحيح وإدراك مقاصد الشريعة وفوائدها. وهي (وضع الأمور في مواضعها) ومن يقرأ في الإنجيل يُعجب بقدرة عيسى عليه السلام في الفهم والحكمة. . ولقد أذهل أحبار اليهود بتحرره من شكليات الأحكام التي جعلوا منها لب الدين. . بينما كان هو يحيي روح الدين ويحكم على ضوئها. من ذلك أنهم أنكروا عليه أن يعظ في يوم السبت ويشفي المرضى بينما قال هو: السبت من أجل الانسان. وتعجب الأحبار يوماً لأن عيسى كان يجالس الخطاة (فلما نظر الفريسيون ـ أي الأحبار ـ قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟ فلما سمع يسوع قال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. . لم آت لأدعو أبراراً بل خطاة إلى التوبة)[٢] . (إن من أراد أن يخلص نفسه يهلكها. ومن يهلك نفسه من أجلي يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه ؟!)[٣] . (ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون. . ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تُنَقُّون خارج الكأس والصحفة وهما من داخل مملوءان اختطافاً ودعارة. . إنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة)[٤] .

---

(١) مريم: ٢٩.
(٢) انجيل متى الاصحاح ٩.
(٣) انجيل متى الاصحاح ١٦.
(٤) الاصحاح ٢٣.

٤ـ المعجزات: ﴿ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ﴾ والأكمه من ولد أعمى ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾.. وفي الأناجيل أنه أحيا ثلاثة موتى.. ونلاحظ تكرار كلمة (بإذني) عند كل معجزة أعطيت لعيسى.. وذلك لرفع شبهة الألوهية عن عيسى.. فما هو إلا عبد أنعم الله عليه واصطفاه وأذن له أن يقوم بهذه المعجزات.

والمعجزة: هي حادثة تحدث بغير الأسباب المعروفة يؤيد الله بها أنبياءه.. وقد أعطي كل نبي معجزات تناسب قومه وعصره.. وأما معجزة محمد ﷺ فكانت هي القرآن.. وذلك أن البشرية ارتقت وبدأت تدخل سن الرشد.. ولا بد لخاتم الأنبياء أن تكون معجزته خالدة لا تنتهي بوفاته ـ كمعجزات الأنبياء من قبله ـ وصحيح أنه قد ثبت في السيرة وقوع بعض الحوادث التي تعتبر من المعجزات ـ مثل الإسراء والمعراج ـ ولكن لم تكن هي السبب في إيمان الناس.. وإنما الذي حمل الناس على الإيمان كان هو القرآن. إن معجزة محمد ﷺ باقية بين أيدينا.. بل إن نمو العلم قد أيّدها وزادها قوة.. وفطرة الإنسان ما زالت متعطشة للخير.. والأمر لا يحتاج إلا إلى دعاة إلى الله يقومون بتبليغ القرآن وبيانه.. ولكن كما قال عيسى (عليه السلام) (الحصاد كثير ولكن الفَعَلَة قليلون فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده)[1].

ومما لا شك فيه أنه قد مضى زمن المعجزات.. والكشوف العلمية الآن تنجز أشياء تشبه المعجزات.. ولكن المبادىء والعقائد ونظم الحياة لا يحكم عليها الآن إلا بما تقدم من نتائج وعواقب فالنتائج والعواقب ـ من الآن فصاعداً ـ هي التي ستقوم بدور المعجزات في إدخال الناس إلى الدين أفواجاً.. وهو ما سبق إليه القرآن حين أمر بدراسة التاريخ ورؤية العواقب وجعلها مرجعاً في الحكم.

٥ـ ﴿ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ

---

(١) انجيل متى الاصحاح ٩.

﴿إِنَّ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وهي إشارة إلى حماية الله لعيسى من كيدهم وأنهم أرادوا قتله وصلبه فحماه الله منهم.

٦ـ ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ والحواريون: جمع حواريّ وهو من خلص لك وأخلص سراً وجهراً في مودتك. وفي اللغة: الأبيض النقي اللون. والوحي إليهم: قد يكون إلهاماً لهم أن يؤمنوا.. أو ما أنزل على أنبيائهم من الوحي.. والله أعلم.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾. فالقرآن يقرر هنا أن الحواريين كانوا يؤمنون بالله وبأن عيسى رسوله ـ وليس ابنه كما يدعي النصارى ـ وأنهم أعلنوا إيمانهم وأشهدوا عيسى على إسلامهم. فالإسلام هو دين الله الصحيح الذي نزل على أنبيائه كلهم ومعناه الاستسلام لله وطاعة رسله.

٣ـ طلبهم نزول المائدة:

﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي المرة الوحيدة التي تذكر فيها هذه القصة في القرآن.

والآية تدفعنا إلى العجب.. هؤلاء الحواريون هم النخبة المخلصة من قوم عيسى.. وقد رأوا من معجزاته ما رأوا.. ومع ذلك فهم يطلبون خارقة جديدة حتى يعلموا أن عيسى قد صدقهم[1] !!.

لقد عرف اليهود بتعنّتهم ولجاجتهم على مدى الزمن.. كذلك فإن كلام الحواريين يدل على مستوى العصر الذي كانوا فيه وتعلق الناس بالخوارق وأن المؤمنين أيضاً ـ وليس الكافرون وحدهم ـ كانوا يطلبونها.

﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً﴾؟ إن هذا الكلام لا يليق بالحواريين.. !!

ولهذا وقف المفسرون عندها.. فمنهم من قال إنها مأخوذة من الطاعة

---

(١) صاحب الظلال يقارن هنا بين موقف الحواريين ومواقف الصحابة.

والاستجابة. . فهي بمعنى: هل يستجيب لنا إن طلبنا منه ذلك ؟ وليست بمعنى القدرة والاستطاعة.

وذكرت قراءة ثانية للآية عن علي وعائشة وابن عباس ومعاذ (هل تستطيع ربَّك) وفيها محذوف يقدر بـ(هل تستطيع سؤال ربك).

على كل حال فالآية تدل على أن الحواريين كانوا يعرفون أن عيسى بشر (ربك) وأن المعجزات من عند ربه. . ولهذا لم يسألوا عيسى بل رب عيسى.

﴿ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . . يعظهم عيسى بقوله اتقوا الله فإن من شأن المؤمن الصادق الإيمان أن لا يجرب ربه. اتقوا الله وقوموا بما يوجبه عليكم الإيمان من عمل وتوكل. . فإن ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1] . ولكنهم أصروا في الطلب. . وقيل أنهم كانوا بحاجة إليها.

﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ وفي الدعاء أدب العبد مع ربه: اللهم. . ربنا. . الإقرار له بالألوهية والربوبية. ﴿تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا﴾ تعمنا بالخير والفرحة كالعيد. . أو تصبح ذكراها عيداً لأتباعي إلى آخر الزمن. وتكون آية ومعجزة منك. . وارزقنا فيها وارزقنا الشكر عليها فأنت خير الرازقين.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فهل استجاب الله لهم وأنزل عليهم مائدة ؟في الأمر خلاف. . بعض التابعين قال لم تنزل ومنهم مجاهد فقد نقل عنه أنه قال: هذا مثل ضربه الله ولم ينزل شيء[2] . وفي رواية أخرى عن مجاهد أنهم أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم[3] . وكذلك قال الحسن. ولكن أكثر السلف

---

(١) الطلاق: ٢ـ٣.

(٢) رواه ابن كثير في تفسيره.

(٣) رواه ابن جرير.

على أنها نزلت. ومع ذلك فإن هذا الأمر ليس مهماً.. سواء نزلت أم لم تنزل فنحن نؤمن أن الله قادر على كل شيء. وجهلنا بتحقق نزولها لا يضرنا بشيء. وإنما المهم أن نعتبر بمواقف الأنبياء وأتباعهم.. وكيف يكون أدب المؤمن مع الله.

والمتأمل في الأناجيل قد لا يرى ما يدل بوضوح على هذه الحادثة. ولكن في انجيل يوحنا ـ الفصل السادس ـ أن المسيح عليه السلام ذهب إلى بحر الجليل (طبرية) وتبعه خلق كثير لأنهم رأوا آياته. فصعد إلى جبل وجلس هناك مع تلاميذه ـ وكان الفصح عيد اليهود قريباً ـ وأراد أن يطعم الناس ولم يكن معهم طعام.. إلا خمسة أرغفة شعير وسمكتان كانت مع غلام بينهم. فقال يسوع اجعلوا الناس يتكئون.. فاتكأ الرجال وعددهم خمسة آلاف وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ والتلاميذ على المتكئين.. وكذلك من السمكتين.. ثم عاتب عيسى تلاميذه وقال لهم: اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي.. فقالوا له: ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ؟ أجابهم: أن تؤمنوا بالذي هو أرسله. فقالوا له: فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك.. آباؤنا أكلوا المنَّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا. فقال لهم يسوع:.. ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء.. لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم.. أنا هو خبز الحياة من يقبل إلي فلا يجوع.. قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون. (انتهى). يقول صاحب المنار (فهذه القصة أولها يشير إلى المائدة الجسدية وآخرها يشير إلى المائدة الروحية. وقد وقعت في عيد الفصح المتفق عليه عند اليهود والنصارى إلى اليوم. ولا يزال النصارى يحتفلون به ويأكلون فيه خبزاً ويشربون خمراً باسم المسيح ويسمونه العشاء الرباني)[1] ـ وهم يعتقدون أنهم يأكلون من جسد يسوع ويشربون من دمه فلهم الحياة الأبدية ـ بزعمهم ـ

فقد يكون أصل (العشاء الرباني) عندهم هو حادثة المائدة.. وقد يكون

---

(١) صفحة ٢٦٠ من الجزء ٧ من المنار.

أمرها منسي عندهم. والله أعلم. ولكننا نتساءل: لماذا أدخلت هذه القصة هنا ضمن الآيات التي تتحدث عن مساءلة عيسى في الآخرة وتذكيره بنعم الله عليه ؟!

أقرب صلة هو أن نقول أنها تتمة لتذكير عيسى بنعم الله عليه.. فلقد استجاب الله له ومنحهم الطعام حين طلبه الحواريون.. كما أن في القصة نقاطاً هامة من شأنها أن تؤكد بشرية عيسى وهي أهم نقطة يتوجه إليها السياق.

٤ـ براءة عيسى من ادعاء الألوهية:

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ ﴾ ما زلنا في المشهد العظيم الذي بدأت به آيات هذا القسم ﴿يوم يجمع الله الرسل﴾ والحوار مع عيسى الآن حول انحراف خطير حدث في ديانته من بعده. ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين﴾ ؟!

والله سبحانه يعلم أن عيسى ما قال ذلك ولكن هذا السؤال على رؤوس الأشهاد وعلى مرأى من العالمين يقصد به إقامة الحجة على المنحرفين.. على طريقة (إياك أعني واسمعي يا جارة) وإظهاراً لشناعة ذلك. ويرتاع عيسى ـ عليه السلام ـ ويدهش ويتبرأ من هذه الفرية العظيمة:

﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾.. فهو يسارع في تنزيه الله عن الشرك ويتبرأ هو من هذا الافتراء.. فكيف حدث هذا ؟! إن تتبع بدايات الانحراف جدير بالدراسة لأن رؤية كيف يبدأ تكوُّن الانحراف يساعد على صيانة فكر الأمة وثقافتها من الزلل.. وتعتبر مثل هذه الدراسات تطبيقاً لأمر الله ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾[1].. ولكنها مع الأسف ضعيفة في عالمنا.. حيث أهملت آيات من القرآن ولم يلتفت إليها الباحثون حتى كأنها لم تكن.. وحين فصل المسلمون آيات الكتاب عن آيات الآفاق والأنفس.. تسربت آيات الكتاب من بين أيديهم وحرموا من هدايتها.

---

(١) العنكبوت: ٢٠.

كل الذي نعرفه أن النصارى تفرقوا إلى شيع كثيرة في موضوع عبادة عيسى وأمه. وكانت الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين متفقة على عبادة عيسى ومريم. ثم أنكرت فرقة البروتستانت عبادة مريم في القرن السادس عشر. وبأدب العبد الخاشع لربه يتابع عيسى دفاعه عن نفسه:

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ وبعد أن يدعم براءته بعلم الله وشهادته.. بعد هذه التسبيحة والإنابة إلى الله.. يعرض ماذا قال لهم:

﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ ﴾ ثم يبين ويحدد ما الذي أمره الله أن يبلغهم:

﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ ﴾ وفي ذلك إعلان للخضوع الكامل لله ﴿ربي وربكم﴾ كلانا عبيد له.. ويبين أنه أدى دور الشهادة عليهم في حياته.. وأما بعد مماته فكيف يكون مسؤولاً عن تقويمهم؟

﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ فأنت أعلم بما غيروا من بعدي وبما أجرموا.. وهذا الموقف شبيه بموقف محمد ﷺ عندما كان يحدث أصحابه عن القيامة فقال: «ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي؟ فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد. إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم...﴾ فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم»[1].

وبعض الباحثين يقول عن الآية ﴿فلما توفيتني﴾ إنها نص صريح بوفاة عيسى.. والله أعلم متى كان هذا ولا أحب أن أقف كثيراً عند هذا الموضوع.. لأن الله قادر على كل شيء.. سواء إن كان رفع أو مات أو.. ولا ينبغي أن يفهم من ذلك تعارض الآية مع الأحاديث الواردة بأن عيسى حي عند الله.. فإن الله

---

(١) رواه البخاري.

تعالى يقول عن الشهداء أيضاً بأنهم أحياء عند ربهم.. ولكن لا نعلم نحن كيفية هذه الحياة.

فالأهم من ذلك أن نتملى هذا الموقف الشديد والمشهد الرهيب.. وملايين البشر ممن آمنوا بالتثليث أو بألوهية عيسى.. وهم محشورون.. يسمعون هذا الحوار وتنقطع فيهم حبال النجاة.. ويتخلى عنهم عيسى:

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ ولم يقل الغفور الرحيم..! وذلك أن الخطيئة التي وقعوا فيها كبيرة (الشرك) فحكمك فيهم لا يرده أحد لأنك عزيز.. وتحكم بما يستحقون.. فأنت حكيم تضع العفو في مكانه والعذاب في مكانه.. فياله من ابتهال رصين لا يخلو من الاسترحام..

ذكرت موقف النبي ﷺ وقد تلا مرة قول عيسى ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك...﴾ فرفع يديه فقال: «اللهم أمتي» وبكى. فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم ـ فاسأله ما يبكيك. فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال.. فقال الله: يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك[1]. وفي رواية أنه ﷺ قام بهذه الآية ليلة كاملة. فلما سئل قال ﷺ: «سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً».[2]

ذكرت ذلك فهزّتني محبة رسول الله ﷺ لأمته وشدة إشفاقه عليها.. ورجوت أن لا أكون من المشركين وليس ذلك بالأمر السهل.. فالشرك أخفى من دبيب النملة على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.. ومن ينجو من شرك الرياء..؟! تأمل قول الله ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾[3]. واسأل ربك أن تكون من هذا القليل..

ويأتي قرار الله حاسماً في ختام الاستجواب يبين النتيجة..

---

(١) رواه ابن أبي حاتم.

(٢) رواه الإمام أحمد.

(٣) يوسف: ١٠٦.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ بتقدير: هذا اليوم هو اليوم الذي ينفع الصادقين.. ففي ذلك اليوم يظهر فضل الصدق ويتحقق الجزاء الذي يليق بالصدق.. فما أخسر الذين استخفوا بالصدق وما أضيع الذين كذبوا بالصادقين.. أو افتروا الكذب على لسان الصادقين.. إنهم أتفه وأحقر من أن يُذكروا بكلمة في هذا الموقف.. وإن عرف مصيرهم ضمنياً.. وكأن المشهد يهدف إلى ترغيب النصارى بتصحيح موقفهم بعرض ما ينتظر المؤمنين الصادقين من حسن الجزاء.. فسارعوا إلى التوبة فثم رحمة الله وفضله.

﴿ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وفي الجنة درجات.. فمن النعيم الخالد إلى درجة أعلى وهي رضى الله عنهم ورضاهم عنه وعن مصيرهم.. فهو النعيم النفسي الذي يكتمل به الفوز بالسعادة الأبدية ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ فهو عظيم وليس مجرد فوز كما ذكر في الآية ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾[1].

٥ـ ختام السورة:

وتختم السورة بتفرد الله في الملك والقدرة على كل شيء:

﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وهذا يناسب المشهد الأخير الذي كنا فيه.. فصاحب الملك هو الذي يحكم بين عباده ويقدر على إنفاذ حكمه. ويناسب مواضيع السورة والأحكام التي جاءت فيها.. فالمالك هو الذي يحق له أن يحكم ويشرع.. وهو قادر على الثواب والعقاب. فما أجدرنا بالاستجابة لأمره وقد أذعن له كل شيء في هذا الكون..

﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾[2]. فاللهم اجعلنا من الذين استجابوا لأمرك وأسلموا وجوههم إليك. ولا تخزنا يوم العرض عليك.. وبهذا نختم

---

(١) آل عمران: ١٨٥.

(٢) مريم: ٩٣ـ٩٦.

جولتنا مع هذه السورة الطويلة . . فالحمد لله على ما أعاننا . ونسأله أن يتجاوز عن ما نسينا وأخطأنا . . اللهم إن كنت قد أصبت فمن فضلك . . وإن قصرت وأخطأت فاغفر لي وألهم المسلمين أن يصححوا خطئي ويتداركوا تقصيري . والحمد لله أولاً وآخراً وسلام على عباده الذين اصطفى .

تم بحمد الله

الأحد ١٩ محرم ١٤١٣ هـ/ ١٩ تموز ١٩٩٢ م .

فهرس

الإهداء ٥
مقدمة بقلم: جودت سعيد ٧
بين يدي السورة ١١
هيكل السورة ١٣

مجموعة من الأحكام ١٧
الأمر بالوفاء بالعقود ١٧
نهي المحرم عن الصيد ٢٠
تعظيم شعائر الله ٢١
لا تدفعكم الكراهية إلى العدوان ٢٢
وتعاونوا على البر والتقوى ٢٤
المحرمات من اللحوم ٢٥
النهي عن الأزلام ٢٦
حل صيد الجوارح المعلّمة ٣٣
حلّ نكاح أهل الكتاب وطعامهم ٣٤
الطهارة للدخول في الصلاة ٣٦
الأمر بالقوامة بالقسط ٤١

في أهل الكتاب ٤٤
أخذ الميثاق على بني إسرائيل ٤٤
أخذ الميثاق على النصارى ٤٧
الكتاب يهدي إلى سبل السلام ٤٩
كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ٥٠
الرد على الذين قالوا نحن أبناء الله ٥٢
نداء لهم بمجيء البشير النذير ٥٣
موسى يأمر قومه بدخول الأرض المقدسة ٥٤

قصة ابنيْ آدم ٥٨
بعض التأملات في القصة ٦٣

جزاء محاربة الله/ والسرقة ٦٨
حد الحرابة ٦٩
الأمر بتقوى الله وابتغاء الوسيلة ٧٣
حد السرقة ٧٥
الشروط المتعلقة بالسارق ٧٦
الشروط المتعلقة بالسرقة ٧٧

الذين أنزلَ إليهم الكتاب ليحكموا به ٨٢
أصحاب الإنجيل ٩١
أصحاب القرآن ٩٣

تحذير المؤمنين من موالاة أهل الكتاب ٩٨
من يرتد يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه ١٠٠
وليكم الله ورسوله ١٠٥
حزب الله هم الغالبون ١٠٦
لَمَ تنقمون منا ١٠٨
التذكير بلمحات تاريخية ١٠٩
مهمة الربانيين والأحبار ١١٠
عقاب الله لهم جزاء افترائهم ١١١
لو آمنوا واتقوا ١٤٤
بلغ ما أنزل إليك ١١٥
لستم على شيء حتى تتبعوا ما أنزل الله ١٢٠
من آمن وعمل فلا خوف عليهم ١٢١

لمحات من تاريخ بني إسرائيل ١٢٢
في النصارى ١٢٤

كيف تعبدون ما لا يضر ولا ينفع ١٢٨
النهي عن الغلو في الدين ١٢٩
لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ١٣٠
أشد الناس عداوة للمؤمنين ١٣٣
أقربهم مودة ـ النصارى ١٣٧

مجموعة ثانية من الأحكام للمؤمنين ١٤٣

النهي عن تحريم الطيبات والعدوان ١٤٤
يمين اللغو وكفارة اليمين ١٤٧
تحريم الخمر والميسر والانصاب والأزلام ١٥٠
أحكام في الصيد ١٥٩
صيد البحر حلال ١٦٢
الكعبة قيام للناس ١٦٣
التعقيب ١٦٤
لا يستوي الخبيث والطيب ١٦٥
النهي عن السؤال ١٦٨
محرمات الجاهلية من الانعام افتراء ١٧٣
التنديد بالتقليد ١٧٤
لا يضركم من ضل ١٧٦
الشهادة عند الوصية ١٧٩
عيسىٰ والحواريين والمائدة ١٨٢
تخصيص عيسىٰ بالسؤال ١٨٣
طلبهم نزول المائدة ١٨٦
براءة عيسىٰ من ادعاء الألوهية ١٨٩
ختام السورة ١٩٢
فهرس ١٩٤

* * *

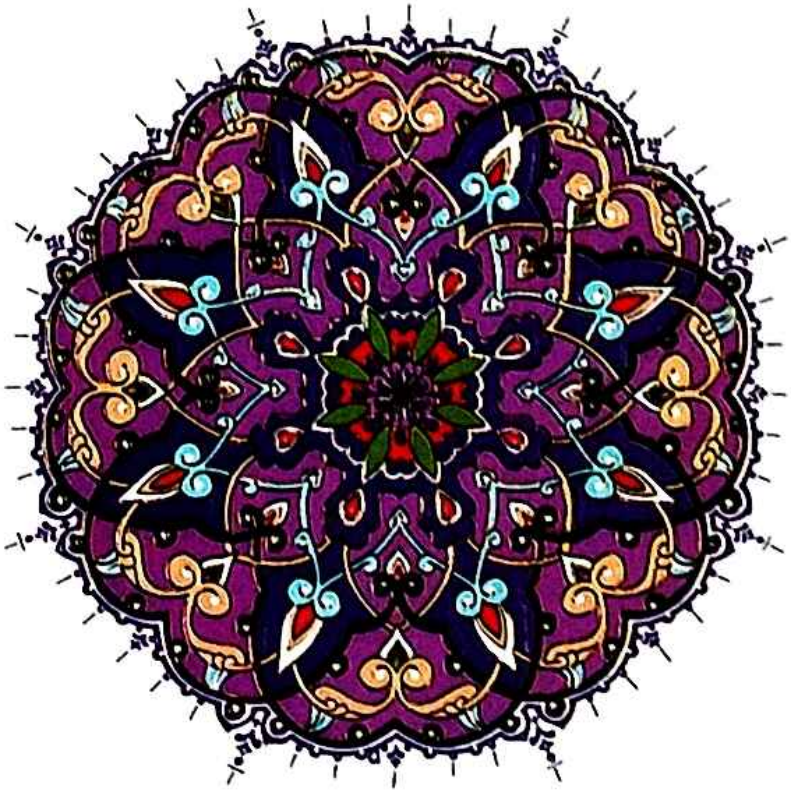

دار الآفاق والأنفس

دمشق ـ شارع مسلم البارودي ـ ص.ب 4727 ـ هاتف 2215123

Telex : 412927 Zarzor Sy - P. O. Box : 4727 - Phone : 215123
Damascus - Syria